

297.09:A12dA

العبادى، عبد الحميد

297.09

A12dA

تجارت ح الدفر

تلفون ۲۲۹۱۷



15

JANET  
17 AUG 18

# الدولة الإسلامية

تاريخها وحضارتها

تأليف

عبد الحميد العبادي محمد مصطفى زيادة ابراهيم احمد العيدوي

طبع في القاهرة

بمطابع مصرى تحت المراقبة

١٩٥٤



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تصدير

اختارت وزارة التربية والتعليم لهذا الكتاب لجنة من المؤلفين  
قل أن يجتمع مثلها لكتاب مثله ، أو أن يجيء تشكيلها على نحو  
ما جاءت عليه من الصدفة الحميدة . فالأول من هذه اللجنة  
استاذ للثانى فى المرحلة الثانوية من التعليم سنة ١٩١٤ م ؛ اى  
أوائل الحرب العالمية الاولى ، والثانى استاذ للثالث فى مرحلة  
التعليم الجامعى ، سنة ١٩٤٥ م ، وأخى الحرب العالمية الثانية ،  
وبينهم صلة علمية متينة لطيفة الخيوط ، وتفاهم فكرى وثيق  
العروة ، وهم جميعا مشتغلون بتدريس التاريخ فى الجامعات  
المصرية ، مدة سنوات متفاوتة الطول والتجربة . ثم ترتب على  
توزيع العمل بين المؤلفين الثلاثة شىء من التنوع ، من حيث  
قزارة المادة ومستوى الاسلوب ، فى مختلف أجزاء الكتاب ،  
وهو مما لا بد منه فى إنتاج مشترك بين ثلاثة اجيال من المشتغلين  
بدراسة التاريخ والتأليف فيه وتدريسه ، مع ما بينهم من تكامل  
وتوافق وفهم للتاريخ .

ومن أجل اعداد هذا الكتاب للمطبعة عينت وزارة التربية

والتعليم كاتب هذه السطور القليلة ، وذلك بموافقة زميليه في  
التأليف ، للقيام على هذا العمل الذي تطلب بطبيعته بعضا من تعديل  
المادة بالتبسيط والاختصار والحذف والاضافة ، وبعضا من  
تقريب المستوى الاسلوبى كذلك ، حتى يتيسر للقارئ السير في  
الكتاب كله على سجية واحدة . واستقام ذلك في سهولة باتباع  
النفمة الوسطى في جميع أجزاء الكتاب ، وارجو الا اكون اسأت  
تأدية هذه المهمة الدقيقة ، نيابة عن نفسى وزميلي في التأليف .  
وسوف يلحظ القارئ ان الدولة الاسلامية - موضوع هذا  
الكتاب - وحدة تاريخية ، هي في ذاتها جزء من التاريخ العام ،  
وليس التاريخ العام جزءا منها ، وبين هذا الجزء الاسلامى  
وسائر اجزاء التاريخ في الشرق والغرب ، وفي السابق واللاحق  
من العصور التاريخية ، تماسا احيانا ، وتداخلا احيانا اخرى ،  
وتقاطع احيانا ثالثة ، سواء في الخير أو الشر ، او ما بينها من  
نوازع بيولوجية حيوية .

ومع ان هذا الكتاب ليس تاريخا سياسيا للدولة الاسلامية ، او  
سجلا مفصلا لمراحل الفتح والنصر والتوسع والتطور ، فأساسه  
ان التاريخ الاسلامى وحدة ، اقسامها الطبيعية عصر النبوة  
والرسالة ، وعصر الخلافة الصحابية ، وعصر الخلافة الوراثية  
السياسية منذ قيام الأمويين الى سقوط بغداد ، وعصر الدول  
الاسلامية المستقلة في الشرق والغرب ، وهذا كله في العصور  
الوسطى وفقا للتقسيم التقليدى للتاريخ . ثم يتلو ذلك عصر الدولة



العثمانية ، ثم عصر النهضة العربية الحديثة الذي يمتد الى الحاضر والمستقبل . ويبدو واضحا ان هذه الاقسام اكثر انطباقا على الواقع والمنظور التاريخي من غيرها من الاقسام الجارية في تدريس التاريخ في العالم الاسلامي .

ولذا اتجه المؤلفون الى الامعان في شرح العوامل المختلفة التي دفعت المسلمين الاولين الى التوسع ، وانتشار الاسلام واللغة العربية ، وتطور الدولة الاسلامية وحكومتها المركزية والاقليمية . واعقب ذلك فصل خاص بالحضارة الاسلامية في ازهى عصورها ، مع بيان المؤثرات الاجنبية فيها ، ووصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المجتمع الاسلامي ، وبيان المؤثرات الحضارية الاسلامية بدورها في الحياة الفكرية والاحوال الاجتماعية والاقتصادية في غرب اوربا ، مما هو اجدى علمي الطالب من اخبار الحروب والمعارك والانتصارات في ميادين القتال .

ثم طرأت على الدولة الاسلامية عوامل الاستقلال الاقليمي ، وتوزعت الحركة الفاتية بين المسلمين في اشتمات البلاد ، وتفرعت الحضارات والثقافات الاسلامية ، وهذا هو الفصل الثالث من الكتاب . وبينما تسرى الحركات الاستقلالية الانفصالية في اقاليم الدولة الاسلامية ، وتؤدي الى قيام دول متعددة بين منية وشيعية متنافرة ، ظهرت دولة السلاجقة التي اعادت وبعثت النشاط التوسعي الاسلامي على حساب الدولة البيزنطية المسيحية ، واخافت الدول الاوربية جميعا من جديد ، وذلك حين بدأت هذه الدول الاوربية في الاستقرار والنهوض والطموح

الخارجي . ومن هنا جاءت الحروب الصليبية ، وهي الفصل الرابع من هذا الكتاب .

والمعروف أن الجيوش الصليبية وجدت بلاد العالم الاسلامي في تفكك صارخ ، والدول الاسلامية المستقلة في الشرق الاوسط في انحلال بالغ سن اليأس ، بعد زوال شخصيات الدولة السلجوقية وعوامل استمساكها . غير ان هذه الحروب الصليبية بعينها خلقت روحا من المقاومة الاسلامية المتحدية للصليبيين ، وما لبثت هذه الروح ان انجبت فكرة توحيد الجبهة الاسلامية ، كما انجبت شخصية صلاح الدين الايوبي واسلافه واخلافه في شمال العراق والشام ، ثم في مصر التي استطاعت ان تنهض بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد المسلمين عامة . واستطاعت فئة الرجال الذين اقتلعوا الصليبيين من معاقلهم بالشرق ان يوقعوا الهزيمة كذلك بالمغول وجنودهم ، لأول مرة في تاريخهم التخريبي ، وذلك برغم ما قام به اولئك المغول من ازالة الخلافة العباسية في بغداد . ونتج عن ذلك كله ان صارت مصر مركز العالم الاسلامي ؛ ومقر الخلافة العباسية ، وقبله انظار المسلمين من مشارق الارض ومفاربها ، واضحت القاهرة موئل العلماء وقادة الفكر من مختلف البلاد الاسلامية .

ويختتم هذا الكتاب بفصل في تكوين الدولة العثمانية التي غدت محور الارتكاز في العالم الاسلامي منذ اوائل القرن السادس عشر الميلادي ، بعد ان استولت على الشام ومصر والعراق واليمن

والحجاز ، ونقلت مقر الخلافة الى القسطنطينية على شاطئ  
البوسفور في اوربا . غير ان هذه الدولة العثمانية الاسلامية  
اعتراها الفساد الداخلى ، فاخذت تنكمش رويدا رويدا ، على  
حين اخذت الدول الاوربية المجاورة تزداد مساحتها على حساب  
العثمانيين انفسهم . ومع هذا لم يفقد الاسلام قوته الذاتية ،  
بدليل انتشاره - في غير حرب او سيف او عنف - الى بلاد مترامية  
الاطراف في اقصى الشرق الاقصى ، وجوف افريقيا ، وهو فصل  
الختم في هذا الكتاب الذى ينتهى بخريطة توضيحية للعالم  
الاسلامى فى العصر الحاضر ، وهى واحدة من بضع خرائط  
توضيحية فى فصول الكتاب ، لمساعدة القارئ على تصور الدولة  
الاسلامية جغرافيا فى عصورها المختلفة .

ورغبة فى تيسير هذه المساحة التاريخية الواسعة على الطلاب ،  
استأذنت زميلى فى تأليف هذا الكتاب فى عرض اجزاء منه على  
بعض تلاميذى المستغلين بتدريس التاريخ فى مختلف مراحل  
التعليم ، للتأكد من ملاءمة مادته ومستواه للفرض المنشود به .  
وهؤلاء هم الباز العرينى المدرس المنتدب بقسم التاريخ بجامعة  
القاهرة ، وعبد الشافى غنيم المدرس الاول بمدرسة مصطفى كامل  
الثانوية ، ومحمد احمد الغنام المدرس بمعهد التربية للمعلمين  
بجامعة عين شمس . وآخرهم هو الذى اعاننى كذلك على قراءة  
الكتاب كله اكثر من مرة اثناء اعداده للمطبعة ، وفى هذا التنويه  
بمشاربته معى شكر منى اليه يفوق ما جرى العرف على تسجيله

اقراراً بجميل معونته ، نيابة عن المؤلفين . واود هنا - نيابة  
عن المؤلفين الثلاثة كذلك - ان اشكر القائمين على شؤون  
مطابع المصرى تحت الحراسة ، من هيئة الادارة والعمال ،  
عنايتهم باخراج هذا الكتاب فى اتقان ملحوظ وسرعة فائقة .

وبعد هذا يرجو المؤلفون الثلاثة ان يكون هذا الكتاب عند  
المستوى الملائم للطالب والقارىء العام ، وان يهديهم نقد الناقدين  
الى ما فيه من مواضع الاضافة او الحذف او التعديل او التيسير ،  
وهو ما سوف يرحب به المؤلفون من القارىء الخاص والعام ،  
املا فى الوصول بالكتاب الى ما يتطلبه الوعي الشرقى الجديد  
والنهضة المصرية المتوثبة من غذاء تاريخى ناضج سليم .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة

نوفمبر سنة ١٩٥٤ م  
ربيع الاول سنة ١٣٧٤ هـ

# محتويات الكتاب

## الفصل الاول

نمو الدولة الاسلامية

( ص ١٥ - ١١١ )

العوامل التي دفعت المسلمين الى التوسع - انتشار الاسلام  
واللغة العربية - تاسيس الدولة الاسلامية - تطورها - نظم الدولة  
الاسلامية - الحكومة المركزية - حكومة الولايات .

## الفصل الثاني

الحضارة الاسلامية في ازهى عصورها

( ص ١١٢ - ١٦٨ )

اصولها : الاسلام - الثقافة العربية - المؤثرات الاجنبية في  
الحضارة الاسلامية . الحياة الاجتماعية والاقتصادية : عناصر  
المجتمع - اهل الذمة - الاسرة الاسلامية - الزراعة -  
الصناعة - التجارة - النظم المالية . الحياة الفكرية : علوم اللغة  
والدين - التاريخ والاجتماع وتقويم البلدان - الفلسفة وعلم  
الكلام - العلوم الطبيعية والرياضية - الفنون والآثار - حركة  
الترجمة - فضل العرب على الحضارة العالمية .

## الفصل الثالث

### الحركات الاستقلالية في الدولة الاسلامية

( ص ١٦٩ - ٢٢٨ ) .

نشأة الفرق الاسلامية اثرها السياسي والاجتماعي -  
عوامل التفكك - قيام الدول المستقلة - الاندلس - الحضارة  
الاسلامية الاندلسية - مصر - الحضارة الفاطمية والمملوكية .  
فارس والعراق ؛ بنوبويه السلاجقة ؛ الحمدانيون في الموصل  
والشام - علاقتهم بالبيزنطيين ، الاسلام في الهند - المغل .

## الفصل الرابع

### العالم الاسلامي بين الصليبيين والمغول

( ص ٢٢٩ - ٢٩١ ) .

اهمية العالم الاسلامي : الموقع - طرق التجارة - تنوع  
الموارد - الاماكن المقدسة - الحروب الصليبية : الدعوة اليها  
والعناصر المسيحية التي اسهمت فيها : الكنيسة - الاقطاع -  
الامارات البحرية الايطالية - ضعف الدولة البيزنطية - تكوين  
الامارات اللاتينية في الشرق - حركة الجهاد الاسلامي وادوار  
الكفاح - طرد الصليبيين من الشرق الاسلامي . اثر الحروب  
الصليبية في الحضارة الاوربية . غارات المغول : موطنهم - اهم  
فتوحهم شرقا وغربا - سقوط بغداد - جهود مصر في صد  
المغول - الدولة المغولية .

## الفصل الخامس

### الدولة العثمانية

( ص ٢٩٢ - ٣٤٦ ) .

الترك والاسلام - تأسيس الامارة العثمانية - اتساعها  
وفتوحها في اوربا - انضواء العالم العربى تحت الحكم العثمانى -  
نظم الحكم فى الدولة والولايات - الحركات القومية قبل القرن  
التاسع عشر الميلادى .

## الفصل السادس

### انتشار الاسلام فى العالم

( ص ٣٤٧ - ٣٧١ ) .

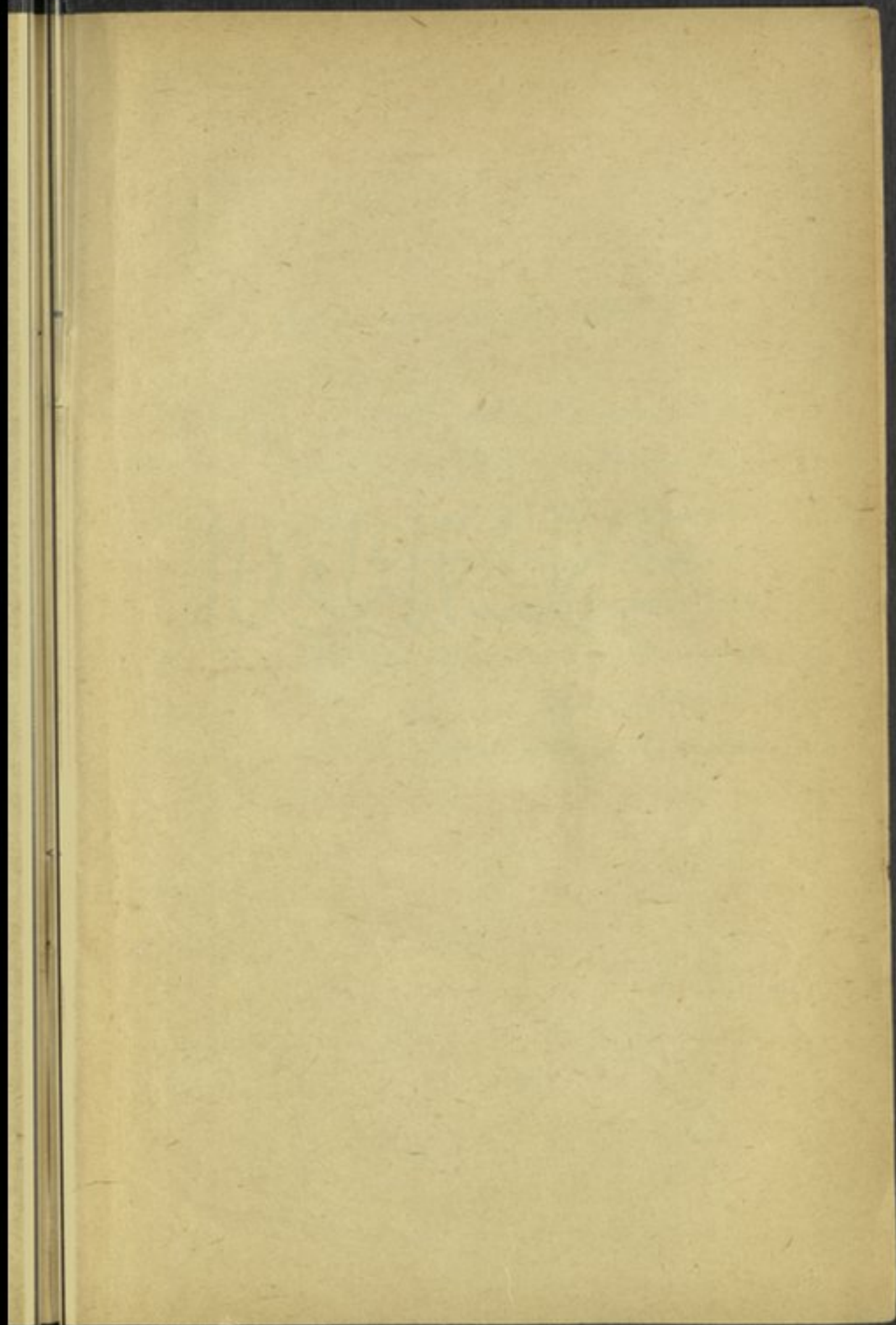
اثر التبادل التجارى والطرق الصوفية فى نشر الاسلام فى  
افريقية - السودان - الحبشة - الصحراء الكبرى اثر التبادل  
التجارى فى نشر الاسلام فى جزائر الهند الشرقية والملايو والصين  
فى الشرق الاقصى .

## قائمة الخرائط التوضيحية

- ص ٦٥ - الدولة الاسلامية في القرن الاول الهجرى  
١٨٥ - تفكك الدولة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى  
٢٣٠ - حروب سيف الدولة الحمدانى  
٢٤٣ - طرق التجارة في الدولة الاسلامية  
٢٥٨ - الامارات اللاتينية في الشام  
٢٧٠ - الامارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين  
٣٢١ - الامبراطورية العثمانية  
٣٧١ - العالم الاسلامى في العصر الحاضر



الدُّوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ



## الفصل الأول

### نمو الدولة الإسلامية

#### العوامل التي دفعت المسلمين الى التوسع

يقوم تاريخ العصور الوسطى على ثلاث ظواهر تاريخية : فالظاهرة الاولى هي انتشار الديانة المسيحية من فلسطين الى غيرها من بلاد الدولة الرومانية الوثنية ، وذلك منذ اواخر العصور القديمة اى قبيل العصور الوسطى . والظاهرة الثانية هجرة القبائل التيوتونية - اى الجرمانية - من مواطنها الى تلك البلاد الرومانية واستقرارها بالاقاليم الغربية منها مع اعتناقها المسيحية تدريجا منذ القرن الرابع الميلادى . اما الظاهرة الثالثة فهي قيام الدين الاسلامى فى شبه جزيرة العرب ، واعتناق العرب الاسلام ، والتوسع العربى الاسلامى الكبير منذ القرن السابع الميلادى .

وترتب على الظاهرتين الاولى والثانية معا نشأة التقسيمات التى نبتت منها الدول الاوروبية المسيحية المعروفة بغرب اوروبا حتى العصر الحاضر ، ومنها المانيا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا واسبانيا . كما ترتب على الظاهرة الثالثة ان اتخذ الشرق طابعه

المميز له عن الغرب ، والذي لا يزال ملحوظا حتى اليوم ، ونعني به طابع الاسلام . وبذلك اخذ يتكون الغرب المسيحي والشرق الاسلامي .

والرأى السائد الى عهد قريب في تعليل التوسع العربي الاسلامي الكبير هو القائل بحرص المسلمين الاولين على نشر الاسلام بالقوة والسيف وحدهما . وهو رأى قال به رجال الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى وتبعه بعض كتاب التاريخ من المسلمين والمسيحيين المتأخرين . غير ان هذا الرأى العنيف لاسند له من الواقع او من التاريخ . والصحيح ان الفتوح العربية الاسلامية الكبرى انما حدثت استجابة لعوامل اولها ديني ، وثانيها اقتصادي ، وثالثها سياسي .

#### العامل الديني :

اما العامل الديني فأمره واضح وهو ان الرسول عليه السلام جاء بالدين الاسلامي لينشره بين الناس ، وانه جعل من العرب كتلة واحدة استطاعت ان تحمل دعوة الدين الى مختلف البلاد القريبة والبعيدة في غير اكراه او ارهاق مع تخيير اهل البلاد المفتوحة بين الاسلام او الضريبة الشخصية المعروفة باسم الجزية .

#### العامل الاقتصادي :

والعامل الاقتصادي ملحوظ في الجغرافية الطبيعية لشبه جزيرة العرب نفسها حيث اخذت الاحوال الجوية منذ الالف

الرابع قبل الميلاد تخضع لعوامل الجفاف ونقص الامطار وجذب التربة ، وترتب على ذلك ان اخذت القبائل العربية تهاجر من شبه الجزيرة على مراحل متباعدة الى الاقطار المجاورة الخصبة ، اى الى الشام والعراق حيث تكونت دول بابل وآشور وكلدنيا والعمالقة والفينيقيين والebraانيين . وليست هجرة القبائل العربية فى صدر الاسلام الى هذه الاقطار وما وراءها الا من قبيل تلك الهجرات القديمة ، وان اختلفت عنها من حيث الزمن والطابع الدينى العام . وقد مهد للهجرة العربية الاسلامية هجرات حدثت على نطاق ضيق فى القرون الثلاثة السابقة على الاسلام ، ومنها هجرة قبائل من البحرين الى ريف العراق وتكوينها مملكة الحيرة المشهورة ، وهجرة قبائل يمنية الى الحجاز ، ثم الى بادية الشام ، حيث تكونت مملكة الغساسنة المعروفة .

وبمجيء الدعوة الاسلامية وقيام الدولة الاسلامية فى المدينة اكتسبت هذه الحركة العربية المتصلة قوة ونظاما تمكنت بهما من ان تكتسح الدولة الساسانية الفارسية ، وان تنتزع من الامبراطورية البيزنطية اغنى املاكها ، اى الشام ومصر . وذلك فى مدة وجيزة لا تكاد تتجاوز عشر سنين .

#### العامل السياسى :

غير ان حركة التوسع العربى الكبير ما كانت لتأخذ مجراها المعروف فى التاريخ لو ان الدولتين الفارسية والبيزنطية كانتا قوتين منيعتين . والواقع ان من مصادفات التاريخ العجيبة ان تقترن

تهضة العرب واجتماعهم على دعوة واحدة ودولة واحدة ، بضعف  
واختلال بجميع مرافق الدولتين الفارسية والبيزنطية .  
سوء حال الدولة الفارسية :

اعترى الدولة الفارسية منذ اواخر القرن الخامس الميلادى  
ضعف شامل برغم الجهود التى بذلها الاكاسرة بغية الاصلاح .  
واهم مظاهر هذا الضعف فى الداخل تعدد النحل القريبة  
والانقسامات الدينية ، فالزرادشتية وهى الدين الرسمى  
للدولة ، والماتوية وهو مذهب فلسفى ينزع بالناس الى الزهد  
المطلق وعدم الانتاج ، ثم المزدكية الشيعوية التى اثارت الفقراء  
على الاغنياء فى فارس ، ثم النصرانية بمذهبيها المتقارئين  
النسطورى ، واليعقوبى ، ثم اليهودية والصابئة التى لم تعدم كل  
منها وجودا فى بعض المدن . وكانت الكنيسة الزرادشتية  
الرسمية تضطهد اتباع الملل الاخرى ، واضطهدت الحكومة  
الفارسية رعيتهما من النصارى كلما وقعت حرب بينها وبين  
الدولة البيزنطية .

ثم ان نظام الحكم فى الدولة الفارسية كان نظاما وراثيا  
استبداديا يقوم على فكرة ان كسرى يحكم بتفويض من الله ،  
وعاش الاكاسرة فى شبه عزلة واحتجاب عن رعيتهما ولهم نظام  
للجاسوسية يطلعهم على ما يجرى فى الاقاليم .

وظلت الدولة الفارسية منذ القرن الخامس الميلادى فى حروب  
متصلة مع الشعوب المجاورة لها ولاسيما القبائل التركية شرقا

والدولة البيزنطية غربا ، مما استنزف دماء ابنائها وافرغ  
خزانتها .

ومما يدل على تخطيط السياسة الفارسية وقتذاك انها عملت  
على القضاء على مملكة الحيرة العربية ، وهي درع لها من  
عادية القبائل العربية مما يلي ريف العراق . وبذهاب هذه  
المملكة الحاجزة تجرات القبائل العربية الريفية ، ولا سيما قبيلة  
بكر بن وائل على الدولة الفارسية وانتصرت بكر على الجيش  
الفارسي في وقعة ذى قار ( بين ٦٠٤ ، ٦١١ م ) وهو اول نصر  
احرزته العرب على العجم ، واول نذير بالانتصارات الاسلامية  
الكبرى في العراق وفارس نفسها .

وليس ادل على مبلغ اضطراب الدولة الفارسية في السنوات  
العشر السابقة على شروع المسلمين في غزوها من انه تعاقب  
على عرشها في تلك السنوات اثنا عشر ملكا بين رجل وامرأة  
وصبى صغير ومفتصب من غير بيت الملك .

#### سوء حال الدولة البيزنطية

لم تكن الدولة البيزنطية اوائل القرن السابع الميلادي احسن  
حالا من دولة الفرس . فالمنازعات المذهبية صدمت وحدتها  
الروحية ، والمسيحية في ذلك الزمن مذاهب يخاصم بعضها  
بعضا . وكان مدار الجدل والنزاع بين هذه المذاهب في الغالب  
حول طبيعة السيد المسيح ، فالنساطرة يفلبون الجانب البشري  
على الجانب الالهي في ذاته عليه السلام ، واليعاقبة يفلبون الجانب

الالهى على الجانب البشرى . والملائكية وهم اتباع المذهب  
الرسمى للحكومة يقولون بالطبيعتين كما قالوا اخيرا بوحدة  
الارادة التى يصدر عنها السيد المسيح .

ولكن الحكومة البيزنطية عجزت عن ان تفرض مذهبها على  
اتباع المذهبين الاخرين ، فلجأت الى اضطهادهما ، وتشرد اصحاب  
المذهب النسطورى الى العراق وفارس وبلاد العرب ، وتطرق مذهبهم  
الى الهند . واما المذهب اليعقوبى فانتشر فى الشام ومصر ، وهما  
من بلاد الدولة البيزنطية ، وتعرض اصحابه لاضطهاد الدولة لهم .

ثم ان الحروب الخارجية الكثيرة التى اضطرت الدولة الى  
خوض غمارها وبخاصة مع الفرس والابر ( الآفار ) استنزفت  
موارد الدولة ، فلجأت الحكومة الى زيادة الضرائب والشدة فى  
جمعها مما انقل كاهل الطبقات الفقيرة خاصة . وتطرق الخلل  
الى الحكومة بسبب هذه الحروب ، فضلا عن الخلافات المذهبية ،  
فكثر تمرد الجند وتعددت ثوراتهم ، واجتروا على الاباطرة ،  
فكانوا يولونهم ويعزلونهم ويسجنونهم ويعذبونهم كيف شاءوا ،  
وبذلك انحطت هيبة الاباطرة وانحطت معها هيبة مجلس السناتو  
أى مجلس الشيوخ . ثم اضطرتها حالتها الاقتصادية الى  
قطع العون المالى الذى كانت تؤديه للفساسنة وذلك فى اوائل  
القرن السابع . فكان من وراء ذلك ان انقضت عليها القبائل  
العربية النازلة فى بادية الشام وجنت بيزنطة من تلك السياسة  
ما جنته فارس من القضاء على مملكة الحيرة .



### سياسة حكومة المدينة :

لاشك ان ابا بكر الصديق ورجال حكومة المدينة كانوا على اثر الفراغ من حروب الردة وانفساح المجال امامهم لغزو الشام والعراق ، حريصين على انتهاز الفرصة السانحة ، فدفعوا القبائل العربية نحو الجبهتين الشرقية والغربية في وقت واحد يحدوهم الى ذلك امران :

( ١ ) عامل الرغبة في ان يشغلوا العرب عن العودة الى ردة جديدة .

( ٢ ) وعامل الرغبة في ان يشبعوا نزعة العرب للحرب وميلهم الى كسب المغنم من طريق الغزو . وبذلك ينصرفون عما اراد الاسلام ان يصرفهم عنه ، وهو غزو بعضهم بعضا ، ونهب بعضهم اموال بعض من طريق الغارات القديمة . ونجحت هذه السياسة ايما نجاح اذ استجابت القبائل العربية لداعى الغزو الخارجى عن رضا وطواعية .

### مجمل حال الأمة العربية :

ومما تقدم يتبين مبلغ الفرق بين حال الدولتين الفارسية والبيزنطية وحال الدولة الاسلامية والامة العربية . فالعرب في نهضة حقيقية واتحاد تام غداة الفراغ من حروب الردة ، والوعى القومى تنبه فيهم الى درجة بعيدة ، والاسلام امدهم بالقوة اللازمة للقيام بعظائم الامور ، وبالنظام الكفيل بالنجاح . فاذا عرفنا ان اساليب الحرب وانواع السلاح كانت في ذلك

الزمان في العالم كله واحدة تقريبا ، وأن العرب باتصالهم بالفرس والبيزنطيين عن طريق الحيرة و امارة الفساسنة من نواعلى حروب هاتين الدولتين ، اذا عرفنا كل ذلك اتضح لنا مدى استعداد العرب الحربى وسر اقدامهم على محاربة الدولتين الكبيرتين في وقت واحد .

## التوسع العربى

### حرب الردة وآثارها :

ظهرت في جزيرة العرب قبيل وفاة النبى حركة مقاومة للاسلام لم تلبث ان اشتدت وعظمت بوفاة عليه السلام وبيعة ابى بكر بالخلافة . ولكن ابا بكر صمم على القضاء على هذه الحركة ، ورمى المرتدين في قلب شبه الجزيرة بخالد بن الوليد كما انفذ قادة آخرين الى اطراف الجزيرة لقمع الردة فيها . وقضى خالد على ردة بنى اسد وتميم وحنيفة بعد قتال عنيف ، وكذلك فعل القادة الآخرون في سائر انحاء شبه الجزيرة . ولم يكفد يمضى على وفاة الرسول عام وبعض عام حتى عادت شبه الجزيرة الى الاعتصام بحبل الدين الجديد والدولة الاسلامية الجديدة . وذلك بفضل عزيمة ابى بكر وعبقريته خالد العسكرية .

وترتب على انتصارات خالد والقادة الآخريين في وقائع الردة ان اخذت انظار القبائل العربية النازلة باطراف العراق والشام

تتجه نحو الدولة العربية الاسلامية الجديدة التي قامت في المدينة واخذت تخصها باعجابها ولا سيما بعد ان انقطعت الصلة بينها - كما بينا من قبل - وبين الدولتين الفارسية والبيزنطية . بل لقد بلغ الامر ببعض هذه القبائل ان طلبت الى ابي بكر ان يعينها على غزو العراق والشام . فكان هذا الطلب من القبائل المذكورة ، وقبول ابي بكر له عملا بسياسته التي تقدمت الاشارة اليها ، واستنفاه العرب عامة لغزو العراق والشام ، واستجابة العرب له للاسباب التي سبقت ، كل هذا يعطينا الاساس التاريخي لشرع العرب في غزو املاك الدولتين الفارسية والبيزنطية .

#### غزو خالد بن الوليد العراق ١٢ - ١٣ هـ :

نزلت قبيلة بكر بن وائل جنوبي العراق واثارت الحرب بينها وبين الدولة الفارسية ، وانتصرت قبيلة بكر كما قدمنا على الجيش الفارسي في وقعة ذي قار . واعجبت هذه القبيلة بانتصارات خالد على المرتدين في قلب شبه الجزيرة حتى ليقال ان وفدا من شيوخها على راسه المثنى بن حارثة الشيباني سار الى المدينة ولقى الخليفة وطلب اليه ان ياذن لخالد في غزو العراق على ان تنضم اليه قبيلة بكر ، فاذن ابو بكر في ذلك .

وعلى ذلك سار خالد بعد فراغه من ردة بني حنيفة متجها نحو العراق على راس كتيبة عدتها نحو ٥٠٠ مقاتل وانضم اليه متطوعون كثيرون رغبة منهم في شرف القتال تحت لوائه واملا في

مغانم كثيرة يتوقعونها . وسار خالد متبعا الجانب الغربى للفرات متجنباً البطائح والمستنقعات ، ثم انضمت اليه بكر يقودها المشنى بن حارثة الشيبانى ، فبلغت قوة الفريقين حوالى ٣٠٠٠ مقاتل ، واتبع خالد فى هذه الغزوة طرق الحرب الخاطفة ، فكان يظهر ويختفى وينتقل من مكان الى مكان بسرعة عجيبة ، واخيرا هاجم مدينة الحيرة الحصينة ، واضطرت حاميتها الى ان تفتدى نفسها بجزية تؤديها قدرها ٦٠٠٠٠ درهم وذلك سنة ١٢ هـ . ثم امر ابو بكر خالدا بأن ينتقل بكتيبته من العراق الى الشام حيث تخرجت امور الغزاة المسلمين فى بعض البلاد الشامية ، فسار خالد بكتيبته من الحيرة الى تدمر ومنها الى الشام ولحق بجيوش المسلمين تحت اسوار دمشق . وقد عدت رحلة خالد هذه بكتيبته مخترقا الصحراء الجرداء التى بين العراق والشام فى بضعة ايام من روائع الحركات العسكرية فى التاريخ .

## فتح الشام

### الحالة على حدود الشام :

سلكت قبائل لخم وجذام وقضاعة من الدولة البيزنطية - بعد قطعها العون المالى عن الفساسنة - مسلك قبيلة بكر من الدولة الفارسية بعد ان قضى الفرس على مملكة الحيرة . ولا شك ان لخم وجذام وقضاعة قد نبهتها غزوات مؤته وتبوك ، فى عهد الرسول عليه السلام . والظاهر انها طلبت الى ابى بكر ان تنضم

الى القوات الاسلامية في غزو الشام ، وان الخليفة استجاب  
لهذا الطلب تمشيا مع سياسته التي عرفناها .

### زحف المسلمين الى الشام :

وعلى ذلك سير ابو بكر في خريف سنة ٦٢٣ م ( ١٢ هـ )  
ثلاثة جيوش اولها بقيادة يزيد بن ابي سفيان ، والثاني يقوده  
شرحبيل بن حسنة ، والثالث يقوده عمرو بن العاص . وكان  
يزيد بن ابي سفيان اول القادة الثلاثة اصطداما بالجيش  
البيزنطي ، اذ جرت بينه وبين سرجيوس بطريق قيصرية وقعة  
في وادي العربية جنوبي البحر الميت ، وانتهت هذه الوقعة بمقتل  
القائد البيزنطي والقضاء على جيشه ( ٤ فبراير سنة ٦٢٤ م ) ،  
وبعد ذلك بقليل اقبل عمرو بن العاص بجيشه من ايلة - اى  
العقبة الحالية - وبث الغارة في كل الاجزاء الجنوبية من فلسطين  
حتى بلغ اقليم قيصرية .

### وقعة اجنادين :

كان الامبراطور في ذلك الوقت مقيما في حمص ، فلما بلغته  
اخبار غزو العرب فلسطين ، حشد جيشا ، وعين لقيادته اخاه  
تيودور ، وامره ان يسير به من جنوبي دمشق الى فلسطين .  
ومن حسن حظ العرب ان وصل خالد بن الوليد في كتيبته  
في ذلك الوقت قادما من العراق فبلغ دمشق فجأة في ٢٤ ابريل  
سنة ٦٢٤ م ، فلما رأى الجيش البيزنطي يتحرك نحو الجنوب ،  
صار هو كذلك جنوبا سالكا المنطقة الواقعة شرقي نهر الاردن

وتمكن من الاتصال في وادي العربية بيزيد وعمرو . ثم تقدمت  
الجيوش العربية الثلاثة مجتمعة للقاء الجيش البيزنطي .  
فكانت بينهما وقعة اجنادين بين بيت المقدس وغزة  
( سنة ٦٣٤ م - سنة ١٣ هـ ) فانهزم البيزنطيون انهزاما  
شنيعا بفضل تدبير خالد بن الوليد . وعلى اثر ذلك  
انساح العرب في جنوبي فلسطين .

وبلغ نبا انتصار العرب في وقعة اجنادين مسامع ابي بكر  
وهو على فراش الموت - توفي في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ  
( اغسطس سنة ٦٣٤ ) وخلفه عمر بن الخطاب .  
دخول دمشق :

وتولى خالد القيادة العليا للجيوش العربية في الشام ،  
وتقاطرت اليه المطوعة من انحاء الجزيرة عندما بلغهم انتصارات  
المسلمين في الشام ، وزحف خالد الى دمشق حيث تراجعت  
اليها فلول الجيش البيزنطي بعد وقعة اجنادين ، وضيق عليها  
الحصار حتى استسلمت في سبتمبر سنة ٣٣٥ ( رجب سنة  
١٤ هـ ) .

وبسقوط دمشق انصرف العرب الى اتمام فتح الشام ،  
فانصرف القادة الاصليون الى فلسطين ، كما زحف خالد الى  
حمص فاستولى عليها . واستولى العرب على معظم المدن  
المكشوفة . اما المدن الحصينة امثال بيت المقدس وقيصرية

ومدن الساحل فصابت العرب على أمل أن تأتيها النجدة من  
قبل الامبراطور هرقل .

### وقعة اليرموك :

على أن الامبراطور هرقل لم يياس مع ذلك من استنقاذ الشام  
فأخذ يعمل ، في انطاكية والرها ، على جمع جيش كبير يطرد  
به العرب من الشام . وتم حشد هذا الجيش جنوبي دمشق  
وكانت عدته على أقل تقدير ٥٠٠٠٠ مقاتل معظمهم من مرتزقة  
الارمن وبعض العرب الموالين للبيزنطيين ، وعين عليه قائدا  
اسمه تيودور .

وفي ربيع سنة ٦٣٦ م زحف الجيش البيزنطي الى حمص  
فجاءه ، فادرك خالد من فوره حرج موقف العرب تجاه هذا  
الجيش الضخم ، وامر أن يجلو العرب عن دمشق وعن حمص  
كما دعا قادة العرب جميعا الى الاجتماع بجيوشهم في مكان يقع  
شرقي الاردن وجنوب شرقي وادي اليرموك وشمال البلدة التي  
تعرف الآن بدرعة ( اذرعان ) وهو موضع هام من الناحية  
الاستراتيجية ، يتوسط اخصب بقاع الشام ، وتمر منه الطرق  
الرئيسية المؤدية الى قلب فلسطين والى جنوبي المنطقة الواقعة  
شرقي الاردن . وكان العرب في هذا الموقع تحمي ظهورهم روافد  
اليرموك العميقة ، فاذا ما قدرت لهم الهزيمة امكنهم الانسحاب  
الى الصحراء أو الرجوع الى المدينة راسا . ولم تبلغ عدة الجيوش  
العربية المجتمعة على اليرموك سوى ٢٥٠٠٠ مقاتل .

أما الجيش البيزنطي فسار من جنوبي دمشق وعبر الأردن ، واحتل مواقعه عند قرية جلق . وظل الجيشان متواقفين مدة طويلة . لأن العرب وقفوا ينتظرون وصول أمداد تأتيهم من المدينة ، ولأن الخلاف دب بين صفوف البيزنطيين مع انتشار روح التمرد في الجند وتكوص بعض الكتائب العربية المرتزقة عن القتال . عند ذلك عزم خالد على مناجزة تيودور وعبأ العرب تعبئة بديعة وأحكم خطة القتال ، فوضع جانباً من جنوده في الناحية الشرقية من الميدان ، وقطع طريق الاتصال بين البيزنطيين ودمشق ، واحتل الجسر القائم فوق وادي الرقاد ليسهل عليه عبور هذا الوادي في سهولة ويسر ، وبذلك حال بين البيزنطيين وبين إمكان تراجعهم نحو الغرب .

ثم هجم خالد على البيزنطيين والجأهم الى زاوية تقع بين اليرموك ووادي الرقاد يقال لها الواقوسة ، فانحصروا فيها ، فمن لم يقتل منهم في الحرب هوى في اعماق روافد اليرموك طلباً للنجاة ، ومن نجا من الفرق اخذته سيوف العرب الذين في الناحية الشرقية ، وبهذه الخطة اييد معظم الجيش البيزنطي ، وتقرر امر الشام لمصلحة العرب وكانت وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م - ١٥ هـ ) وعلى اثرها عاد العرب ، فاحتلوا دمشق .

ابو عبيدة بدلا من خالد :

راى الخليفة عمر بن الخطاب على اثر توليه الخلافة ان الشام



نظرا لاحواله الخاصة احوج الى رجل يوصف بحسن السياسة والادراك منه الى جندي ممتاز ، فامر على اثر استخلافه بتنحية خالد عن القيادة على جيوش الشام وولى مكانه صحابيا قديما معروفا بالحزم وحسن السياسة هو ابو عبيدة بن الجراح .  
وقدم ابو عبيدة الشام قبيل وقعة اليرموك ، ولكنه ترك امر ادارة الوقعة لخالد لخبرته بملايسات الموقف الحربى . فلما انتهت الوقعة بانتصار العرب باشر ابو عبيدة مهام منصبه فوزع الجيوش توزيعا جديدا ثم سار هو وخالد شمالا ، فاستوليا على بعلبك وحمص وحلب وقنسرين . وانفذ ابو عبيدة القائد عياض بن غنم على رأس قوة فرعية فسار شرقا واحتل ارض الجزيرة من العراق دون كبير مقاومة . واصبح الجبل المسمى امانوس ، او جبل اللكام الحد الفاصل لمدة قرون بين الشام وبلاد الدولة البيزنطية .

#### اتمام فتح فلسطين :

وفي اثناء ذلك ، اى فى مدى سنتى ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، احتل شرحبيل ويزيد مدن فلسطين الداخلية ومعظم مدن الساحل احتلالا نهائيا ، غير ان عمرو بن العاص لم يوفق الى فتح بيت المقدس عشوة وكذلك امتنعت قيصرية على العرب زمنا طويلا ، ولعل ذلك راجع الى حصانتها والى غلبة العناصر الموالية للبيزنطيين من سكانها . ومهما يكن من شىء فقد سلم بيت المقدس للمسلمين سنة ٦٣٨ ( ١٧ هـ ) وسقطت قيصرية فى

يد معاوية بن أبي سفيان في أكتوبر سنة ٦٤٠ م ( ١٩ هـ ) .  
قدوم عمر بن الخطاب الشام :

ولما استقر العرب في الشام خرج الخليفة عمر الى هـلا  
الاقليم الجديد ليتفقد احواله ويرتب اموره فالتقى بأبي عبيدة  
وامراء الاجناد بالجابية ( شمالي اليرموك ) فزودهم بتعليماته  
واوامره المتعلقة بمعاملة اهل البلاد وتحصيل الاموال ، ثم انه  
ختم رحلته هذه بزيارة بيت المقدس .

وفي عام ٦٣٩ اجتاح الشام طاعون جارف يعرف بطاعون  
عمواس ، ذهب ضحيته ابو عبيدة وكثير من العرب ، فولى عمر  
مكانه يزيد بن أبي سفيان ، فلم يلبث ان توفي هو ايضا فولى  
عمر بعده اخاه معاوية وظل معاوية اميرا على الشام الى ان  
اصبح خليفة على الدولة الاسلامية بأسرها .

### فتح مملكة فارس

استئناف الحرب في العراق :

وقعت غارة خالد بن الوليد على الحيرة في وقت غدت  
فيه فارس مضطربة الاحوال . فلما تولى الملك يزيد جرد الحكم  
واستردت السلطة المركزية بعض كيانها بفضل جهود القائد  
رستم ، رأت الحكومة الفارسية العمل على اخراج العرب من  
العراق . وشعر المنى بن حارثة بحرج موقفه بعد انصراف  
خالد الى الشام فأرسل الى المدينة يطلب المدد . وصادف ذلك  
بداية عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، فأرسل اليه عمر مددا

تولى قيادته رستم صاحب الامر والنهى اذ ذاك في الدولة  
الفارسية ، وعبر رستم الفرات والتقى بالعرب يقودهم سعد  
في سهل القادسية ، وجرت بين الفريقين وقعة عظيمة دامت  
فيما يروى ثلاثة ايام بلياليها ثم انجلت عن اندحار الفرس  
وفناء معظم جيشهم وقتل رستم نفسه ( ٦٢٧ م - ١٦ هـ ) .

### سقوط المدائن :

كانت معركة القادسية فاصلة في امر العراق لمصلحة العرب  
كما كانت وقعة اليرموك في الشام . وانفتحت امامهم سهول  
العراق بمدنه وقراه الاهلة بالعناصر السامية ، ولم يجد العرب  
مقاومة تذكر من هذه العناصر فتقدموا نحو « المدائن » عاصمة  
الاكاسرة التي رحل عنها يزدجرد في حاشيته واعتصم بجبال  
ايران . ودخل العرب عاصمة الفرس ، وغنموا غنائم طائلة  
وشملتهم نشوة الظفر الى ان نبههم منها تجمع الفرس عند  
جلولاء في اطراف جبال ايران ، فهب العرب لدفع الخطر  
وانتصروا على الفرس مرة اخرى ( ديسمبر سنة ٦٢٧ م آخر  
سنة ١٦ هـ ) وبذلك اصبح العراق كله في قبضة ايديهم واصبحت  
جبال زجروس فاصلة بين املاك الفرس التي يسكنها العنصر  
الايراني الآري ، وبين العراق الذي يغلب عليه العنصر السامي .

### الاستيلاء على رأس الخليج الفارسي وقيام البصرة والكوفة :

وبينما يفتح سعد وجنوده اواسط العراق وشماله جاء عتبة

لم يكن كافيا لصد هجوم الفرس ، وترتب على ذلك ان هزم  
المثنى في وقعة الجسر ( ٢٦ نوفمبر سنة ٦٣٤ ) سنة ١٣ هـ .  
ثم تحسن موقف العرب في الشام في العام التالي ( ٦٣٥ )  
فأخذ الخليفة عمر يعنى بأمر العراق ، لكنه وجد مشقة في  
حمل الجند على التوجه الى العراق لانهم كانوا يؤثرون الشام .  
واخيرا بعث عمر الى العراق مددا كافيا ، استطاع  
به المثنى ان يلقى جيش الفرس وان ينزل به الهزيمة في وقعة  
كبيرة ، تعرف بوقعة البويب ( نوفمبر سنة ٦٣٥ ) . على انه برغم  
هذا النصر لم يستطع المثنى في هجومه لقلعة من معه من  
الجند بالقياس الى الجيش الفارسي .

فلما تم الأمر للعرب في الشام بوقعة اليرموك الفاصلة ،  
تفرغ عمر لحرب فارس حتى هم بأن يسير الى العراق ليدبر  
الحرب بنفسه . لكنه عدل عن ذلك نزولا على رأى اهل  
الشورى ، وندب للأمر صحابيا قديما وقائدا محنكا هو سعد  
ابن ابي وقاص .

#### وقعة القادسية :

وافلح سعد في جمع جيش كبير سار به الى العراق ورابط  
في سهل القادسية على حدود الصحراء وقريبا من الحيرة ،  
واتبع في ذلك نصيحة تركها له المثنى الذي توفي من جراح  
اصابته في الحرب . وفي اثناء ذلك جمع الفرس جيشا ضخما

ابن غزوان من البحرين بأمر عمر وغزا رأس الخليج الفارسي واحتل نجر الابلة ، وجعل يغزو اقليم خوزستان حتى تم له فتحه .

ولما تم فتح العراق رأى قادة العرب ان لابد من اتخاذ محلتين تكونان معسكرين دائمين خالصين للعرب . واقرا الخليفة عمر رايبهم ، فاست لذلك البصرة على شط العرب جنوبا كما است الكوفة قريبا من الحيرة غربى الفرات . وهاجرت القبائل العربية من أنحاء الجزيرة الى كلتا المدينتين ، فغلبت العناصر العربية الشمالية على البصرة ، كما غلبت العناصر العربية الجنوبية على الكوفة ، وسرعان ما نمت المدينتان نموا عظيما . واضحى لهما اعظم الاثر في مجرى الاحوال العامة للدولة الاسلامية وفي نشأة الاحزاب السياسية والفرق الدينية ، كما نبتت فيهما وازدهرت الحركة الادبية الاسلامية القديمة ، ومن ثم المذهب المشهوران ، مذهب البصريين ومذهب الكوفيين في علوم اللغة والنحو ورواية الشعر القديم وعلم الكلام .

#### انمام فتح فارس ، وقعة نهاوند :

اعتقد قادة العرب في العراق انهم لا يأمنون على فتوحهم العراقية مادامت هناك حكومة للفرس تعمل على حربهم واسترداد العراق من ايديهم ، فارسلوا الى الخليفة يستأذنونهم في الانسياح في ارض فارس ، واذن لهم الخليفة على كره منه . ولذا خرج النعمان بن مقرن من العراق في جيش كبير فالتقى بالفرس في وقعة عظيمة عند نهاوند ، وانتصر انتصارا تاما ( ٦٤٢ م / ٢١ هـ ) .

وفي السنوات التي أعقبت نهاوند استولى العرب كذلك على مدينة الري وسقطت في أيديهم أقاليم فارس وكرمان ومكران وخراسان واذربيجان . وبات كسرى يزود شريدا ينتقل فارا من مدينة الى أخرى حتى اغتاله بعض أتباعه بالقرب من مدينة مرو ( ٦٥٢ م / ٣١ هـ ) وذلك في خلافة عثمان بن عفان .

والخلاصة أن فتوح العرب لآيران استغرقت عشر سنوات ، وهي مدة طويلة بالقياس الى المدة التي استغرقتها فتح الشام والعراق . ويرجع هذا الى أن العرب في إيران قاتلوا شعبا آريا مستمسكا بقوميته وعاداته ، بخلاف الحال في العراق والشام حيث العناصر السامية المجانسة للعرب أنفسهم . واحتفظ الفرس بطابعهم القومي ولغتهم حتى بعد اعتناقهم الاسلام . ومع حذف علمائهم اللغة العربية فان العربية لم تصبح لغة إيران القومية كما أصبحت في العراق والشام ومصر .

## فتح مصر

### بواعث الفتح :

وضح للعرب بعد اتمام فتح الشام أن الخطر على الشام من ناحية مصر شديد ، فمصر تطل على البحرين الكبيرين - الأبيض المتوسط والاحمر - بميناءيه : الاسكندرية والقلازم ، وهي لذلك قاعدة بحرية عظيمة للاسطول البيزنطي ، وفي وسع هذا الاسطول أن يهاجم المدن الساحلية الشامية ، بل أن ينقل الجنود البيزنطية الى المدينة

نفسها بشبه جزيرة العرب ، ومن ناحية أخرى فان مصر بلد  
خصب غنى بالحبوب والخيرات الزراعية المتنوعة ، وهو اقرب  
الى الحجاز من كل من العراق والجزيرة . فيمكن الاعتماد عليه  
في امداد الحجاز بالغلل . ولذلك كله اقتضت سياسة الدولة  
العربية فتح مصر . هذا هو الصحيح ، اما ما يقال من ان  
مشروع فتح مصر بدأ على كره من الخليفة عمر بن الخطاب  
فهو قول ضعيف وينبغى الا يؤبه له ، ففتح مصر جاء بعد فتح  
الشام والعراق ، فهو يقع في المرحلة التي استقرت فيها نية  
العرب امة وحكومة على فتح البلاد واخضاعها لسلطان العرب  
والاسلام .

#### احوال مصر عند الفتح :

كانت مصر في السنوات العشر السابقة على الفتح العربي  
الاسلامي في حال من الاضطراب الداخلي ، فان الامبراطور هرقل  
- رغبة منه في ازالة الخلافات المذهبية - اراد ان ينفذ قرارات مجمع  
خلقدونة التي تقضى بانه سواء اكان السيد المسيح ذا طبيعة  
واحدة ام طبيعتين فانه ذو ارادة واحدة . وعلى ذلك ولى هرقل  
على مصر - بعد ارتجاعها من حكم الفرس - رجلا اسمه سيروس  
وهو اسقف سابق لمدينة فازيس في القوقاز ، وخوله السلطين  
الدينية والمدنية فكان بطريركا وحاكما مدنيا .

وقضى سيروس هذه السنوات العشر السابقة على الفتح  
العربي وهو يحاول ان يحول الكنيسة القبطية الى العقيدة

الجديدة ، فمنع طقوس العبادة القبطية ، واضطهد رجالها ايما اضطهاد . وكانه لم يكفه ذلك ، فزاد الضرائب على المصريين زيادة فاحشة ، امعانا في مساعدة الامبراطور على سداد الديون الضخمة التي جرتها حرب فارس على الخزانة البيزنطية ، وقسا كل القسوة في جمع هذه الضرائب ، مما جعل الرواية القبطية المتأخرة تصور هذا البطريك في صورة المسيح الدجال . ولاشك ان العرب عرفوا كل ذلك عندما فكروا في فتح مصر .

#### المقوقس وعمرو بن العاص :

وسيروس هذا هو الذي تسميه المصادر العربية باسم المقوقس ، وهو الذي عقد معهم المعاهدات التي تم لهم بها أمر مصر . واما فاتح مصر فهو عمرو بن العاص السهمي القرشي وهو صحابي جليل له مواقف مشهودة في أواخر غزوات الرسول وفتح الشام ، وهو معدود من دهاة العرب لشدة ذكائه وسعة حيلته ، كما انه قائد محنك وادارى بارع بدليل تدبيره شئون مصر عقب فتحها .

#### الشروع في الفتح : وقعة عين شمس :

خرج عمرو من قيسارية على رأس ٤٠٠٠ مقاتل ، وذلك في ديسمبر سنة ٦٣٩ م واجتاز الاطراف المصرية دون مقاومة لخواها من حاميات تحميها ، ثم سلك طريق الساحل ، وهو الطريق الذي سلكه غزاة مصر من اقدم الازمنة التاريخية ، فبلغ الفرما شرقى بورسعيد الحالية ، واستولى عليها عنوة . غير انه



تحاشى ان يتقدم فى شرقى الدلتا حتى يصله من المدينة مدد يكثر به جيشه ، وجاءه المدد وعدته نحو خمسة آلاف مقاتل بقيادة الزبير بن العوام . وعند ذلك تقدم عمرو عامدا الى رأس الدلتا واشتبك بالقائد البيزنطى تيودور فى وقعة عين شمس ( سنة ٦٤٠ م - سنة ٢٠ هـ ) فانتصر عليه انتصارا حاسما شرع بعده فى محاصرة حصن بابليون .

### حصن بابليون :

كان لهذا الحصن أهمية خاصة تحتم على العرب اخذه ، فهو ذو موقع استراتيجى هام بين مصر السفلى ومصر العليا ، كما انه على رأس الطريق المؤدى الى الاسكندرية ، وفوق ذلك لجأت اليه فلول المنهزمين فى وقعة عين شمس . ولم يكن مع العرب الادوات التى تؤخذ بها الحصون ، ولذلك طالت مدة الحصار .

والظاهر ان المقوقس ( سيروس ) كان اذ ذاك داخل الحصن فأخذ يفاوض عمرا وكتب مشروع معاهدة تنهى الحرب ، ثم رحل الى القسطنطينية لعرض المشروع على الامبراطور هرقل ، لكن الامبراطور استشاط غضبا لنصوص هذه المعاهدة التى ترمى الى تسليم مصر للعرب ، على الرغم من وجود قوة حربية كبيرة فيها وفى الاسكندرية خاصة ، واتهم سيروس بالخيانة وحكم عليه بالنفى .

ثم توفى هرقل ، فوقع نبا وفاته على المحصورين فى حصن

بابلليون وقوع الصاعقة ، لان الحصار اضر بهم . على ان هذا الخبر شجع العرب ، فحملوا على الحصن حملة صادقة حتى سقط في ايديهم في ابريل سنة ٦٤١ . وبذلك اصبحوا وقد تمكنوا من شرقي الدلتا ومن مصر العليا .

### الزحف على الاسكندرية :

وعلى اثر ذلك عبر عمرو النيل ، وسار وفرع رشيد قاصدا الاسكندرية . واستولى في طريقه على نقيوس ( في ربيع سنة ٦٤١ ) . وشرع عمرو في حصار الاسكندرية ، غير انه لم يلبث ان ادرك حصانتها ، وان تسليمها لم يحن بعد ، فترك عندها قوة تحاصرها ، وانصرف هو في بقية الجيش للاستيلاء على مواقع اخرى داخل البلاد .

### معاهدة الاسكندرية خريف سنة ٦٤١ م - ٢١ هـ :

وساد الاضطراب حكومة القسطنطينية على اثر وفاة هرقل ، وتغلب الراى القائل بانهاء الحرب مع العرب في مصر ، واستدعى سيروس من المنفى ، وارسل الى مصر لانهاء الحرب باحسن ما يمكن من الشروط . وفي خريف سنة ٦٤١ م - ٢١ هـ ، وعلى غير علم من اهل الاسكندرية ابرم سيروس المعاهدة النهائية مع عمرو وكان من شروطها :

١. - ان يجلو الجيش البيزنطى عن الاسكندرية في ميعاد

غاياته سنة واحدة من تاريخ عقد المعاهدة .

٢ - ان يضمن عمرو لاهل المدينة حريتهم الشخصية وسلامة ممتلكاتهم والحرية التامة في مباشرة شعائرهم الدينية ، مع عدم الاخلال باداء الجزية المقررة عليهم .

ولما حل المبعاد المقرر جلا الجيش البيزنطى عن الاسكندرية في سبتمبر سنة ٦٤٢ ، وتوفى سيروس قبل ذلك ببضعة اشهر من السنة نفسها .

#### تخطيط الفسطاط ٦٤١ - ٦٤٢ م :

لم يحب عمرو بن العاص ان تظل الاسكندرية عاصمة لمصر في العهد الجديد ، فان الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يرى ان يختلط العرب باهل البلاد المفتوحة . وكما حدث في العراق من تخطيط البصرة والكوفة معسكرين للعرب ، اختط عمرو بن العاص في مصر - بموافقة الخليفة - مدينة قريبة من حصن بابلليون ، وهى الفسطاط . وغدا لكل قبيلة من القبائل العربية الوافدة على مصر منذالفتح خطة خاصة بها فى العاصمة الجديدة . ونمت الفسطاط وازدهرت فى القرون الاسلامية الثلاثة الاولى ، واضحى لجامعها الكبير المعروف بجامع عمرو اثر قوى فى قيام الحركة الادبية والعلمية وازدهارها بمصر .

#### اعمال عمرو فى ولايته على مصر :

تولى عمرو بن العاص جميع شئون مصر بعد تمام فتحها فنظم امورها الادارية والزراعية والمالية . ولما تم تسليم الاسكندرية

راى عمرو أن يحمى مصر من ناحية الغرب ، فقاد بنفسه حملة الى برقة واستولى عليها دون مقاومة تذكر في شتاء سنة ٦٤٢ - ٦٤٣ . غير أن الخليفة عمر بن الخطاب قبيل وفاته راى ان يحد من سلطنة عماله الاقوياء امثال خالد وسعد وعمرو ، فجعل ولاية عمرو قاصرة على مصر السفلى ، ونصب على مصر العليا واليا الخراج بحيث زادت حصيلته في عهده عما كانت عليه زمن عمرو . عثمان بن عفان عزل عمرو عن مصر السفلى وجمع مصر كلها لعبد الله بن سعد ، وهو اخو عثمان من الرضاعة .

واشتهر الوالى الجديد بالكفاية في الامور المالية ، فنظم امر الخراج بحيث زادت حصيلته في عهده عما كانت عليه زمن عمرو لكنه عند ما اغار البيزنطيون على الاسكندرية سنة ٦٤٥ م / ٢٥ هـ واحتلوها وتوغلوا في داخل الدلتا ، عجز عن صدهم . فندب الخليفة عمرا بن العاص لاجراهم من البلاد فحاربهم واجلاهم عن الاسكندرية عنوة سنة ٦٤٦ م - ٢٦ هـ . ثم عرض عليه عثمان أن يلى امر الحرب فحسب ، ويترك شئون الادارة لعبد الله بن سعد ، فلم يقبل عمرو ذلك ، فعادت اماره مصر كلها الى عبد الله بن سعد .

#### الصلح مع النوبة ، ومد الحدود الغربية :

على ان عبد الله بن سعد قام فوق تنظيم الخراج بثلاثة امور هامة تتصل بمد حدود مصر وتأمينها ، فمن ناحية الجنوب عقد معاهدة مع النوبة نظمت الاحوال عند الحدود الجنوبية ، ومن

تأحية الغرب بسط نفوذ مصر على ما وراء برقة حتى طرابلس ،  
ثم انه نجح في ايجاد قوة بحرية مصرية .

### قيام البحرية الاسلامية :

الفتوح العربية الكبرى في الشام والعراق ومصر كلها فتوح  
برية ، ولم يكن للعرب اذ ذاك اسطول . فلما استقر معاوية في  
الشام واستقر العرب في مصر ظهر ان خلو الدولة الاسلامية من  
قوة بحرية يعرضها لهجوم الاسطول البيزنطي على المدن الساحلية  
في الشام ومصر ، كما حدث للاسكندرية فعلا في سنة ٦٤٥ حين  
هاجمها اسطول الروم . لذلك عول معاوية على انشاء اسطول  
في الشام وحذا حذوه عبد الله بن سعد فانشأ اسطولا  
بالاسكندرية .

وكان الغرض من انشاء القوة البحرية الاسلامية اول الامر  
دفعيا ، لكنه لم يلبث ان اصبح هجوميا . فان معاوية كان  
يحلم بفتح القسطنطينية وان يكون هو فاتحها ، وتمهيدا لذلك  
غزا جزيرة قبرص ، واستولى على جزء منها سنة ٦٤٩/٢٨ هـ .  
وفي العام التالي غزا معاوية جزيرة ارواد القريبة من ساحل  
الشام ، واستولى عليها .

### وقعة ذات الصواري البحرية :

ثم اعد معاوية حملة بحرية على القسطنطينية ، واشترك معه  
فيها الاسطول المصري بقيادة عبد الله بن سعد . والتقى الاسطول

العربي المشترك بأسطول البيزنطيين بقيادة الامبراطور قسطنطين الثاني على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . وكانت بينهما وقعة يسميها مؤرخو العرب « ذات الصواري » سنة ٦٥٥ / ٣٥ هـ ، وهي وقعة انهزم فيها البيزنطيون وفر الامبراطور الى صقلية . وكان في وسع معاوية أن ينقض بعدها على القسطنطينية ويفتحها لولا أن وقعت الفتنة بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، فاضطر معاوية الى مهادنة البيزنطيين ليتفرغ للاحداث الداخلية الجديدة .

#### فتح قيليقية وارمنية البيزنطية :

وحارب معاوية جيوش البيزنطيين في البر في قيليقية وارمنية . وسبق لارمنية البيزنطية ان غزاها حبيب بن مسلمة في سنة ٦٤٢ من ناحية العراق ، واحتل عاصمتها دوين ، وتقدم منها ، ووصل الى ماوراء القوقاز ، لكن جموع الخزر صدته عن التقدم .

#### الشوائب والصوائف :

ظل العرب محتفظين بما حصلوا عليه في ارمنية حتى وقعت الفتنة في الدولة الاسلامية بمقتل عثمان ، فانصرف المسلمون عن ارمنية وغيرها من الفتوح ، فلما اجتمعت الدولة على خليفة واحد بقيام الدولة الاموية اصبح غزو ارض العدو صيفا وشتاء نظاما مقررا طوال العهد الاموي ، لا يقف الا مدة هدنة او صلح معقود . واتخذت هذه الغزوات المعروفة بالشوائب والصوائف اتجاها شماليا في ارمنية وبلاد البيزنطيين بآسيا الصغرى

( الروم ) ، واتجاها غربيا في شمال افريقية والاندلس ، وذلك بعد فتح هذين القطرين كما سيجيء .

### اسباب توقف التوسع العربي الكبير :

تبعتها التوسع العربي الكبير من ابتدائه الى سنة ٦٥٥م/٣٥٥هـ فوجدنا قد شمل الشرق الادنى كله بما في ذلك مصر وبعض جزائر شرق البحر المتوسط ، وامتد في آسيا حتى وقف عند نهر جيحون . ثم انصرف العرب عن المضي في فتوحهم مدة من الزمن وقع فيها من الفتن والاحداث الجسام ما حال دون استمرار التوسع . وهذه الاحداث على وجه الاجمال هي :

### مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان :

كان الناقمون على سياسة عثمان يكتبون الى الغزاة في مختلف الاقاليم يقولون لهم « اقدموا الينا فان الجهاد الحق عندنا » . ووجدت هذه الدعوة من الجنود وقادتهم آذانا مصغية ، فتراجعت الجنود وقادتهم الى الامصار الكبرى ، اى الى البصرة والكوفة والفسطاط ، واخذت تنتقد سياسة العمال والولاة ، ثم تطرفت الى نقد سياسة الخلفاء انفسهم ، والى ارسال الوفود المسلحة الى المدينة لتحمل الخليفة عثمان على اعتزال الحكم ، فلما امتنع التفاهم بين الخليفة وهذه الوفود اقتحموا عليه داره وقتلوه ، وبذلك انفتح باب فتنة لم ينغلق احقبا طويلا ، وتصدمت بسببه وحدة الامة الاسلامية .

### الحرب بين علي ومعاوية :

وتولى الخلافة بعد عثمان الامام علي بن ابي طالب فحاول جمع الشمل ، لكن الجرح الذي اصاب الدولة الاسلامية كان اعمق من ان يداوى بالسرعة التي تمنهاها علي ، وازداد الامر تفاقمًا بنشوب الحرب بينه وبين معاوية امير الشام الذي اعتبر نفسه ولي دم عثمان . ولم تركد ربيع هذه الحرب الا بعد ان قتل علي بيد بعض الخوارج الذين خرجوا عليه لقبول مبدا التحكيم بينه وبين معاوية ، وصارت الخلافة الى معاوية سنة ٤١ هـ ، وهي المعروفة باسم عام الجماعة الاول .

### معاوية يحاول استئناف حركة الفتح والتوسع :

حاول معاوية استئناف الفتوح الاسلامية ، فهاجم القسطنطينية وغزت جيوشه افريقية ، دون ان تحصل علي نتيجة ايجابية ذلك لان معاوية اضطر الى العمل على تلافئ ما خلفته الفتنة الكبرى من آثار سيئة في الدولة الاسلامية ، فلم يستطع ان يركز جهوده كلها نحو الفتوح التي بداها في آسيا وافريقية . مثال ذلك ان معاوية لم يحسن اختيار قائد الحملة المتوجهة نحو القسطنطينية ، وكان ذلك سببا من اسباب فشلها . وقتل في هذه الحملة ودفن عند اسوار القسطنطينية ابو ايوب الانصاري ، الذي نزل النبي عليه السلام في بيته عندما قدم المدينة مهاجرا . وكان من اسباب فشل هذه الحملة كذلك



ان النار الاغريقية فتكت بالاسطول العربي ، وكان سرها خافيا  
على العرب في ذلك الوقت .

### الحرب بين الامويين وآل الزبير :

ولما اخذ معاوية البيعة لولاية العهد لابنه يزيد ، اعتبر اهل  
الحجاز هذه البيعة خروجاً على السنة التي جرى عليها الخلفاء  
الاربعة من قبل . وادى ذلك الي ثورة الحجازيين بزعامة عبد الله  
ابن الزبير ، بعد ان بايعوه بالخلافة . وبذلك اندلع لهيب الفتنة  
الثانية ولا سيما بعد ان تورط يزيد في امر الحسين بن علي  
ومقتله . ووقعت حروب دامية بين الامويين وآل الزبير في  
الحجاز والشام والعراق ، وطال امد هذه الحروب حتى عام ٧٣هـ ،  
حين تم النصر النهائي للخليفة الاموي عبدالملك بن مروان على آل  
الزبير ، ولذلك يعرف العام المذكور بعام الجماعة الثاني .

وفي اثناء تلك الفتن قوى شأن الخوارج ، وتعددت فرقهم  
واشتد خطر المتطرفين منهم على الدولة الاموية ، فاضطر الخلفاء  
الامويون الي مكافحتهم في سهول العراق وبلاد العرب وجبال  
ايران ، حتى قضوا عليهم على يد الحجاج بن يوسف والملهب بن ابي  
صفرة ، واستغرق ذلك بضع سنين اخرى بعد انقضاء امر آل  
الزبير .

### استئناف حركة الاصلاح والتوسع :

ثم استقبلت الدولة الاسلامية عهداً خالياً من الحروب  
الداخلية ، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان باصلاحات سمية

هامة اذ نقل دواوين الدولة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وضربت العملة الاسلامية . والى جانب هذه الاصلاحات امكن الدولة في عهد الوليد بن عبد الملك ان تستأنف حركة الفتح والتوسع في الشرق والغرب حتى بلغت مساحة الدولة ضعف مساحتها قبل عهده ، وكان لها شأن عظيم في نمو الحضارة الاسلامية .

### فتح اقليم ما وراء النهر :

يمتد هذا الاقليم الشاسع من نهر جيحون حتى حدود الصين وهو المعروف الآن بتركستان او اواسط آسيا ، وتسكنه قبائل الترك التي خضعت للنفوذ الايراني وتأثرت بالحضارة الايرانية . وعهد الحجاج بن يوسف والى العراق بغزو هذا الاقليم وفتحه الى قائد من اكبر قادة العرب هو قتيبة بن مسلم الباهلي . فجعل مدينة مرو قاعدة له ، وصار يغزو منها كل سنة مدن ما وراء النهر واقليمه ، ففي سنة ٨٧ هـ تم له فتح بلخ وطخارستان وفرغانه وبيكند ، واستولى على بخارى سنة ٨٩ هـ ، وسمرقند سنة ٩٣ هـ ، وكشغر سنة ٩٥ هـ ، عند حدود الصين . ووقف الفتح عند هذا الحد . وانزل قتيبة قبائل العرب في هذه الاقاليم ، فساعد ذلك على انتشار الاسلام واللغة العربية فيها ، كما ساعد على قيام العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية وبين بلاد الصين مما كان له اثر ملحوظ في نمو الحضارة الاسلامية وفي دخول الدين الاسلامي الصين .

### فتح بلاد السند :

وببلاد السند هي الاقليم الشاسع الذي يرويه نهر السند وروافده الكثيرة ، وتسكنها قبائل هندية متعددة عليها زعماء او ملوك متنافسون متعادون .

وانتهز الحجاج بن يوسف فرصة اعتداء بعض قراصين السند على سفينة عربية فيها نساء عربيات ، واتخذ من ذلك حجة للغزو ، وعهد الى ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي بغزو هذا الاقليم . وكان محمد بن القاسم فتى دون العشرين لكنه حوى من صفات النبيل والفتوة ما جعل الحجاج يكل اليه هذا الامر العظيم . وامده الحجاج بقوة بحرية واخرى برية . ووصلت الحملة الى نجر الديبل ، وموضعه مدينة كراتشي الحالية ، فاستولى محمد بن القاسم على الثغر عنوة ، ثم سار مصعدا في النهر يستولى على المدن ويفتم ما في معايدها البوذية من نفائس . وما زال ابن القاسم يسير شمالا حتى بلغ مدينة الملتان سنة ٩٦ هـ وهي اقصى ما وصل اليه .

وهذه الحملة طريفة من حيث انها انشأت بين الدولة الاسلامية وبين الهند علاقات نمت على الزمن ، وكان لها ابعث الآثار في حضارة الهند والحضارة الاسلامية بوجه عام .

### محاولة العرب فتح القسطنطينية :

كانت المحاولة الثالثة والاخيرة ضد القسطنطينية ٩٦-٩٩ هـ

(٧١٦ - ٧١٨ م) . وذلك ان الوليد بن عبد الملك اعد قبيل موته حملة برية بحرية عظيمة لذلك الغرض لكنه توفي قبل انفاذ هذه الحملة . فلما تولى بعده اخوه سليمان بن عبد الملك ، سير الحملة وجعل عليها اخاه مسلمة بن عبدالمك . وكان امبراطور الدولة البيزنطية اذ ذاك اليون الايسورى ، وهو رجل ذو مكر ودهاء فاستطاع ان يخدع مسلمة بالمطاوله حينما وبالحيله حينما آخر حتى هجم الشتاء ، ونفذت اقوات الجيش الاسلامى ، ثم اغرى الامبراطور بمسلمة شعب البلغار ، واعمل فى الاسطول العربى النار الاغريقية ، فباد الاسطول كله تقريبا وهلك اكثر من ثلثى الجيش ، واضطر مسلمة الى الرجوع فى حال يرثى لها . واشتهر فى حوادث تلك الحرب رجل يدعى عبد الله البطل عرف بشجاعته ومغامراته ، فاصبح بطل قصة شعبية كبيرة تسمى قصة « ذات الهمة » ، كما اصبح رمز البطولة الاسلامية المجاهدة ضد البيزنطيين فى العهد التركى العثمانى . هذا ماكان من امر الفتوح الاسلامية الكبيرة فى الشرق ، ويليهما هنا ما فتح المسلمون فيما اصطلح المؤرخون على تسميته باسم فتوح المغرب .

#### ١ - شمال افريقية :

كان شمال افريقية من حدود مصر الغربية الى ساحل المحيط الاطلنطى جزءا من املاك الدولة البيزنطية ، وسكانه الاصليون هم القوم المعروفون بالبربر ، ينزلون السهول والجبال والصحارى الجنوبية بقبائلهم المتحضرة والمبتدية . وسكنت بالمدن الساحلية

جاليات يونانية ولاينية ، اما اليهود فسكنوا في حواضر المغرب  
وبواديه على السواء . ومنذ ايام الدولة الرومانية القديمة ، وايام  
حروب جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية في  
القرن السادس الميلادي ، اشتهر البربر بالشجاعة  
وحب الحرب ، كما اشتهر نصارى المدن الساحلة  
بكثرة الانقسامات الدينية . ثم ان البحرية البيزنطية  
فقدت ضعيفة بوجه عام ، بعد ان انحصر نفوذ بيزنطة في المدن  
الساحلية دون الجهات الداخلية التي تنزلها قبائل البربر ، وبعد  
ان استولى عمرو بن العاص على اقليم برقة ، واصبحت مدينة  
برقة نفسها قاعدة للعرب يعتمدون عليها في غزو ما وراءها من  
اقطار المغرب . وترددت غارات العرب وغزواتهم بعد ذلك على  
طرابلس وافريقية ( تونس ) والواحات الجنوبية ، وهي فزان  
وودان وغدامس ، في الثلاثين سنة التي اعقبت فتح عمرو لبرقة .  
وجرت هذه الغزوات على غير خطة مرسومة ، وتمخضت عن  
اتخاذ مدينة القيروان - التي انشأها عقبة ابن نافع في افريقية  
في ولايته الاولى ( ٥٠ - ٥٥ هـ ) - قاعدة ثابتة بعد برقة . واطلق  
العرب حوالى ذلك الوقت اسم المغرب على شمال افريقية كله ،  
وقسموه جغرافيا الى ثلاثة اقسام ، وهي المغرب الادنى ،  
والمغرب الاوسط ، والمغرب الاقصى .

#### مرحلة الفتح المنظم :

ثم ولى معاوية على المغرب ابا المهاجر دينار سنة ٥٥ هـ وبتوليته

دخلت الحرب في المغرب دورا جديدا ، اذ كان ابوالمهاجر ذا حنكة سياسية ونظرة في الامور صائبة ، فادرك ان البيزنطيين لا البربر هم العدو ، واجتهد ان يفهم البربر ان من مصلحتهم ان يكونوا مع العرب دون البيزنطيين . وقبل البربر هذه الدعوة لما بينهم وبين العرب من وجوه شبه قوية . فاسلم كسيلة زعيم البربر المتحضرين المعروفين بالبرانس ، واسلم معه قومه . واستطاع ابو المهاجر ان يزحف ومعه كسيلة الى تلمسان في المغرب الاوسط ويفتحها سنة ٦٢ هـ .

غير ان السياسة الحكيمة التي اتبعها ابو المهاجر لم يسر عليها خلفه عقبة بن نافع الفهري الذي تولى المغرب ( ٦٢ - ٦٣ هـ ) من قبل يزيد بن معاوية . وكان عقبة رجلا فيه غيرة شديدة على الدين وفيه عنف وشدة ، وبينه وبين ابي المهاجر عداوة قديمة ، فبدا عمله بان اعتقل ابا المهاجر ومعه كسيلة ، وصار ياخذهما معه في غزواته مكبلين في الحديد ، وواقع كذلك بكثير من قبائل البربر ، بحجة انها ارتدت عن الاسلام . واسعف الحظ عقبة بن نافع اول الامر فدفع بجيشه حتى بلغ ساحل المحيط فيما يروى ، لكنه لم يحسب حسابا لخط رجعتهم ، فتمكن كسيلة من الفرار ومن اثاره البربر ، وهاجم عقبة وهو في طريق عودته ، ونشب بين الرجلين قتال عنيف عند تهودا قرب بسكرة ، فقتل عقبة ومزقت القوة التي كانت معه ، وفيها عدد غير قليل من الصحابة . واقيم فيما بعد على قبور اولئك القتلى مسجد عرف

بمسجد سيدى عقبة ، واصبح هذا المسجد مزارا من جميع  
اقطار المغرب حتى العصر الحاضر . وخلا الجو لكسيلة فدخل  
القيروان سنة ٦٤ هـ ، وظل زعيم البربر خمس سنوات ، وذلك  
لانشغال الدولة الاموية في تلك السنوات بالفتن التى اندلع  
لهيبتها في الشرق ، ولم يستطع زهير بن قيس البلوى الذى تولى  
شئون العرب بعد عقبة ان يوقف كسيلة لقلعة ما تبقى بشمال  
افريقية من الجيوش العربية .

#### زهير بن قيس البلوى :

فلما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان اهمه امرالمغرب ، ولم  
ينتظر حتى يتم له النصر على آل الزبير ، بل ارسل مددا الى  
زهير بن قيس ، وبهذا المدد استطاع زهير ان يسترد القيروان ،  
ويوقع بالزعيم كسيلة وبمن معه من البيزنطيين قرب القيروان سنة  
٦٩ هـ . غير انه اثناء عودة زهير اعترضته في برقة قوة  
للبيزنطيين جاءت في البحر نجدة لكسيلة ، واوقعت به وبجيشه

وظل امر المغرب الادنى او افريقية معلقا حتى فرغ الخليفة  
عبد الملك من امر آل الزبير ، فولى سنة ٧٨ هـ على المغرب حسان  
ابن النعمان الفسانى ، وامده بجيش كبير من عرب الشام بمعاونة  
الاسطول المصرى في البحر .

ويعتبر حسان الفاتح الحقيقى للمغرب ، اذ اتبع سياسة  
ابى المهاجر من حيث اصطناع البربر والاستعانة بهم على

البيزنطيين ، وتمكن بذلك من الزحف الى قرطاجنة والاستيلاء عليها وتخريبها سنة ٧٩ . وبذلك انتهى امر البيزنطيين في افريقية ، واخذت العناصر اليونانية واللاتينية تهاجر من هذا القطر الى صقلية واسبانيا .

### الكاهنة داهيا :

غير انه سرعان ما دهمت حسان امرأة يسميها العرب داهيا ويلقبونها بالكاهنة ، وهي زعيمة البربر البدو الذين يقال لهم « البتر » . وكانت داهيا تتكهن وتتنبأ بالحوادث ، فالتف حولها كثير من البربر من قومها وغيرهم ، وجرت بينها وبين حسان وقعة هزم فيها حسان ، واضطر الى التراجع الى برقة ، حيث ظل يرقب الكاهنة وحركاتها وسرعان ما ساحت له الفرصة ، ذلك ان الكاهنة وقومها بعد انتصارها على حسان اندفعوا يغيرون على المدن العامرة ويخربونها ظنا منهم ان ذلك مما يحمل العرب على ترك المغرب . وشكا اهل المدن من البربر ومن معهم من بقايا البيزنطيين تلك الحال الى حسان ، وحثوه على حرب الكاهنة ، فنهض لقتالها ونشبت بين الفريقين وقعة كبيرة بمكان يقال له « بئر الكاهنة » قرب قابس ، حيث قتلت الكاهنة وهزم جيشها وذلك سنة ٨٤ هـ . وبذلك كسرت شوكة البربر في المغربين الادنى والوسط .

وانصرف حسان بعد ذلك الى اصلاح شئون البلاد ، فاستمال زعماء البربر الى الاسلام ، فاسلموا هم واقوامهم وحسن



اسلامهم ، واشركهم حسان مع العرب في الجيش ، وانشأ في تونس دار صناعة كبيرة لعمل السفن ، كما دون الدواوين ووضع الخراج على نسق مايجرى في الاقاليم الاسلامية الشرقية .

وتولى امر المغرب موسى بن نصير ، بعد حسان ، فجرى على نهجه واتبع سياسته ، فغزا بالبربر الذين اسلموا قبائل المغرب الاقصى ونشر فيهم الاسلام .

والخلاصة ان العرب لا قوا في فتح المغرب اشد مقاومة لقوها في فتوحهم وذلك لشجاعة البربر ، وتأييد البيزنطيين لهم ، وصعوبة الاقليم من الناحية الطبيعية . فلما اتبع العرب سياسة التفاهم مع البربر واجتذابهم الى الاسلام ، دان لهم امر المغرب ، واصبح البربر قوة هائلة لم يلبثوا ان استفادوا منها في فتح قطر آخر عظيم هو اسبانيا .

### فتح اسبانيا (١)

ولم يمتنع على موسى بن نصير في فتوحه في شمال افريقية غير مدينة « سبتة » الواقعة على الساحل الجنوبي من خليج الزقاق قبالة الصخرة التي تعرف اليوم بجبل طارق . وكانت

---

( ١ ) العرب تقول الاندلس ، وهو لفظ مأخوذ من اسم القبيلة الجرمانية التي غزت اسبانيا في القرن الخامس الميلادي . ومن التي تعرف باسم الواندال ، وخلفت اسمها في الاقليم الجنوبي الخصب الذي لا يزال يعرف الى اليوم بأندلوسيا

سبته هذه تابعة لدولة القوط الاسبانية ، وهذا سر امتناعها على موسى . اذ كان عليها رجل يقال له بليان يمت بصلة المصاهرة الى البيت المالك القوطى الجرمانى فى اسبانيا ، ويحافظ على مدينته اشد المحافظة ، فولى موسى مولاه طارق بن زياد على طنجة وعهد اليه بمراقبة الحال فى سبته .

ولم يمض زمن طويل حتى تغيرت الحال اذ اقبل بليان الى طارق يطلب اليه غزو اسبانيا ، بعد ان كان من اشد المدافعين عن مدينته . اما سر هذا التحول فهو ان مملكة القوطيين عانت اوائل القرن الثامن الميلادى اضطرابا عاما بسبب التنافس من اجل العرش حتى استوى عليه آخر الامر رجل ليس من البيت المالك بل من قادة الجند يقال له رذريق . وكان يهود اسبانيا على عهد القوطيين يعانون من الاضطهاد اشكالا والوانا ، مما جعلهم يتربصون بدولة القوط الدوائر ويتمنون زوالها . ثم ان النظام الاجتماعى فى الدولة القوطية كان فاسدا ، اذ اتقسم الناس فريقين اقلية من النبلاء ورجال الدين لها الحرية والسيادة والثروة ، واكثرية من الاقنان رقيق الارض والعبيد محرومة من كل الحقوق تقريبا . كل هذه الامور مما يمهدها عادة لحدوث الانقلابات العامة او لغزو ياتى من الخارج . غير ان السبب المباشر فى فتح العرب الاندلس هو على الأرجح استنجاد الحزب الموالى للاسرة المالكة الشرعية بالعرب ، رغبة فى رد العرش الى اهله .

### وقعة وادى لكة :

وقد انهى طارق الى موسى بن نصير ما عرضه عليه يليان ، فكتب موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه في فتح الاندلس ، فأجابه الى ماطلب على ان يلزم جانب الحبيطة .

وعلى ذلك سير موسى مولاه طارقا على رأس جيش يبلغ ٨٠٠٠ مقاتل اكثرهم من البربر واقلمهم من العرب ، بعد ان حصل على اذن الخليفة الوليد ، وبعد ان اختبر حال الساحل الجنوبي الاسباني بسرية استكشافية .

ونزل طارق بالصخرة التي عرفت فيما بعد بجبل طارق . ثم تحول منها الى الجزيرة الخضراء . وكان رذريق في غزاة له في الشمال ، فعاد مسرعا نحو الجنوب ووقعت الوقعة الفاصلة بينه وبين طارق على وادى لكة الذي يعرف اليوم بوادى صلاذ ، وهو بين البحيرة ومدينة شدونة سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م . فانتصر طارق انتصارا تاما وقتل رذريق في المعركة وقيل بل نجا وقتل في وقعة اخرى .

وتسامع اهل شمال افريقية بهذا النصر ، فأسرع كثير منهم الى طارق لينالوا شرف الفتح وما يعقبه من المغانم . فنظم طارق جيشه من جديد ، ثم زحف ومعه يليان الى مدن شدونة وقرمونة وآسجة فاستولى عليها . وكلما اخذ طارق مدينة ترك بها حامية من جيشه ومعها نفر من اليهود الذين رحبوا بالفاتحين

العرب ، وراوا فيهم منقذين لهم من الاضطهاد الذي كانوا فيه .  
ولم يشأ طارق ان يترك للعدو فرصة للراحة والاستعداد ،  
فوجه من أسجة فصائل الى قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية  
ففتحت كلها ، ثم زحف هو في عظيم الجيش الى طليطلة عاصمة  
القوط فدخلها عنوة . وبذلك لم يكد ينقضى صيف سنة ٧١١ م  
حتى كان طارق قد فتح ما يقرب من نصف اسبانيا .

#### انتقال موسى الى اسبانيا وتوليه امر الفتح :

وفي أثناء ذلك جهز موسى جيشا عدته ١٨.٠٠٠ مقاتل من  
العرب والبربر ، وسار به الى اسبانيا . ولاشك انه فعل ذلك  
لانه رأى ان طارقا قد أوغل في أرض العدو وخاف ان يقطع  
عليه خط الرجعة ، فنهض لتلافي كارثة ربما تحل به وعبر موسى  
خليج الزقاق سنة ٩٣ هـ . وسار يريد طليطلة من غير الطريق  
التي سلكها طارق ، فبلغ اشبيلية واستولى عليها ، وكذلك ماردة  
بعد حصار وقتال عنيف ، ثم بلغ طليطلة . وبعد ذلك سار  
موسى وطارق معا حتى تم لهما فتح اقليم ارغونة - وقاعدته  
سرقسطة ، ثم اقليم قطالونية وبلنسية . ثم ارتد القائدان على  
آثارهما قاصدين الجهات الشمالية الغربية الوعرة التي آوت  
اليها فلول القوط . وهنا شاءت الاقدار ان تصرف العرب عن  
اتمام فتح تلك الجهات التي ناهضت العرب اجيالا طوالا فيما  
بعد ، حتى تمكنت في النهاية من اخراجهم من الاندلس كلها .

### عودة موسى وطارق الى المشرق :

ذلك ان الخليفة الوليد بن عبد الملك راعته فتوح طارق وموسى ، واقلقه مابلغه عن رغبة موسى في عبور جبال البرانس وبلوغ الشام من طريق جنوب أوروبا بعد فتح القسطنطينية التي عجز العرب عن فتحها من المشرق . فكتب الخليفة الوليد الى القائدين بوقف القتال والقدم عليه ، فصدعا بالامر . وعاد موسى من الاندلس بعد ان استعمل عليها ابنه عبد العزيز الذي فتح السواحل الشرقية ، كما استعمل على شمال افريقية ابناءه الآخرين . ثم سار موسى ومعه من السبي والغنائم القوطية ما لم يسمع بمثله في تاريخ الفتوح الاسلامية ، فلما بلغ فلسطين طلب اليه سليمان بن عبد الملك - وكان ولي عهد الخلافة - الا يعجل بالقدم على دمشق ، بسبب اشتداد المرض على الخليفة الوليد وقتذاك . لكن موسى عجل السير برغم اوامر ولي العهد ، وقدم دمشق والخليفة الوليد حي ، فأحسن لقاءه واستولى على مامعه من الاموال . ثم لم يمض غير أيام حتى توفي الوليد وتولى سليمان ، فأقبل الخليفة الجديد على موسى يستقصى حسابه ، والزمه اموالا جساما عجز عن ادائها واضطر الى سؤال قومه من العرب ، وما زال يعاني الدلة والفاقة حتى توفي بوادي القرى من ارض الحجاز سنة ٩٨ هـ . اما طارق فانه على ما يظهر دخل في غمار الناس ونسى امره .

مما تقدم يتضح ان الحزب الموالي للأسرة القوطية المالكة في

اسبانيا لم يدرك ما آمله من المسلمين ، ماعدا ان يلبان وافراد البيت القوطى صاروا اصحاب اقطاعات واسعة قنعوا بها ، واخذوا الى المعيشة الهادئة الوادعة في ظل الولاية الاسلامية الجديدة في الاندلس .

## غزوات العرب في بلاد غاليا (١) (فرنسا)

اسباب هذه الغزوات :

حفز ولاة الاندلس بعد موسى بن نصير الى غزو غاليا الحلم الذى راود خيال موسى بن نصير من عبور جبال البرانس وبلوغ الشام من طريق اوروبا الجنوبية ، وفوق ذلك فان شهوة التوسع فى السلطان ، وشهوة الاستحواذ على النفائس والاموال المدخورة فى الدير والكنائس ، كل ذلك مما جعل ولاة الاندلس يحرصون على هذا الغزو . وزادهم حرصا وتصميما ماكانت تعانيه بلاد غاليا آنئذ من الانقسام والاضطراب ، والحروب متصلة بين الملوك الميروفنجيين اصحاب معظم غاليا ودوقات اكويتانيا فى الجنوب الغربى منها .

اهم الغزوات :

واول وال اندلسى عبر البرانس وغزا غاليا هو السمح بن مائك الخولانى ( ١٠٠ - ١٠٢ هـ ) فانه غزا اقليم سبتمانية - او اقليم

---

(١) هذا هو الاسم الرومانى القديم (Galla) لفرنسا الحالية ، اما اسم فرنسا فاشتقاه من اسم قبائل ملوكها ، اى الفرنجة الميروفنجيين .

المدن السبع . بين غاليسا واسبانيا وتقدم السماح اليه  
اربونة عاصمة ذلك الاقليم فحاصرها ثم استولى عليها ، ثم سار  
شمالا بفرب ودخل دوقية اكويتانيا وحاصر مدينة طولوشة  
( تولوز ) . ونشبت بين الفريقين وقعة كبيرة قتل فيها السمع  
وهزم جيشه . وولى الجند على انفسهم عبد الرحمن الغافقى  
فتراجع بقلول الجيش الى اربونة .

وتجددت المحاولة فى عهد الامير عنيسة بن سحيم الكلبى  
( ١٠٢ - ١٠٧ ) فعبر البرانس واستولى على مدينة قرقشونة  
وسائر مدن سبتمانية ، ثم سار وساحل البحر المتوسط مشرقا  
حتى بلغ نهر ردونة ( الرون ) ، فاتبعه مصعدا حتى بلغ مدينة  
ليون فاستولى عليها ثم دخل عنيسة اقليم برغونة ( برجنديّة )  
وامعن فيه حتى وصل الى مدينة اوتون ، على ان اهل البلاد  
قطعوا عليه خط رجعتهم وناوشوه القتال فقتل عنيسة كذلك ،  
وتراجعت قلول الجيش الى اربونة .

وقعة بلاط الشهداء او تور - بواتيه :

ثم تجددت المحاولة مرة اخرى فى ولاية عبد الرحمن الغافقى  
( ١١١ - ١١٤ هـ ) ، اذ شهد هزيمة الجيش الاندلسى عند  
طولوشة ، واراد ان يمسح عارها فعبر البرانس ، ومضى حتى  
استولى على مدينة برديل ( بردو ) ثم عبر نهري جارون ودردون ،  
وتقدم الى مدينة بواتيه وركز علم بنى امية الابيض امام  
اسوارها .

وإدرك شارل مارتل وزير الدولة الميروفنجية في  
غاليا أهمية الحرب وخطر العرب فتقدم في  
جيش جرمانى لدفع الخطر الدايم . وأخيرا تراءى الجيشان  
في متسعين مدينتى تور وبواتيه ، فانشب عبدالرحمن الغافقى  
الحرب ، فانطلقت خيل المسلمين على صفوف الفرنجة المرصوة  
فأثرت عليها تأثيرا كبيرا . غير ان حركة التفاف حول احد جناحى  
المسلمين بغية الاستيلاء على معسكرهم بما فيه من المؤن والغنائم  
أدت الى تخلى كثير من الجند الاسلامى عن مواقفه ، للمحافظة  
على الاموال والغنائم . وعند ذلك ضاعف الفرنجة جهودهم ،  
فحاول عبد الرحمن الغافقى تلافى الحال ، واستهدف للعدو  
فخر قتيل . ثم حجز الليل بين الفريقين ، فلم يجد العرب بدا  
من الانسحاب تحت جنح الظلام تاركين خيامهم واثقالهم  
( ١١٤ هـ ، ٧٢٢ م ) .

تلك وقعة تور - بواتيه فى التواريخ الاوروبية ، او وقعة  
بلاط الشهداء فى المراجع العربية . ويعلق عليها المؤرخون  
الاوروبيون أهمية كبيرة ، ويرونها من الوقائع الفاصلة فى التاريخ  
الاوروبى لانها صدت تيار الفتح الاسلامى عن غرب اوروبا .  
ومهما يكن من شىء فلا شك ان هزيمة العرب فى بلاط الشهداء  
غربا وارتدادهم عن القسطنطينية شرقا ، وضع حدا لمحاولتهم  
غزو اوروبا من هاتين الجهتين ، فان كان ولا بد فليكن الغزو من  
الوسط : من ناحية مصر وافريقية .



## فتح جزائر البحر الابيض المتوسط

### وجنوب ايطاليا

بدا مشروع غزو أوروبا من الوسط زمن الخلافة العباسية  
ببغداد ، على يد جماعة كبيرة من مهاجري الاندلس الذين  
استولوا على الاسكندرية بقيادة زعيمهم ابي حفص عمر بن  
شعب سنة ٨١٨ - ٨١٩ م ، واقاموا بها حكومة شبه جمهورية  
مدة ست سنوات ، وذلك في اوائل عهد الخليفة المأمون . فلما  
فرغ المأمون من امور المشرق بعث عبد الله بن طاهر واليا على  
مصر ، فحاصر الاسكندرية حتى عرض عليه الاندلسيون ان  
يجلوا عنها ويسيروا الى اقريطش (كريت) ، على ان يعينهم الامير على  
ذلك . فاجابهم عبد الله بن طاهر الى طلبهم من المؤونة والذخيرة ،  
وركبوا البحر في اربعين سفينة بقيادة زعيمهم ابي حفص ؛  
ونزلوا ببعض مراقي اقريطش دون ان يجدوا مقاومة تذكر من  
الاهلين الذين تقموا على سادتهم الابطارة البيزنطيين ظلمهم  
واضطهادهم . ثم اختط ابو حفص سنة ٢١٢ هـ مدينة اتخذها  
مقرا لحكومته ، واحاطها بخندق ، ومن ثم عرفت هذه المدينة  
باسم كنديا وهو لفظ محرف عن كلمة الخندق العربية .

واخذ اولئك المسلمون الاندلسيون يغزون الجزر القريبة  
من اقريطش ، ثم وسعوا نطاق غزوهم في بحر ايجة شرقا وغربا ،  
وحاولت الدولة البيونطية غير مرة ارتجاع اقريطش وطردهم  
العرب منها ، فباعت حملاتها كلها بالفشل ، وذلك لضعف البحرية

البيزنطية اذ ذاك ، ولان مسلمى اقريطش كانت تصلهم الامداد  
تباعا من مصر . واستمر حكم الجزيرة في ذرية ابي حفص الى  
ان تمكن البيزنطيون اخيرا من ارتجاعها في منتصف القرن  
الرابع الهجرى .

وامتدت فتوح المسلمين الى جزيرة صقلية ، وهى كذلك  
تابعة للامبراطورية البيزنطية ، والسبب المباشر لفتحها ان قائدا  
بحريا من قيادة البحرية البيزنطية في الجزيرة ، واسمه يوفيمبوس ،  
اوفيمى في المراجع العربية حدثه نفسه بالخروج على الدولة  
والتلقب بلقب امبراطور . ولكنه لم يستطع بالقوة التى اطاعته  
ان يمشى في التمرد ، فلجأ الى زيادة الله الاغلبى امير القيروان  
وعرض عليه ان ينصره فاذا تم له ملك صقلية ادى اليه الجزية .

ورات حكومة القيروان الفرصة سانحة لتملك الجزيرة الكبيرة  
ذات الموقع الجغرافى الممتاز ، فاعدت حملة بحرية راست عليها  
قاضى القيروان ، اسد بن الفرات . وكانت مؤلفة من ١٠٠٠٠  
راجل ، ٧٠٠ فارس وتقلها مائة سفينة ، فوصلت شواطئ  
صقلية ٣١٢ هـ - ٨٢٧ م . ثم وقع شجار بين بعض الجنود  
المسلمين وجند فيمى ، فانتهز هذه الفرصة قائد الحامية  
الامبراطورية واسمه في المراجع العربية بلاطة وهاجم جيش اسد  
ابن الفرات ، دون ان ينتصر عليه .

ثم تحرك اسد نحو سرقوسة وحاصرها برا وبحرا ، فأوعز

الامبراطور ميخائيل الثانى الى حكومة البندقية ان تمدها بنجدة  
لعجزه من القيام بذلك وقتذاك ، لكن نجدة البنادقة لم تصنع  
شيئا ، بالقياس الى الطاعون الذى تفشى فى الجيش الاسلامى  
عند سرقوسة ، وكان من جملة ضحاياه القاضى اسد بن الفرات  
نفسه ، ولذا تراجع المسلمون عنها سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م . ثم  
خف الطاعون ، فتحرك الجيش الاسلامى بعد ان تفرع فرعين ،  
فسار احدهما غربا واستولى على جرجنت ، والآخر الى  
قصريانة . وفى تلك الاثناء وردت حملة ارسلها الامبراطور  
ميخائيل الثانى اخيرا نجدة لسرقوسة ، فحاربت المسلمين حتى  
اجلتهم عن كل المواقع التى احتلوها ماعدا مازر ومينو . وكان من  
حسن حظ المسلمين ان وردت عليهم نجدة من افريقية  
والاندلس ، وبذلك استطاعوا ان يحاربوا الحملة الامبراطورية  
ويهزموها ، وان يزحفوا الى مدينة بلرم ويستولوا عليها خريف  
سنة ٢١٦ هـ ، ٨٢١ م ، وهى قاعدة حربية هامة وميناء بحرى  
ممتاز ، ولذلك يعتبر استيلاء المسلمين عليها نهاية المرحلة الاولى  
من مراحل فتحهم صقلية ؛ بدليل اعلان حكومة القيروان بان  
مافتح من صقلية اقليما اسلاميا وشروعها فى تنظيمه اداريا .

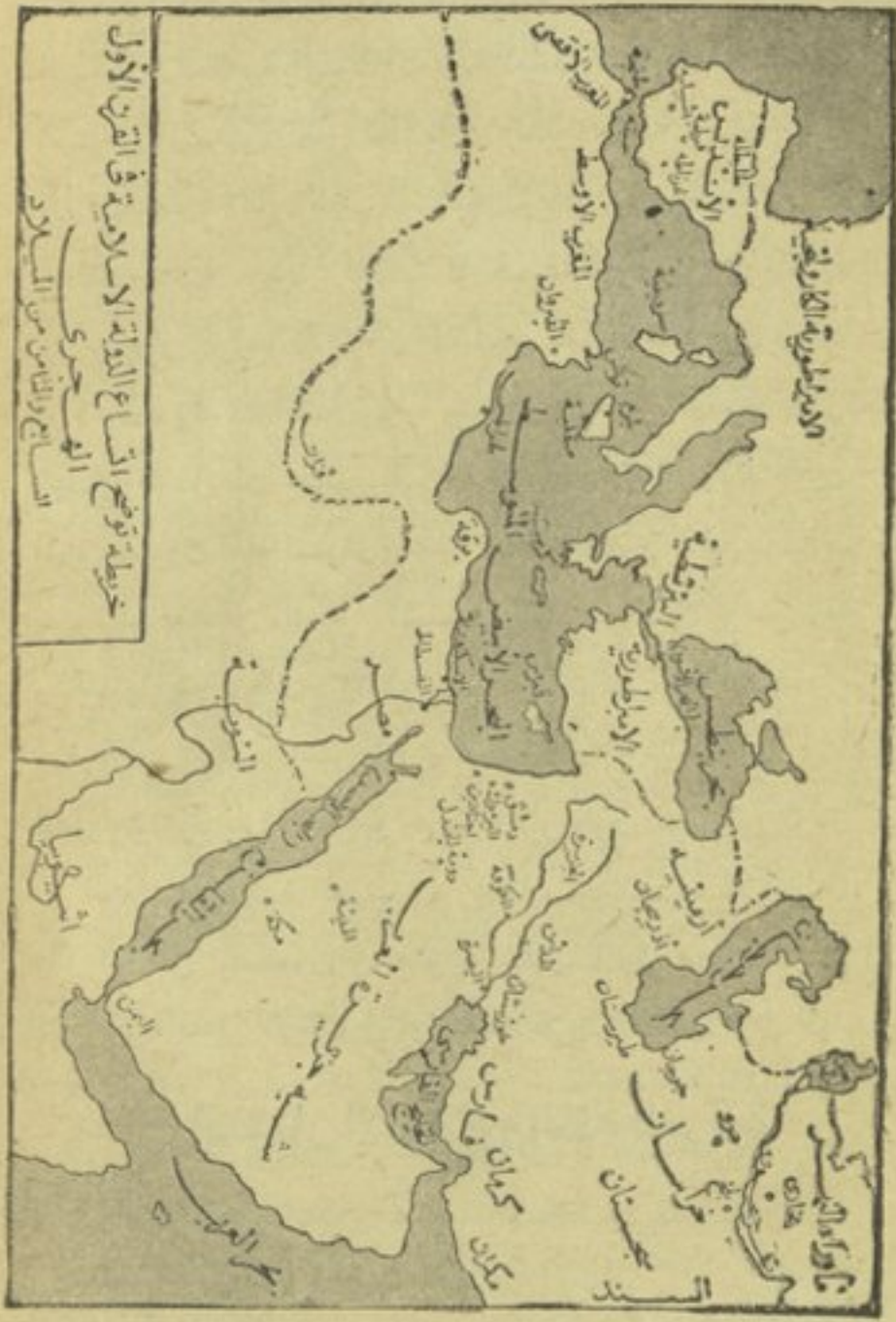
اما المرحلة الثانية فتنتهى باستيلاء المسلمين على مسينا ، اذ  
اصبحوا ولهم السيطرة على غرب الجزيرة فوق انهم يملكون المدينة  
الرئيسية فى الشمال الغربى ، اى بلرم . وبعد سنوات قلائل  
استولى المسلمون على رجوسة ، وبذلك حصلوا على موقع

ينفذون منه الى الجنوب الشرقى للجزيرة . واخيرا فتح المسلمون  
امنح مدن صقلية وهى قصر يانه سنة ٨٥٩ م ، وكان فتح تلك  
المدينة الخطوة الحاسمة فى فتح الجزيرة .

وراع حكومة القسطنطينية سقوط قصر يانه ، فجردت حملة  
بحرية قوية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة حربية ، ووصلت هذه الحملة  
الى سرقوسة . غير ان المسلمين زحفوا الى الجيش الذى انزلته  
هذه الحملة المذكورة ، وانزلوا به الهزيمة على مقربة من سرقوسة .  
ثم استولى المسلمون على مواقع ثانوية لم تكن سقطت بعد ،  
وختموا كل ذلك بالاستيلاء على سرقوسة فى عهد الامبراطور  
باسيل الاول ، فتم لهم بذلك فتح صقلية كلها .

### فتح جنوب ايطاليا :

ولم تكد تمضى عشر سنوات على مشروع فتح المسلمين صقلية  
حتى اخذوا يتطلعون الى فتح جنوب ايطاليا ، وكما ان الحافز  
لهم على غزو صقلية جاء من صقلية نفسها فكذلك جاء الحافز لهم  
على غزو جنوب ايطاليا من اصحاب جنوب ايطاليا . حين  
تحاربت اماره نابلى ودوقية بنفنت اللمبردية ، وطلبت نابلى العون  
على عدوها من حاكم بلرم العربى . ولبى هذا الحاكم الدعوة ،  
وارسل اسطوله لنجدة نابلى ، ولم يلبث المسلمون ان اتبعوا ذلك  
بالاستيلاء على برنديزى ، وبدأوا ينظمون فتوحهم الجديدة  
(٨٤٠ م) . وهنا تدخلت البندقية بايعاز من حكومة القسطنطينية ،  
لان تطرق البحرية الاسلامية الى البحر الادرياتي يهدد سلامتها ،



خريطة توضح اتساع الدولة الاسلامية في القرن الاول الهجري والثامن من الميلاذ

فأرسلت عددا من سفنها الحربية الى خليج تارنتم . غير أن السفن الاسلامية استطاعت ان تغلب على هذه الحملة ، بل استولى المسلمون على ثغر باري كذلك سنة ٨٤١ م . وهنا أدركت امارة نابلي خطر المسلمين ، فكونت حلفا من الامارات بجنوب شبه جزيرة ايطاليا لوقف ذلك الخطر . وأدرك البابا جريجورى الرابع كذلك ان المسلمين سوف يطرقون رومية عاجلا أو آجلا ، ولذلك انشأ حولها سورا وخندقا . وصح ما توقعه البابا قبل ان تمضى على وفاته مدة طويلة وذلك حين ظهر المسلمون امام اسوار رومية سنة ٨٤٦ م ، فصددهم حاكم سبوليتو بعد ان انتهبوا كنيسة القديسين بولس وبطرس ، وكانتا واقعتين خارج الاسوار . على ان تهديد العرب لرومية ، ورغبة امير نابلي وامبراطور القسطنطينية واحلافهما فى القيام بعمل مشترك ازاء العرب حرك الامبراطور الجرماني لوئار كذلك الى العمل على طرد العرب من جنوب ايطاليا لمصلحته . ومع هذا كله ظل المسلمون فى جنوب ايطاليا وفى صقلية حتى الفتح النورمانى لهذين الاقليمين اواسط القرن الحادى عشر الميلادى .

## انتشار الاسلام واللغة العربية

### الاسلام :

تسعت الدولة العربية الاسلامية كما اتسعت الامبراطوريات الكبيرة فى كل العصور وبنفس الطريقة غالبا ، اى طريقة الفتح والتغلب الحربى الذى اخذ شكل هجرة عربية عامة ، على مثال

الهجرات الكبيرة المعروفة في التاريخ . لكن التوسع العربي صاحبته ظاهرة قوية هي ظاهرة انتشار الاسلام في الاقطار المفتوحة ومن ثم التبس الامر على بعض الكتاب والمؤرخين الاوروبيين في العصور الوسطى والحديثة حتى اخربت القرن الماضي ، فظنوا ان الدين الاسلامي انتشر بالفتح العربي ، او على حد قولهم « انتشر بالسيف » ، مع ان الاسلام دين ذو عقائد ومبادئ ، والعقائد والمبادئ لا تنمو وتنتشر بالعنف والاكراه ، بل بالاقناع والافتناع . ثم ان القرآن اوجب اصطناع الرفق في بث الدعوة الاسلامية « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، « وجادلهم بالتى هي احسن » ، « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى » . وسار الرسول والخلفاء الراشدون بعده في نشر الدعوة الاسلامية على هدى هذه الآيات الصريحة . ويكاد تاريخ الدولة الاسلامية كله لا يعرف حالة واحدة اكراه فيها شخص على اعتناق الاسلام ( ١ ) ، ما عدا كفار شبه الجزيرة العربية ، فانهم لم يقبل منهم الا الاسلام او السيف ، لا الجزية . واذن فينبغى ان نفرق بين التوسع العربي من طريق الفتح الحربى في مختلف الاقطار ، وانتشار الاسلام في الاقطار المفتوحة . والاقطار التى شملها التوسع العربى يمكن تقسيمها قسمين (١) اقطار تغلب على سكانها النصرانية ومعها اليهودية (٢) واططار اخرى تغلب على سكانها ديانتان اخريان هما الزرادشتية والبوذية .

انتشار الاسلام في الاقطار المفتوحة التي تغلب عليها النصرانية  
( ومعها اليهودية ) :

فالاقطار التي تغلب على اهلها النصرانية ( ومعها اليهودية )  
وهي الشام ومصر وشمال افريقية واسبانيا ، انتشر فيها  
الاسلام لانه يعترف بالنصرانية واليهودية دينين سماويين  
موحدين . والقرآن يشيد بذكرى التوراة والانجيل ، ويمجد  
ذكرى الرسولين موسى وعيسى والسيدة مريم ام المسيح كل  
التمجيد . لذلك اعتبر المسلمون النصارى واليهود « اهل ذمة »  
و « اهل كتاب » واقروهم على ديانتهم على شريطة أداء الجزية  
التي تعفيهم من الخدمة العسكرية . فاعترف الاسلام بالنصرانية  
واليهودية على هذا النحو الرائع مما قرب مسافة الخلف بينه  
وبينهما في العصر الاسلامى الاول خاصة ، وسهل النقلة من  
اليهودية او النصرانية الى الاسلام .

ثم اذا اعتبرنا بساطة العقيدة الاسلامية وسرعة تقبل العقل  
لها ، وقارنا هذه العقيدة الاسلامية بتعاليم اليهودية والمذاهب  
المسيحية التي تأثرت بالفلسفة الاغريقية حتى اصبحت  
صعبة على افهام اوساط الناس فضلا عن العامة ، وجدنا دافعا  
آخر لانتشار الاسلام في جماهير النصارى خاصة في العصر  
الاسلامى الاول .

وتأتى بعد ذلك اسباب مادية واخرى اجتماعية ، فرغبة  
كثير من فقراء اهل الذمة في الخلاص من الجزية كانت سببا في



اعتناقهم الاسلام ، كما ان حال بعض الطبقات العاملة والعبيد كانت من البؤس والانحطاط الاجتماعى بحيث دفعها بؤسها وانحطاط حالها الاجتماعية الى اعتناق الاسلام الذى يصرح بأن المسلمين سواء ولا تفاضل بينهم الا بالتقوى . والحق ان مسألة الخلاص من الجزية كانت السبب فى اقبال كثير من اهل الذمة على اعتناق الاسلام ، حتى هال الدولة الأموية فى اواخر القرن الاول الهجرى تناقص مبلغ الجزية ، فلم تأبه لاسلام من اسلم من اهل الذمة ، واخذته على الرغم من اسلامه بأداء الجزية . لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز امر برفع الجزية عن من اسلم من اهل الذمة ، وقال مقالته المشهورة « ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » .

### انتشار الاسلام فى الاقطار المفتوحة الاخرى :

هذه الاقطار هى ايران والهند ، فاما ايران فكانت ديانتها وقت الفتح هى الزرادشتية ، واما الهند فكانت ديانتها البوذية . وكلتا الديانتين تأمر بفعل الخير وتنهى عن فعل الشر ، ولذلك فان الفاتحين من المسلمين انزلوا اتباع الديانتين المذكورتين منزلة اهل الكتاب من النصارى واليهود ، فقبلوا منهم الجزية وسمحوا لهم بالبقاء على عقيدتهم . غير ان فساد احوال الجماهير والطبقات العاملة فى ايران والهند وقتذاك ، واحتقار الخاصة ورجال الدين لهم واعتبارهم اياهم انجاسا ، او شبه انجاس ، كل ذلك مما حمل الناس على الدخول فى الاسلام افواجا .

انتشار الاسلام بقوته الذاتية في اقطار لم يفتحها المسلمون  
فتحا حريا :

ولا ادل على خطأ الدعوى القائلة بأن الاسلام انتشر بالسيوف  
من ان الدين الاسلامي انتشر فيما بعد في اقطار شاسعة لم  
تغزها جيوش المسلمين - اى جزائر الملايو ، وأقاليم افريقية  
الشرقية والغربية والصحارى الكبرى ، كما دخل الصين  
وأواسط آسيا حتى وصل الى اعماق سيبيريا ، كل ذلك بقوته  
الدائية وعلى ايدى دعاة من التجار غير محترفين للدعوة أصلا ،  
وهو ما سوف نجده موضحا في الفصل الأخير من هذا  
الكتاب . ثم ان بساطة المناسك الاسلامية من صلاة وزكاة  
وصيام وحج ، وروعة الحضارة الاسلامية ممثلة في مساجدها  
ومبراتها وعلومها وآدابها ، كل ذلك ادى الى اقبال اهل البلاد  
التي لم يفتحها المسلمون على اعتناق الاسلام طواعية دون عنف  
أو اكراه .

### انتشار اللغة العربية

والظاهرة الاخرى الكبيرة التي صاحبت اتساع الدولة  
الاسلامية هي ظاهرة انتشار اللغة العربية بين اهل الاقطار  
المفتوحة انتشارا عاما سريعا . وتعليل ذلك أولا ان العرب بفتحهم  
العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال افريقية اتصلوا  
بشعوب تتكلم لغات تمت الى العربية بصلة النسب من قريب

أو بعيد ، فمعظمها لغات سامية الاصل . وهذا التقارب بين العربية وتلك اللغات مما سهل على أهل البلاد المفتوحة تعلم العربية والتكلم بها . ثم جاءت عوامل أخرى زادت من إقبال أهل تلك البلاد على تعلم العربية ، فانتشار الدين الإسلامي في الاقطار المفتوحة اقتضى مثلا أن يتعلم الموالي اللغة العربية وهم الذين اعتنقوا الإسلام من أبناء تلك الاقطار ، لأنها لغة القرآن الذي لا بد من الإلمام ببعض نصوصه لإقامة الصلاة وفهم أصول الإسلام . ثم أن الدولة عربية لغتها الرسمية هي العربية ، فلا بد من تعلم العربية لمن أراد أن يتقلد عملا رسميا أو مناصبا حكوميا ولو كان من غير المسلمين .

وعلى ذلك إقبال شباب أهل البلاد من موالي وأهل ذمة على تعلم العربية لهذا الغرض ، وحذق أفراد من الموالي اللغة العربية أواخر القرن الأول إلى درجة أن عبد الملك بن مروان رأى أن ينقل الدواوين من اللغات الأجنبية التي تكتب بها منذ الفتح إلى اللغة العربية ، فتم في عهده نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية، وديوان الشام وفلسطين من الرومية ( اليونانية ) إلى العربية . وفي عهد ابنه الوليد تم نقل ديوان مصر من الرومية والقبطية إلى العربية ، وأخذ الأقباط أنفسهم يتكلمون اللغة العربية .

#### انتشار العربية في أهل الذمة :

وليس أدل على إقبال غير المسلمين من أهل البلاد المفتوحة على تعلم العربية من شكوى كاتب أسباني مسيحي في أوائل القرن

الثالث الهجرى من انصراف الشباب الاسباني المسيحي عن  
اللاتينية انصرافا تاما ، واقباله على دراسة العربية وآدابها ،  
والبراعة فيها الى درجة ان افرادا منهم اصبحوا يستطيعون  
الكتابة بها نثرا ونظما كالعرب سواء بسواء .

## تأسيس الدولة الاسلامية

### الجماعة الاسلامية :

قامت الدعوة الاسلامية في الدور المكي الاول من حياة الرسول دينية خالصة لا تستند الى شيء سوى قوة الاقناع والموعظة الحسنة ، واستجاب لها من اول الامر بعض اقرباء الرسول واصدقائه الذين اعتقدوا صدق دعوته ونبوته . ثم دخل فيها غير واحد من بطون قريش ، فتكونت من ذلك جماعة اصبحت الدعوة الجديدة اساس تكوينها .

### اتجاه جديد للدعوة والجماعة :

غير ان الرسول راي الغالبية العظمى من قومه تعارض دعوته وتمسك بنظامها القديم ، مع ما فيه من فساد وانحطاط ، وراها بعد ذلك تتحول من المعارضة الى اضطهاد اصحابه الذين دخلوا في دعوته ، ثم الى اضطهاده هو آخر الامر . فرأى ان يبث الدعوة في خارج مكة وفي غير قريش ، فآمن برسالته ودعوته ففر من حجاج الاوس والخزرج سكان يثرب ( المدينة ) ، وتمت بينه وبينهم بيعنا العقبة الاولى والثانية ، على ان يهاجر الرسول الى يثرب ، وان يتولوا هم وقومهم حمايته وحماية دعوته ممن يريدون او يريدونها باذى او عدوان . وبهذه المبايعة اخلت الجماعة الاسلامية تتجه اتجاها جديدا .

**الجماعة الإسلامية في الدور المدني وتأسيس الدولة الإسلامية :**  
فلما هاجر الرسول من مكة الى المدينة واصبح على رأس  
جماعة مختلطة من المهاجرين من قريش ، ومن الانصار وهم  
مسلمو الاوس والخزرج واليهود الذين سكنوا في المدينة معهم ،  
بادر الرسول تمشيا مع مقتضيات الاحوال الجديدة الى تنظيم  
الشؤون العامة لهذه الجماعة المختلطة . فاختط عليه السلام  
مسجدا يؤدي فيه المسلمون فريضة الصلاة ويدبرون فيه  
امورهم العامة ، كما وضع دستورا ضمنه مبادئ عامة يتبعها  
اهل المدينة جميعا في امور الحرب والسلام ، والديات والفصل  
في الخصومات وشؤون الميراث ، وتوفير الامن العام .  
للجماعة . ويعتبر ذلك كله في الحقيقة تحولا للجماعة التي  
بدأت دينية خالصة في الدور المكي الاول الى جماعة دينية  
سياسية في المدينة . كما تعتبر تأسيسا للدولة الإسلامية التي  
نمت نموها التاريخي المشهور .

### قيام الخلافة الإسلامية :

وفي العام الثاني للهجرة شرع الرسول في الجهاد في سبيل نشر الدين  
الإسلامي ، أي الحرب ، دفاعا عن الدعوة الإسلامية واصحابها .  
وتكفلت السور القرآنية بتنظيم شؤون الحرب ، من حيث  
ابتدائها والسير فيها وانتهائها وتوزيع الغنائم ومعاملة الاسرى  
كما تضمن القرآن فيما بعد طريقة معاملة أهل الذمة من اليهود  
والنصارى ومن لم يسلم من العرب ، والنص على العقوبات التي

توقع في احوال الجرائم الكبرى ، وذكر الاحزاب المختلفة من مهاجرين وانصار ومنافقين ويهود ، وتنظيم المعاملات المدنية واحوال الاسرة وذلك في كثير من الدقة والتفصيل .

وبذلك تكامل للدولة الاسلامية الجديدة كل مقومات الدولة الاساسية من ( ١ ) وطن ( ٢ ) وسكان ( ٣ ) ونظام او قانون ( ٤ ) وهدف مشترك هو في حال الدولة الاسلامية نشر الدعوة وحماية النظام الجديد . وقام الرسول على راس الدولة ، فاجتمعت على حد تعبيرنا جميع السلطات في شخصه عليه السلام ، فهو من الناحية الدينية يتلقى الوحي ويبلغه ، ومن ناحية ثانية يقود الجيوش ويعقد المعاهدات ومن ناحية ثالثة يفصل في الخصومات ويوزع الاموال ويرعى ماجل ودق من امور الجماعة . والحكومة التي من هذا القبيل يقال لها حكومة دينية او ثيوقراطية لانها تقوم على اساس ديني .

## تطور الدولة الاسلامية

### على عهد الخلفاء الراشدين

#### قيام الخلافة الاسلامية :

فلما قبض عليه السلام دون ان ينص صراحة على النظام الذي يتبع من بعده في رياسة الدولة الاسلامية ، واجه اهل المدينة مشكلة بالغة الخطر ، وهي من يخلف النبي في رياسة للدولة الاسلامية ؟ وقبل ان يتم تجهيز جثمان النبي ودفنه -

اسرع الانصار فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يسبقوا المهاجرين الى البت في الامر باختيار رجل منهم ، ورشحت الخزرج للامر بالفعل سعد بن عبادة . وبلغ المهاجرين اجتماع الانصار بالسقيفة فخافوا افتراق الكلمة ووقوع الفتنة ، فترك بعضهم ما كانوا فيه من تجهيز جثمان النبي ، واسرع الى مكان الاجتماع ثلاثة من اقطابهم ، وهم ابو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وابو عبيدة بن الجراح .

وتبادل قادة الفريقين الخطب والعبارات الشديدة ، في اجتماع السقيفة ، لكن التنافس القديم بين الاوس والخزرج عاد الى الظهور في ذلك الطرف العصيب فاضعف ذلك من جانب الانصار . وانتهاز الفرصة عمر بن الخطاب رجل الموقف في ذلك اليوم ، فتقدم الصفوف الى ابي بكر فبايعه وتتابع المهاجرون من بعده يبايعونه ، وقدمت قبائل اسلم وغفار ومزينة النازلة بالقرب من المدينة فبايعت ، ثم تقدمت الاوس فبايعت لتقطع على الخزرج ما ارادت ، واخيرا بايعت الخزرج كذلك على كره منها . ثم بايع الناس في اليوم التالي ابا بكر في المسجد بيعة عامة ، وذلك بعد ان تم تجهيز جثمان النبي ودفنه . ثم استقر الراي على ان يكون لقب ابي بكر خليفة رسول الله . وهكذا انفرجت الازمة وكتب للدولة الاسلامية البقاء ، وهكذا قام نظام الخلافة الذي استمر من ذلك اليوم التاريخي الى ان الفاه الاتراك العثمانيون سنة ١٩٢٤ م . وازدادت الدولة الاسلامية رسوخا بقمع ابي بكر لحركة



الردة في السنة الاولى من خلافته فان العرب عامة خارج الحجاز اعتقدوا ان الاسلام بعد وفاة الرسول اصبح ديننا فقط لا ديننا ودولة ، وهو ما اعتقد به اهل المدينة ، ولذلك منع اولئك العرب الزكاة وعجبوا من مبايعة اهل المدينة ابا بكر .

### الخلفاء الاربعة :

والخلفاء الاربعة الاولون انتخب كل واحد منهم للخلافة انتخابا ، فلما مرض ابو بكر مرضه الذي توفي فيه رشح للامر بعده عمر بن الخطاب ، واقرت الجماعة ترشيحه وبايعت عمر . ولما طعن عمر بن الخطاب عين ستة من الصحابة سمووا اهل الشورى ، ليختاروا من بينهم واحدا منهم للخلافة ، فاختر عثمان بن عفان . ولما قتل عثمان اختار الثوار على بن ابي طالب ، وبايعه معظم الناس .

### حكومة ثيوقراطية :

ولم يال كل خليفة من الخلفاء الاربعة جهدا في الاخذ بسنة الرسول في الحدب على صالح الامة الاسلامية ، ورعاية امورها صغيرة كانت او كبيرة ، مع بساطة المعيشة والزهد التام في زخرف الدنيا ، والبعد عن ابهة السلطان وجبروته ، برغم اتساع الفتوح وتدفق الاموال . وعلى ذلك فان الدولة على عهدهم لم تجزى صفتها الدينية مائلة كما كانت على عهد الرسول ، وهو قبيح مع الفارق الواضح ، فان الرسول له صفة النبوة والرسالة اما الخلفاء الاربعة فلم تكن لهم هذه الصفة بطبيعة الحال .

## الخلافة على عهد الدولة الاموية

غير ان الطابع الدينى الذى اتصفت به الدولة على عهد الخلفاء الاربعة لم يلبث ان اخذ يضعف شيئا فشيئا . فان الدولة اتسعت اتساعا عظيما سريعا ، وتعددت مسائلها الاقتصادية ، وتعددت مشاكلها السياسية ، ووقع من الاحداث الدامية شىء غير قليل : من مقتل الخليفة الثالث عثمان ، وانقسام الناس فى خلافة على بن ابي طالب ، ومحاربتة وخروج الخوارج عليه . كل ذلك جعل الراى العام يرى ان لا بد من تغيير فى السياسة لمواجهة الاحوال الجديدة .

### انقلاب الخلافة الى الملك :

والواقع ان هذا هو جوهر النزاع بين على ومعاوية ، اذ استمسك الامام على بنظام الخلافة القديم من حيث الشدة فى الدين والصرامة فى الحق ، فيتورع عن انفاق درهم من مال الدولة فى غير موضعه ، وكره ان يرى درهما يؤخذ من مال الدولة بغير حق . اما معاوية فاصطنع الدهاء والحيلة فى تنفيذ اغراضه ، ولا يتحاشى ان يبذل الاموال فى تحقيق مطالبه ، وحارب على بهذه الاسلحة ففاز فى النهاية ، واخذ كثير من رجالات على يهجرون جانبه وينحازون الى جانب معاوية .

ومضى معاوية فى خلافته على هذه السياسة ، فاستعان فى ضبط الدولة بدهاة الرجال ومنهم عمرو بن العاص والمغيرة بن

شعبة وزيد بن أبي سفيان ، فوطأوا اكناف دولته بما أوتوا من  
دهاء وسياسة . وقطع معاوية السنة الخطباء والشعراء الهجائين  
لا بالسيف بل بالمال ، ويستل الاحقاد من صدور أعدائه بالمال  
كذلك ينفقه بغير حساب . كل ذلك مهد له الامور فجلس على  
السرير كما كان يفعل اباطرة البيزنطيين ، واتخذ في المسجد  
مقصورة يصلى فيها والحرس عليه وقوف .

ولما تقدمت بمعاوية السن عقد البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ،  
مخالفاً بذلك سنة الخلفاء الاربعة ، فانسأقت الخلافة في بني أمية  
حتى سنة ١٣٢ هـ . فانت ترى ان معاوية اخذ الخلافة بالقبلة  
واقهر لابلانتخابات والشورى ، وساسها بالدهاء والحيلة والبطش  
عند اللزوم ، وسن سنة الحكم الموروث من غير سابقة في الاسلام ،  
وسار كبار خلفاء بني أمية بسيرة معاوية ، وان لم يكن لهم حلمه  
وكياسته ومهارة تصريفه للامور .

ويعد المؤرخون الاسلاميون على بن ابي طالب آخر الخلفاء ،  
ومعاوية بن ابي سفيان اول الملوك ، لان الملك يباين الخلافة من  
وجوه كثيرة ، فالخلافة انتخاب وشورى ، واستمساك بالدين في  
تصريف شئون الدولة بالعدل ، والملك غلبة ودهاء واعتداد  
بالعصبية ، سواء اكانت عصبية الاسرة ام عصبية القبيلة ، وهو  
لا بأس به مادامت غايته المصلحة العامة . اما اذا قصد بالملك  
ان ينعمس صاحبه في الترف والتنعم بالملاد ، وارضاء الشهوات  
واصطناع العصبية العمياء ، كان ملكا مذموما امره الى زوال .

والمؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون فصل مشهور في مقدمته عن انقلاب الخلافة الى الملك . على ان الخلافة لم تنقلب الى ملك فحسب ، بل صارت ملكا عربيا ، وذلك لان بنى امية تعصبوا للعرب على سائر الاجناس التى تشتمل عليها دولتهم ، وهى بحق المملكة العربية الممتازة فى العصور الوسطى . وبانتقال الخلافة الى الامويين الذين انشأوا مجدهم فى الاسلام ببلاد الشام انتقل محور الارتكاز فى الدولة الاسلامية من الحجاز الى الشام فاستقر فيها طوال عهدهم ، وحاول الحجاز ايام آل الزبير ، وفى صدر الدولة العباسية ، ارتجاع نفوذه السياسى لكن محاولته ذهبت سدى ، فانه ادى دوره التاريخى العظيم ، وكان لابد له من ان يقنع بانه اصبح بلادا مقدسة ، ينعم اهله وزواره بما فيه من ذكريات وآثار روحية خالدة ، ويترك الزعامة السياسية والمادية لاقطار اخرى .

## الخلافة على عهد الدولة العباسية

( ١٢٢ - ٦٥٦ هـ )

الاحزاب المعارضة للامويين :

حمل لواء المعارضة ضد الامويين ثلاثة احزاب ، هم

( ١ ) العلويون ( ٢ ) الخوارج ( ٣ ) الموالى .

اما العلويون وهم ذرية الامام على وزوجته فاطمة بنت الرسول فراوا انهم احق بالخلافة من بنى امية ، لانهم يجرى فى عروقهم الدم النبوى الظاهر ، وقام العلويون من حين لآخر بحركات ثورية

قابلها الامويون بالقمع والشدة، فكان الفشل نصيب هذه الحركات  
واما الخوارج وهم الذين خرجوا على الخليفة على بن ابي طالب  
غداة وقعة صفين لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية ، فهم فرق  
متعددة بين متطرفة ومعتدلة . وهم جميعا ديمقراطيون عميقون  
في ديموقراطيتهم ، يرون الخلافة حقاً لمن هو اهل لها ايا كان نسبه او  
لونه او جنسه . وينقمون من بنى امية استبدادهم وعصبيتهم ،  
وذهب متطرفة الخوارج الى حد تكفير الامويين ، بل الى تكفير  
سائر المسلمين لانهم ليسوا على عقيدتهم . وحارب الامويون  
اولئك المتطرفة من الخوارج حتى قضوا عليهم ، ولم يبق منهم  
حزب تحسب الدولة له حساباً ، ماعدا طائفة الإباضية التي لانزال  
قائمة حتى العصر الحاضر . اما الموالي ، وهم الذين اعتنقوا الاسلام  
من العجم ، فنقموا من بنى امية تعصبهم للعرب ، واحتقارهم لكل  
من هو غير عربي . واشتدت نقيمتهم حين ذهب الحجاج والى  
الامويين بالعراق وغيره من عمال الدولة الى عدم الاعتداد باسلامهم  
وتقاضوا منهم الجزية مع أنهم جمهور اهل البلاد القائمون على  
زراعة الارض ومعظم الصناعات والمتوفرون على تحصيل العلوم  
والعمل في دواوين الدولة . وابتداً التقارب بين حزبي العلويين  
والموالي في اوائل الدولة الاموية على يد زجل يقال له المختار  
ابن ابي عبيد الثقفي ، اذ قام هذا الرجل في العراق يدعو الى محمد  
ابن الحنفية ( ابن على بن ابي طالب ) . وراى المختار ان يستعين  
بالموالي في صراعه مع الامويين فوعدهم النصفة والمساواة بينهم  
وبين العرب في الحقوق العامة . فانضموا اليه . وراقت دعوة

العلويين القائمة على نسبهم النبوي في نظر الموالي ، لانها تتفق  
والنظرية الفارسية القديمة القائلة بانحصار الملك في الاسرة الساسانية ،  
بحيث لا يصح لاحد من خارجها ان يتولى الملك . وكلما اشتد  
اضطهاد الامويين للعلويين ، ازداد التقارب بين العلويين والموالي ،  
واخيرا تم بينهم الامتزاج التام حتى اصبح معظم شيعة آل علي  
من الموالي .

اما العباسيون ، وهم ذرية العباس بن عبدالمطلب عم الرسول عليه  
السلام ، فلم يظهروا على مسرح الحوادث السياسية الكبرى في القرن  
الاول الهجري ، لانه لم يكن لهم من الاسباب ما يدعوهم الى الظهور  
السياسي . ثم حدث في اواخر ذلك القرن الاول ان اخذوا يدلون  
بدلوهم في الدلاء ويضربون في زحمة الحوادث لعلمهم يصلون الى  
الخلافة . فانضموا الى العلويين وشيعتهم من الموالي وكونوا  
جمعية سرية تعمل على قلب الدولة الاموية . وجعلت الدعوة  
« للرضا من آل محمد » وهي عبارة فيها كثير من التلبيس والغموض  
المقصود ، فان الرضا اى شخص مرضى السيرة ، وآل محمد  
يشملون العلويين والعباسيين . وانتشر الدعاة يعملون على تهيئة  
الاذهان في الاقطار الشرقية ولا سيما خراسان حيث الكثرة من  
الموالي وحيث العرب يحارب بعضهم بعضا بدعوى العصبية القبلية  
من يمنية ومضرية ، ولم يخامر العلويين والموالي ادنى شك في  
ان « الرضا من آل محمد » لا بد ان يكون شخصا علويا . وانتشرت  
الدعوة السرية ايما انتشار ، ولا سيما عندما تزعمها ابو مسلم

الخراساني . وصادف ذلك فساد امر الدولة الاموية بانقسام البيت المالك على نفسه وانقسام العرب الى حزبين متعادين يمنى ومضرى . ثم اعلنت الدعوة سنة ١٢٥ هـ وقاد ابو مسلم الخراساني جيوش الموالى ، فانتسح الاقاليم الشرقية حتى بلغ العراق سنة ١٣٢ هـ ، وعند ذلك برح الخلفاء وانكشف المستور ، فاذا الخليفة الجديد امير المؤمنين ابو العباس اول الخلفاء العباسيين ، فقد بويع بالخلافة في ١٣ ربيع الاول من هذه السنة ( اكتوبر ٧٤٩ م ) . وسقط في ايدي العلويين ، وعلّموا بعد فوات الوقت انهم خدعوا ، فلاذوا بالصمت والسكون على مضض . وانتهت الدولة الاموية في نفس السنة حين هزم جيش العباسيين بقيادة عبد الله بن علي ، وهو عم الخليفة العباسي الجديد ، جيشا امويا بقيادة مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين .

والخلاصة ان العباسيين وصلوا الى الخلافة من طريق الدهاء والقوة كما فعل الامويون قبلهم . غير انهم لم يتعصبوا للعرب ، كما تعصب لهم الامويون ، بل اعتبروا العرب اولياء لبني امية ، فحرصوا على عدم الاستعانة بهم في حركتهم الكبرى ، واذن هذا الانقلاب بذهاب نفوذ العرب السياسي من الدولة الاسلامية . على ان العباسيين تعصبوا للاسلام لا لجنس بعينه ، فالدولة الاموية هي الدولة العربية في العصور الوسطى والدولة العباسية هي الدولة الاسلامية الكبرى في تلك العصور ، وهي التي هيا انتصارها للاسلام وحده اسباب الظهور لمختلف الاجناس التي تشتمل عليها الدولة

الإسلامية من فرس وترك وكراد وسودان وغيرهم من المسلمين .  
وأول الأجناس ظهورا في الدولة العباسية الفرس ، لانهم هم  
الذين قامت الدولة على اكتافهم . ووضع ذلك سريعا في انتقال  
الخلافة من الشام الى العراق ، ومن دمشق الى بغداد ، وفي انبعث  
النظم الساسانية وآداب الفرس وعاداتهم القديمة في مختلف  
الأقاليم . واحيطت الخلافة في عهد العباسيين بهالة من القداسة  
لم تكن لها لا زمن الامويين ولا زمن الخلفاء الاربعة ، فانهم لكي  
يثبتوا حقهم في الخلافة ويدحضوا حجة العلويين ، اعتبروا الخلافة  
ارثا عن الرسول ، واجروا عليها حكم الميراث الشرعى ، وهو ان  
العم مقدم على ابن البنت في الميراث غير ان هذه  
القداسة ادت الى تلقيب الخليفة العباسى بلقب « خليفة الله » ،  
و « ظل الله في الارض » ، وللخليفة المنصور العباسى كلام من هذا  
القبيل في خطبة له . واحتفظ العباسيون بمخلفات النبي عليه  
السلام ، وهى البردة والقضيب وشعرات من شعره ، وقالوا  
بان الحرميين ضمن دولتهم . وكانت مظاهر التقديس ، فضلا  
عن اعتبار الخلافة ارثا عن النبي هما السبب في طول عمر الدولة  
العباسية ، وفي ان الخليفة العباسى كان في اشد اوقات ضعفه  
يسمى اليه المتغلبون على الأقاليم يلتمسون منه التقليد المثبت  
لامارتهم على ما غلبوا عليه .

ثم وضع للعباسيين تزايد نفوذ الفرس ، وكانوا قد اقصوا  
العرب ، فلجأوا الى العنصر التركى ، فاستكثروا منهم في الجيش



على عهد الخليفة المعتصم بالله ، غير ان العباسيين ما لبثوا ان لقوا  
من الاتراك عننا شديدا ، واصبحوا لانهى لهم معهم ولا امر ،  
وانتهت الحال بان اصبح الخليفة زمن الاتراك السلاجقة خليفة  
بالاسم فقط ، والتفوذ كله للسلطان السلجوقى وربما يقوم بين  
الجانبين من الصراع والمغالبة ما قام بين البابوات والاباطرة فى  
اوربا فى العصور الوسطى ، لولا ان كانت غارة التتار فى القرن  
السابع الهجرى فانت على الدولة العباسية ( ١٢٥٨/٥٦٦هـ ) .

## نظم الدولة الإسلامية

### الحكومة المركزية

#### الخلافة

التعريف بها :

الخلافة نظام إسلامي لم يوجد عند غير المسلمين . وهو نظام سياسي أساسه الدين ، فالخليفة ينظر في مصالح الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية والآخرية .

شروطها :

قام نظام الخلافة يوم السقيفة . ووضع لها الفقهاء فيما بعد خمسة شروط استنبطوها من سير كبار الخلفاء ، وهي : العلم والعدالة والكفاية ، وسلامة الحواس ، والنسب القرشي . واختلف الفقهاء في الشرط الأخير ، فان الانصار تطلعوا اليها يوم السقيفة وهم ليسوا قرشيين ، كما ان الاتراك العثمانيين ادعوا وتولوها واقهرهم جمهور المسلمين عليها مع انهم ليسوا عربا اصلا . ومهما يكن من شيء استقرت الخلافة طوال العصر فسن بذلك سنة الملك الموروث .

الوسيط في قریش ولم يتطلع اليها احد من المتغلبين الاقوياء ، امثال البويهيين والسلاجقة والغزنويين وغيرهم مع انهم كانوا اقوى من الخلفاء في عصرهم نفوذا وسلطانا .

### المبايعة بالخلافة :

ظلت الخلافة زمن الخلفاء الراشدين انتخابية شورية ، وغلبت البساطة على مراسم الخلافة ، فبايع اهل العقد والحل ، وهم اذ ذاك اهل المدينة ، كل خليفة من الخلفاء الاربعة ، على العمل بالكتاب والسنة خاصة ، وكانت البيعة تتم مصافحة بالايدي كما يفعل المتبايعان عند العرب . وطريقة الخلفاء الراشدين تجمع بين الجمهورية والشورى والملكية . اما الجمهورية فلان الخليفة يختار من قريش بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لان الانتخاب يتم بالشورى ، ولان الخليفة - لاسيما عمر بن الخطاب - كان يستشير اهل العقد والحل ، وهم اذ ذاك جمهور المهاجرين والانصار ، ثم هي ملكية محدودة ، لان الخليفة اذا اختير تقيده بأحكام القرآن والسنة . وزاد في قيمة هذه الطريقة ما استشعره الخلفاء الاربعة من التقوى والزهد في الدنيا ، والحرص على مصلحة الكافة . لكن العلماء والفقهاء للاسف لم ينظموا امر الشورى ، فلم يبينوا من هم على التحقيق اهل العقد والحل ، مما اودى بذلك النظام . ثم انقلبت الخلافة الى ملكية مطلقة تقريبا على يد معاوية ولا سيما بعد ان اخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد .

وجرت العادة في الدولتين الاموية والعباسية على انه متى بوبع الخليفة انتقل من داره الى دار الخلافة في موكب حافل ثم ترد عليه وفود المهنيين من الانصار .

ثم جد في الدولة العباسية انه متى تمت المبايعة اختار الخليفة

لقبا من الالقاب كالرشيد والامين والمأمون والمعتصم بالله وهكذا .

### بيعة ولي العهد:

ولما اصبحت الخلافة ارثا ، درج اكثر الخلفاء الامويين والعباسيين بعدهم على مبايعة اولادهم او غيرهم من ذوى قرابتهم بولاية العهد ، واحتفلوا لذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيرا ما عرضوا عزمهم في ذلك على اهل الراى ، كما فعل معاوية عندما اراد اخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، وكما فعل المنصور العباسى عندما اراد البيعة لابنه المهدي . واذا رآى الخليفة ان ليس من اولاده من هو اهل للخلافة بايع احد اخوته هو ، وشرط ان يخلفه فلان او فلان من اولاده ، كما فعل يزيد بن عبد الملك عندما كان ابنه الوليد صغيرا فبايع اخاه هشاما على ان يخلفه ابنه الوليد . وقد يبايع الخليفة لاحد اولاده ويذكر من تخلفه وبخيره في استخلافه ، كما فعل الرشيد ، حين كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل امره للمأمون ان شاء اقره ، وان شاء خلعه . وترتب على ذلك كثير من الضغائن والحزازات اذا لم ينفذ ذلك الشرط

### شارات الخلافة وعلاماتها:

اما شارات الخلافة فهي الخطبة والسكة والطراز . وذلك انهم كانوا يدعون للخليفة على المنابر في الصلاة . وينقشون اسم الخليفة على السكة اى العملة . واما الطراز فهو ان يرسم الخلفاء اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز انوابهم المعدة للباسهم

بحيث تصير الثياب الخليفة معلمة بذلك الطراز للدلالة على ان  
لابسها من اهل الدولة من الخليفة فمن دونه ، كما هي الحال في  
لباس الاجناد في ايامنا . واتخذ المسلمون نظام الطراز عندما  
اتصلوا بالفرس والبيزنطيين . واول من نقل الطراز من ملوك  
الاسلام ، عبد الملك بن مروان وذلك في امر القراطيس التي تحمل  
من مصر الى بلاد الدولة البيزنطية . ثم استفاض امر الطراز في  
العصر العباسي ، وصار للخلفاء في قصورهم دور تسمى دور  
الطراز تنسج فيها اثوابهم وعليها شارة الخلفاء وكذلك كانت  
الحال في دولة بنى امية بالاندلس والدولة الفاطمية بمصر . ولهذه  
الشارات كلها اهمية سياسية ، فانها تشعر بالطاعة والولاء  
للخليفة القائم بالامر . بحيث اذا ابطل متغلب على اقليم من  
الاقاليم الدعاء للخليفة على المنابر ، او اسقط اسمه من السكة او  
الطراز ، كان ذلك دليل التمرد والخروج من الطاعة . كما فعل  
المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان اخاه الامين نكث بيعته .

واما علامات الخلافة فهي اشياء من مخلفات النبي ( ص )  
احتفظ بها خلفاء بنى امية وبنى العباس ، على سبيل التبرك بها  
والاعتداد بها في اثبات حقهم في الخلافة . ومن ذلك برده صلى  
الله عليه وسلم وعصاه وخاتم صنع على مثال خاتمه الذي فقد .  
وكان لكل خليفة خاتم يختم به الرسائل التي تصدر عنه ، ومن  
ثم الديوان المعروف بديوان الخاتم ، وهو الذي تختم فيه الرسائل  
بخاتم الخليفة .

## الوزارة

اصلها في الاسلام :

تأتى الوزارة بعد الخلافة من حيث الاهمية السياسية والادارية في الدولة الاسلامية . والوزير وسيط بين الخليفة وبين الرعية . فهو من ناحية يعين الخليفة في تصريف شئون الدولة ومباشرة مهامها ، كما انه من ناحية اخرى يطلع الخليفة على احوال الرعية بوجه عام . ونظام الوزارة نظام شرقي قديم ولا سيما عند الفرس الساسانيين . واختلف اللغويون في لفظ « وزير » ، اهو عربى اصلا ام اعجمى ؟ ومهما يكن اصله فهو مذكور في القرآن ، وعرفه المسلمون واستعملوه بمعناه اجمالا في صدر الاسلام . قال ابن خلدون « فكان صلى الله عليه وسلم يشاور اصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك ابا بكر بخصوصيات اخرى ، حتى كان العرب الذين عرفوا الدولة واحوالها في ايام كسرى وقبصر والنجاشي يسمون ابا بكر وزيره ، وكذا عمر مع ابي بكر ، وعلى وعثمان مع عمر » .

واطرد الامر على ذلك زمن بنى امية مع تغيير يسير ، فاختار خلفاؤهم مستشارين يرجعون اليهم في مهام الدولة ، واكثر ما كان هؤلاء المستشارون من كتابهم اصحاب الرياسة في دواوينهم ، ومن هؤلاء سرجون الرومى زمن معاوية ، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعى زمن عبد الملك ، والابرش الكلبى زمن هشام ، وعبد الحميد بن يحيى زمن مروان بن محمد .

### الوزارة زمن الدولة العباسية :

وقام نظام الوزارة في الخلافة العباسية من اول ظهورها في سنة ١٣٢ الى انتهائها في بغداد سنة ٦٥٦ فكان اول وزرائها ابا سلعة خلال وآخرهم مؤيد الدين بن العلقمي . والنظر في ثبت وزراء الدولة العباسية يلحظ امرين اولهما انهم على العموم من الفرس ، فكان الفرس حرصوا على ان تكون الوزارة لهم كما تكون الخلافة للعباسيين ، اي للعرب . والامر الثاني ان الوزارة احتكرتها اسر معينة مددا مختلفة . كالبرامكة وآل خاقان وآل الفرات وآل وهب .

واختلفت احوال الوزراء باختلاف حال الخليفة ، ففي العصر العباسي الاول ( ١٣٢ - ٢٤٧ هـ ) عندما كان الخلفاء اقوياء يباشرون مهام الدولة بانفسهم ظل الوزراء منفذين لاوامر الخليفة ، فلما ولي الخلافة رجال من غير طراز المنصور والرشيد والمامون عظم نفوذ الوزراء حتى صار الخليفة يفوض الى وزيره النظر في شئون الدولة عامة .. ومن هنا جاء تقسيم الفقهاء الوزارة الى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض .

### اتحطاط شأن الوزارة في الدولة العباسية :

وعلى كل حال بقيت الوزارة على رسمها وتقاليدها منذ نشأتها مع الدولة العباسية حتى سنة ٣٢٤ هـ ، عندما قلد الخليفة الراضي محمد بن رائق امارة الجيش وجعله أمير الامراء ، وفوض اليه السلطة التامة على دواوين العراق وامور

خراجة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر . عند ذلك انحطت مرتبة الوزير ، وقبضت يده عن التصرف في أمور الدولة ، وأصبح أشبه بكاتم سر خاص للخليفة ، على حين صارت السلطة كلها في يد أمير الأمراء ، مثل ابن رائق نفسه ، وأخلافه في هذه الوظيفة من الزعماء ، ولا سيما بنو بويه . فلما جاء الأتراك السلاجقة تلقب زعمائهم بلقب سلطان بدلا من أمير الأمراء ، واختاروا لانفسهم وزراء خواصا بهم ، كما فعل بنو بويه قبلهم . وظلت الحال على ذلك حتى سقوط بغداد . وانتحل وزراء الخلفاء في العهد الأخير من حياة الدولة القابا أخرى غير لقب الوزارة ، مثل رئيس الرؤساء وهكذا .

#### رسوم الوزارة وتقاليدها :

جرى اختيار الوزير عادة من طبقة الكتاب الذين يعملون في الديوان ، وذلك في القرنين الثاني والثالث ، ثم صار الوزراء من قادة الجند عندما تعاضم نفوذ الجيش في الدولة ، ولم يتولها غير القادة العسكريين سوى قلة من القضاة أو خواص الناس . ومؤهلات الوزير ان يكون بليغ العبارة ، حسن التوقيع على ما يعرض عليه من الأوراق ، عالما بالحساب وأمور الخراج وطرق استيفائه ، هارفا بأحوال الملوك وآدابهم ، وعلى نصيب موفور من الصفات التي تحببه الى الجمهور ، من سخاء وظرف وحسن ادب .

فاذا وقع اختيار الخليفة على شخص يعينه للوزارة ركب الوزير من داره الى دار الخلافة ، وبين يديه الحجاب والقادة



والعلماء، ثم خلع عليه الخليفة خلع الوزارة التي يلبسها في الحفلات الرسمية ، وهي عبارة عن القباء والسيف والمنطقة وعمامة سوداء ، ثم يسير الوزير بعد ذلك الى دار الوزارة في موكب حافل من ارباب الدولة ، ثم يحضر الناس على طبقاتهم للسلام والتهنئة .

ويدل تاريخ الوزراء العباسيين على ان العمل اليومي كان شاقا مجهدا لصاحب الوزارة . يقول الصابي عن الوزير ابن الفرات ( سنة ٣٠٠ هـ ٩١٢ م ) « كان من رسم الوزير ان يفسدو اليه الكتاب فيوافقهم على الاعمال ويسلم الي كل منهم ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به . ثم يروحون اليه بما يعملونه من اعمالهم فيوافقهم عليها ، وعلى ما اخرجوه من الخروج وقضوه من الامور ، ويقومون الي بعض من الليل . واذا خف العمل ، وقد عرضت عليه في اثنائه الكذب بالنفقات والتسبيبات والحسابات نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه » . ومثل ذلك يروى عن ابن العميد وزير بنى بويه ، ونظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، ويذهب الوزير الى دار الخلافة في ايام معينة من كل اسبوع ، للمثول بين يدي الخليفة واطلاعه على شئون الدولة وتلقى اوامره واشاراته .

## القضاء

احتكم العرب في الجاهلية الى رجال منهم عرفوا باصالة الراي وكثرة التجارب ، وكانوا يسمونهم الحكام امثال عامر بن الظرب

العدواني ، وسبيع التغلبي . ونشأ القضاء في الاسلام بعد ان هاجر الرسول الى المدينة ، واخذ ينظم الجماعة الاسلامية بها ، وفي الكتاب الذي كتبه الرسول على اثر استقراره بالمدينة نص على مايتبع في الخصومات والمنازعات التي تكون بين افراد الجماعة وهو قوله : « وما كان من حدث يخاف اشتجاره ... فان مرده الى الله ورسوله » . ونزلت آيات مدنية تأمره بالحكم بين الناس المتخاصمين من اهل الكتاب اذا احتكموا اليه ، فكان عليه السلام يلى القضاء في المدينة ، واكثر اقضيته ان يسأل عن الحكم فيجيب ، فهي اشبه بالفتاوى منها بالحكم القضائي المعروف .

ولما انتشر الاسلام في شبه جزيرة العرب في زمنه عليه السلام عهد الى رجال من الصحابة بالقضاء في الاقاليم النائية بحسب اجتهادهم . واتبع ابوبكر سنة الرسول ، فاستقضى عمر معه في المدينة ، وترك الفصل في الخصومات في الامصار للعمال نيابة عنه .

#### عمر بن الخطاب ونظام القضاء :

وانما يتحدد نظام القضاء ويتخصص من حيث هو نظام من نظم الدولة ، في زمن عمر بن الخطاب . فانه باتساع الدولة أصبح يتعذر على الخليفة او ممثله من العمال ان يجلس للفصل في الخصومات ، فولى عمر القضاء رجلا اختصوا به . وهو اول من فعل ذلك ضمانا للعدالة ، وفصلا للسلطة القضائية عن السلطة التنفيذية كما نقول الآن . وممن استقضاهم عمر على

الامصار أبو الدرداء بالمدينة نفسها ، وشريح الكندي بالبصرة ،  
وأبو موسى الأشعري بالكوفة . وكتب الى عمرو بن العاص ان  
يولى على قضاء مصر عثمان بن قيس بن أبي العاص ، ولم يكتف  
عمر بذلك بل كتب فيما يروى الى أبي موسى الأشعري كتابا في  
معنى القضاء وطرقه . وهذا الكتاب يعتبر دستور القضاء  
الاسلامي وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب  
أمير المؤمنين الى عبدالله بن قيس : سلام عليك ، اما بعد . فان  
القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك ،  
فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في مجلسك  
ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يياس ضعيف من  
عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح  
جائز بين الناس الا صلحا احل حراما او حرم حلالا . ولا يمنعك  
قضاء قضيته بالامس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك ان  
ترجع الى الحق ، فان الحق لا يبطله شيء . واعلم ان مراجعة الحق  
خير من التماذي في الباطل . الفهم ، الفهم فيما يتلجلج في صدرك  
مما ليس فيه قرآن ولا سنة . واعرف الاشباه والامثال ، ثم  
قس الامور عند ذلك ، ثم اعمد لاجبها الى الله واشبهها بالحق  
فيما ترى . اجعل لمن ادعى حقا غائبا امدا ينتهي اليه ، فان احضر  
بينته اخذ بحقه ، والا استحلت عليه القضاء . والمسلمون  
عدول في الشهادة الا مجلودا في حد ، او مجربا عليه شهادة

زور ، أو ظنينا في ولاء أو قرابة . ان الله تولى منكم السرائر  
ودرا عنكم بالبينات .

اياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم في مواطن الحق التي  
يوجب الله بها الاجر ، ويحسن الذخر ، فانه من صلحت سريره  
فيما بينه وبين الله اصلح الله ما بينه وبين الناس . ومن تزين  
للدنيا بغير ما يعلم الله منه شأنه الله ، والسلام » .

#### القضاء الى ظهور المذاهب الاربعة .

تولى القضاة مناصبهم في ذلك العصر تارة من قبل الخلفاء ، وتارة من  
قبل امراء الامصار ، وفي كلتا الحالتين روعيت في اختيار القاضى  
صفات يجمعها قول عمر بن عبد العزيز « اذا كان في القاضى  
خمس خصال فقد كمل : علم ما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ،  
وحلم عن الخصم ، واقتداء بالائمة ، ومشاورة اهل الراى » .  
وجرى القضاة على ان يعملوا بالنصوص فيمائنص عليه ، او الراى  
الذى هو اقرب الى تلك النصوص ، فاذا لم يظهر لهم وجه  
الصواب في قضية استشاروا من معهم في بلدهم من المفتين ،  
وربما راسلوا الخلفاء واخذوا رأيهم في بعض المسائل .

واختص القضاة في ذلك العصر بالفصل في الخصومات المدنية  
والاحوال الشخصية التى هى اختصاص المحاكم الشرعية فى  
زماننا . ثم اضيف الى اختصاصهم هذا مع الزمن اموال  
المحجور عليهم ، والاقواف ، وتزويج الايامى عند فقر الاولياء .  
اما النظر فى الجرائم واقامة الحدود فلم تدخل فى اختصاصهم .

وبظهور نوابغ الأئمة ابتداء من القرن الثاني الهجري وتدوين مذاهبهم وانتشارها اخذ القضاة يتقيدون في قضائهم بمذهب مشهور ، فانتشر مذهب أبي حنيفة في العراق وخراسان ، والمذهب الشافعي في مصر والشام ، والمالكي في الحجاز والمغرب والاندلس ، وصار القضاء في كل قطر يجري على المذهب الذي ساد فيه .

ومع ما للقضاء من جليل الشأن وللقضاة من عظيم المكانة ، امتنع كثير من اجلاء العلماء من تقلد القضاء اذا ندبوا له ، وذلك لخوفهم من ضغط بعض ذوى السلطان عليهم ، ومن المغريات التي تكتنف القاضي في المحيط الذي يعيش فيه ، وربما نالهم بعض الادي من جراء امتناعهم عن تولى القضاء .

#### النظر في المظالم والحسبة والشرطة :

هذه كلها من ملحقات القضاء . اما النظر في المظالم فيشبه محكمة النقض في زماننا من بعض الوجوه . والغرض منه الاستماع الى ظلمات الناس من القضاة او من غيرهم . وافرد خلفاء بنى أمية وبنى العباس الى زمن المهدي بالله يوما خاصا للنظر في ظلمات المتظلمين . فلما ضعفت الخلافة وصار الامر الى المتغلبين من الملوك والسلاطين صار هؤلاء يجلسون لرد المظالم .

وعنى الخلفاء والامراء والسلاطين عناية بالغة بالنظر في مظالم الرعية وبدلوا الجهد في رفعها ولو كان التظلم منهم او من اولادهم ، وفي التاريخ الاسلامي شواهد كثيرة على ذلك .

واما الحسبة فنظام اساسه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

وصاحبها يقال له المحتسب . وعمله ان يبحث عن المنكرات، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدن ، مثل المنع من المضايقة في الطرق ، ومنع الحمالين واصحاب السفن من الاكثار في الاحمال ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، والتنبيه على المعلمين اذا بالغوا في عقوبة الصبيان ، والنظر في الغش والتدليس في المعاملات ، واختبار المكاييل والموازين ، مما يعد في زماننا من واجبات المجالس البلدية .

واما الشرطة فهي في الاصل من توابع القضاء لان المراد بها هو تنفيذ احكام القضاة ، او تطبيق العقوبات الزاجرة بعد ثبوت الجريمة ، واقامة التعزير والتاديب في الذين يخالفون القانون مخالفة صغيرة . فالشرطة بذلك خادمة للقضاء تساعد القاضي على اثبات الذنب على مرتكبه . وابتداء من القرن الرابع صار النظر في الجرائم واقامة حدودها ومباشرة القمع والقصاص لصاحب الشرطة ، وانفصلت عن القضاء وصارت من الخطط السلطانية يكون الحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الاحكام الشرعية .

## البريد

البريد نظام قديم له شأن عند الرومانيين والفرس والبيزنطيين واول من اتخذ نظام البريد في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ، اى بعد ان تطلبت سعة الدولة الاسلامية سرعة نقل الاخبار بين الخليفة وعماله في مختلف الاقاليم . ثم تطورت ناحية من نظام

البريد الى جاسوسية رسمية يشبهها قلم المخابرات في وزارات  
الحربية الحديثة ، واسم رئيس هذا النظام « صاحب البريد »  
وعمله تنظيم « ديوان البريد » وهو واسطة العلاقة بين الخليفة او  
السلطان وبين الولاة . ينقل اوامر الخليفة او السلطان الى الولاة ،  
كما ينقل اخبار الولاة الى الخلفاء والسلاطين . وكان اصحاب البريد  
فوق ذلك يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من  
امور الدولة .

وعين خلفاء بنى امية وبنى العباس والملوك والسلاطين ثقاتهم  
على ديوان البريد ، وباشره بعضهم بنفسه مبالغاً في الاحتياط  
والاحتراس . وكان ابو جعفر المنصور يقول « ما احوجنى الى ان  
يكون على بابى اربعة نفر ، لا يكون على بابى اعف منهم ، وهم اركان  
الدولة ، ولا يصلح الملك الا بهم . اما احدهم فقاوض لاتأخذه في  
الله لومة لائم ، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي  
والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية » ثم عض على  
اصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة « آه .. آه » قبل  
ما هو بالامر المؤمنين ؟ » قال « صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء  
على الصحة » .

### طرق البريد :

وتفرعت من مركز الخلافة طرق سابلة للبريد، كما كانت الطرق  
الرومانية القديمة تتفرع من رومية . وفي كل طريق محطات  
ومنازل فيها افراس وهجين ، فيستبدل عمال البريد بدوابهم

دواب مستريحة في كل محطة او منزل . وبلغ عدد طرق البريد في الدولة العباسية ٩٣٠ طريقا ، ونفقات الدواب واثمانها ورجالها ١٥٩١٠٠ دينار ، وانفق بنو امية على البريد اكثر من هذا القدر من المال .

### طرق التخابر بالبريد :

كانت الرسائل تنقل في خرائط وهي اكياس من الجلد تختتم بخاتم المرسل ، ويحملها عمال البريد على الدواب او في البحارحتى يؤدوها الى المرسل اليه . والسعاة كذلك من رجال البريد ، وهم رجال خفاف الحركة تعودوا الجرى والصبر على ان يطووا ثلاث مراحل في مرحلة واحدة .

ومن وسائل المخابرة حمام الزاجل ، والتخابر به معروف عند الامم القديمة ، وكذلك المخابرة بالنسيران توقد على المرتفعات ورددوس الجبال .

## الجيش

### تمهيد :

استفاد العربي من بيئته صفات الشجاعة الفردية وقوة الحس ونشاط الجسم والصبر على الجوع والظما وشدة الحر والبرد ، فاذا نشبت حروب بين قبيلة واخرى ، او اذا غزا قوم قوما آخرين ، وجد العربي القادر على القتال ميدانا لاظهار صفاته هذه في خدمة قبيلته او قومه . على ان قتال العرب في حروبهم



وغزواتهم في العصور القديمة كان ادنى الى السذاجة فيبدأون  
المعركة عادة بالمبارزة الفردية ، تكون بين بطلين من ابطال القبيلتين  
ثم يكون الالتحام ، فيكروون على العدو فاذا آتسوا منه قوة او  
من انفسهم ضعفا ارتدوا ، ثم يكروون وهكذا حتى تتم المعركة  
بنصر احد الجانبين . وهذا هو الاسلوب المعروف بالكر والفر ،  
وهو قتال اهل البداوة على العموم . واعتاد العرب ان يخرجوا  
للحرب معهم ذراريهم ونساءهم واموالهم ويجعلون كل ذلك  
وراء صفوفهم ليكون ذلك ادعى الى الاستماتة والانفة من الهزيمة ،  
محافظة على الاعراض والاموال . هكذا كان شأنهم في حروبهم  
المعروفة « بايام العرب » .

على ان هذه الحال تغيرت اذ فرض الاسلام الجهاد على المؤمنين  
دفاعا عن الدين والنفس والوطن والمال ، ووعد المجاهدين احدى  
الحسنتين ، اما النصر والعزة في الدنيا او الشهادة ودخول الجنة  
في الآخرة . ومن ناحية اخرى حل النظام في القتال محل السذاجة  
الحربية القديمة ، فاستعرض الرسول الجيش قبل المعركة ،  
وسوى الصفوف ، ووضع الخطة العامة التي يجرى عليها  
القتال ، واخذ الجند باتباعها . ثم ان اسلوب القتال تغير من  
الكر والفر الى قتال الصف او الزحف . وهو الذي وردت فيه  
الآية « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان  
مرصوص » وعملا بهذه التعليمات سار المجاهدون الى لقاء  
العدو صفوفها متراصة مستوية كصفوف المصلين في الصلاة ،

منقسمين الى قلب وميمنة وميسرة وساقة ، وكل قسم عدة كراديس ، وكل كردوس يتألف من صفوف رجالها من جنس واحد ومتعارفون فيما بينهم . وبهذا النظام الذي اخذه المسلمون عن الدولة البيزنطية قاتل خالد بن الوليد جيش البيزنطيين في وقعة اليرموك ، وقاتل سعد بن أبي وقاص جيش الفرس في القادسية . واستمر القتال يتراوح بين أسلوبى الصف والتعبئة الى اواخر العصر الاموى ، حين ابطل مروان بن محمد سنة ١٢٨ هـ قتال الصف ، وعُدل عنه الى قتال التعبئة . وظل نظام الجيوش على ذلك في الدولة العباسية ، مع تعديلات في اشكال التعبئة .

#### المسكرات والاجناد والثغور والربط :

وعرف العرب كيف يحتفظون بالفتوح التى تمت لهم على قلة عددهم وكثرة اعدائهم المحيطين بهم ، ومرجع ذلك الى خطتهم فى اتخاذ معسكرات يقيمونها فى المواقع ذوات الاهمية الاستراتيجية ، ويشحنونها بالعتاد الحربى والجند المستعدين للحرب ، ومن هذه المعسكرات : البصرة والكوفة وواسط فى العراق ، واجناد الشام : حمص وقنيسرين ودمشق ، والاردن وفلسطين ، وهى التى اطلق عليها المسلمون ام اجناد الشام ، والفسطاط والاسكندرية فى مصر ، وبرقة وطرابلس والقيروان فى المغرب .

وعنى المسلمون بتحسين اطراف فتوحهم مما يلى ارض العدو ، من اطراف الصين الى ساحل المحيط الاطلسى فاقاموا الحصون

والقلاع والربط عند كل مكان يخشى ان ينفذ منه العدو ، وسموا هذه بالثغور وشحنوها بالرجال والعتاد ووسعوا على اهلها الارزاق حتى يتفرغوا لحراسة حدود الدولة . واهم مناطق الثغور الاسلامية منطقتان : الاولى منطقة ثغور الشام والجزيرة مما يجاور الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، وهى منطقة كان الغزو فيها يكاد لا ينقطع فى سنة من السنين صيفا او شتاء زمن الامويين والعباسيين . والمنطقة الاخرى هى شمال الاندلس عند اطراف الدولة الفرنجية ( فرنسا ) واسبان الشمال . وظلت هذه الثغور كلها منيعة حتى اذا ضعفت الخلافة وذهبت وحدة الدولة انثلمت الثغور ونفذ منها العدو الى الاراضى الاسلامية ابان الحروب الصليبية فى الشرق والغرب على السواء .

### السلح :

سلح العربى فى الاصل القوس والرمح والسيف ، فالقوس للرمى بالسهم اول القتال ، فاذا تدانت الصفوف بدا التطاحن بالرمح فاذا وقع الالتحام كان التضارب بالسيوف وهى أشهرها عندهم . ومن الاسلحة الوقائية عند العرب الخوذة والبيضة لوقاية الراس والعنق ، والدرع لوقاية الجذع والاطراف ، والترس لانقاء ضربات الخصم . واستعمل العرب الجمل والحصان فى حروبهم ، فالجمل اداة انتقالهم فى الصحارى ، والحصان وسيلة السرعة فى السهول ، حينما كانت السرعة الكبيرة مطلوبة فى الحرب .

ولم يعرف العرب غير ذلك اول الامر ، غير انهم اخذوا عن البيزنطيين آلات المنجنيق والدبابة والكبش ، وكلها لدك الحصون والاسوار ، كما اخذوا عنهم النار الاغريقية . واقتبس العرب من الفرس انشاء الخنادق حول المدن والمعسكرات واول خندق حفره المسلمون هو الذى احتفروه الرسول حول المدينة باشارة سلمان الفارسى ، فى الغزوة المعروفة باسم غزوة الخندق . ويؤخذ من كلام لابن خلدون ان عرب المغرب اخترعوا البارود واستخدموه فى حروبهم سنة ٦٧٢ هـ ( ١٢٧٣ م ) اى قبل ان تعرفه اوروبا بنحو نصف قرن من الزمان .

#### رواتب الجند والاقطاع العسكرى :

لم يكن للجند عطاء معين على عهد الرسول ، بل قسمت الغنائم خمسة اقسام ، واحد منها للرسول واربعة الاخماس تقسم بالسوية بين رجال الجيش . وكذلك كانت الحال زمن ابي بكر . فلما جاء عمر لم يأخذ بمبدأ التسوية فى العطاء ، بل وضع للجند ديوانا رتبهم فيه بحسب قبائلهم وميز بينهم فى العطاء بحسب بلائهم وسابقتهم ، فاعطى للمهاجرين والانصار الذين شهدوا غزوة بدر ٥٠٠٠ درهم فى السنة اى نحو ٢٠٠ جنية ذهباً . وكان عطاء الجندى العادى نحو ٦٠٠ درهم فى السنة اى نحو خمسة جنيهاً ذهباً فى كل شهر ، وهو عطاء سخى بالنسبة الى عطاء الجندى البيزنطى وقتذاك . فلما جاء الامويون زادوا فى عطاء الجند تالفا للقبائل والاحزاب . اما

العباسيون فلضخامة جيوشهم وتعويلهم على الفرس والترك دون العرب اضطروا الى نقص العطاء عما كان عليه من قبل . فلما ذهبت وحدة الدولة بتغلب المتقلبين على الاقاليم والنواحي اضطر الخليفة الى ان يعهد الى كل متقلب جباية اموال ناحيته فيطرح منها نفقات الادارة واعطيات الجند ويرسل الى بغداد كل سنة مبلغا معيناً من المال . وجرى بنو بويه على هذا النهج ، ثم جاء السلاجقة الاتراك فوزعوا الاراضي بين امراء الاسرة ، واصبح كل امير سلجوقي اميرا اقطاعيا في ناحيته ، وبذلك اصبح الشرق الاسلامي شبيها بالغرب الاوروبي من هذه الوجة ، واستمر طوال العصر المغولي والتركي حتى اوائل القرن الماضي .

#### رتب الجيش ، وعرضه ، ولواؤه وموسيقاه :

وفي العصر العباسي صار الجند رتبا ، فصار على كل عشرة رجال عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء بجنودهم ( اى ١٠٠ رجل ) تقيب ، وعلى كل عشرة تقيب بجنودهم ( ١٠٠٠ رجل ) قائد ، وعلى كل عشرة قواد بجنودهم ( ١٠٠٠٠ رجل ) امير ، وربما كان الطراز الذى تطرز به ملابسهم مبينا به رتبة لابسه على نحو ما هو حاصل فى ايامنا .

وجرت العادة منذ ايام الرسول عليه السلام على استعراض الجنوش قبل سيرها الى الحرب ، فاستعرض الرسول جيشه قبيل غزوة بدر ، وعنى بنو أمية وبنو العباس بالعرض ، وعينوا له يوما سموه « يوم العرض » يجلس فيه الخليفة وعليه درعه وخوذته

وسلاحه ، ويمر به الجيش على رتبته . فاذا انتهى العرض عقد الخليفة اللواء لأمير الجيش عند مسيره للحرب ، ويدعوله بالنصر وهو يسلمه اياه . ومن دون اللواء كان للجيش رايات واعلام وبنود ينشرها اذا سار للقتال . وعنى الخلفاء الامويون والعباسيون كذلك بفرقة الموسيقى للجيش ، وهى مؤلفة عادة من الطبول والابواق ، فاذا ادرك الجند التعب من طول السير دقوا الطبول ونفخوا فى الابواق ، فيسرى ذلك عنهم ، كما انهم يفعلون ذلك اثناء القتال فيدكى من حماستهم .

## الاسطول

قيام البحرية الاسلامية :

لم يكن ركوب البحر والايغال فيه من شأن العرب اهل البداوة والصحراء ، وظلوا على ذلك حتى زمن الفتوح الكبرى ، فلما استقروا فى الشام ومصر ، ادركوا خطر اساطيل البيزنطيين عليهم فاخذوا يعملون على ان تكون لهم قوة بحرية يدفعون بها عدوان الأعداء من ناحية البحر . واول من عمل على ذلك معاوية بن أبى سفيان مدة ولايته الشام لعثمان بن عفان ، فانه استأذن الخليفة فى غزو البحر فأذن له فانشا اسطولا ركبه فى سنة ٢٨ ، وافتتح به جزيرة قبرص صلحا . وخذت مصر حذو الشام واشتركت اساطيل الاقليمين فى غزو القسطنطينية .

واستخدم العرب عمال القبط والشاميين والبيزنطيين التابعين لهم فى صناعة السفن وتجهيزها واجرائها ، وشحنوها بالمقاتلة

من العرب ثم صار رجال الاسطول كلهم من المسلمين وسمى العرب مجموعة السفن الفازية في البحر « اسطولا » وهو لفظ يوناني الاصل عربوه واستعملوه .

ثم اكثروا من انشاء دور لصناعة السفن في سواحل الشام ومصر وافريقية ، ومن كلمة « دار صناعة » العربية اخذت اوربا كلمة ( ARSENAL ) وهي تحريف للفظ العربي ثم حرف اهل الشام ومصر هذا اللفظ الاوربي العربي الاصل فقالوا ترسانة . وبلغت البحرية الاسلامية مبلغا عظيما من القوة في البحر المتوسط في القرون الاربعة الهجرية الاولى ، فغزت اساطيل المسلمين قبرص ورودرس واقريطش ثم غزت اساطيل الدولة الاموية الاندلسية على عهد عبد الرحمن الناصر واساطيل الدولة الفاطمية بافريقية صقلية ومالطة وجنوب ايطاليا وسردانية وجزائر البليار حتى اصبح البحر المتوسط في القرن العاشر الميلادي بحيرة عربية ، وانحسرت عنه اساطيل البيزنطيين وغيرهم الى السواحل الشمالية لابتريحها سفينة منها الا بحساب كبير .

فلما ذهبت ربح الدولة الاموية بالاندلس اوائل القرن الخامس الهجري ، وضعف امر الدولة الفاطمية في مصر كذلك ، ضعفت البحرية الاسلامية وانحسرت اساطيلها عن معظم جزر البحر المتوسط ، فتجرات الاساطيل الاوربية على الظهور ، وغزت السواحل الاسلامية نفسها ابان الحرب الصليبية .

نعم ان اهل المغرب حافظوا على العناية بأساطيلهم زمن الدولة  
الموحدية وبنى حفص بتونس وبنى مرين بمراكش ، لكن بذهاب  
هذه الدول ذهبت قوة البحرية الاسلامية في غرب البحر  
المتوسط ، وانفسح المجال امام البحرية الاسبانية والبرتغالية  
ابان الاستكشافات الجغرافية الكبرى .

وبنى المسلمون سفنهم على امثلة السفن البيزنطية والرومانية  
بين كبيرة وصغيرة وشحنوها بالمقاتلة وبآلات الحرب من مجانيق  
ودبابات وادوات الرمي بالنار الاغريقية .

وكان للاسطول قائد يدبر امر الحرب والقتال في البحر ،  
ورئيس يدبر امر اجراء السفن وارسائها ، وثوأتية يعملون بأمر  
الرئيس . فاذا اجتمعت جملة اساطيل لحرب او غرض آخر  
ولوا عليها كبيرا من رجال الدولة يسمونه « امير البحر » ومن  
هذا الاسم جاء لفظ ( اميرال ) الاوروبى .

وبنى المسلمون في البحر الاحمر والمحيط الهندى سفنا  
واساطيل اكثرماكانت للتجارة مع ممالك الشرق الاقصى ولاسيما  
الهند والصين وجزائر الهند الشرقية ومع سواحل افريقية  
الشرقية . وكانت لها قواعد بحرية مثل القلزم ( السويس )  
وعدن وسوفالا والبصرة وسيراف على ان معظم هذه السفن  
لم تكن للدولة ، بل لافراد من التجار وكبار الممولين في تلك  
الجهات .



## حكومة الولايات

### الولايات على عهد الخلفاء الراشدين :

لم يتقرر نظام الولاية على الاقاليم الا زمن عمر بن الخطاب ، وذلك عندما كثرت الفتوح واتسعت الدولة الاسلامية ، فولى عمر على الاقاليم امرء او ولاة ينوبون عنه في الاشراف عليها وتدبير امورها . وكان عمال الاقاليم زمن الخلفاء الراشدين على وجه التعميم هم قادة الجيوش الذين افتتحوا تلك الاقاليم . وعملهم في اغلب الاحوال مراقبة سير الامور واقامة الصلاة وجباية الخراج . واشتد الخليفة عمر في مراقبة الولاة ، وحاسبهم عند انتهاء مدة ولايتهم ، وربما قاسم الوالى ماله اذا ثبت عنده انه استغل نفوذه في كسب ذلك المال .

### ولايات الدولة الاسلامية على عهد الامويين والعباسيين :

اشتملت الدولة الاسلامية على ست ولايات كبيرة زمن الامويين وهى ( ١ ) الحجاز ( ٢ ) العراق والمشرق ( ٣ ) الجزيرة وارمينية ( ٤ ) الشام ( ٥ ) مصر والمغرب ( ٦ ) الاندلس .

اما زمن الدولة العباسية ، فصارت الدولة اربع عشرة ولاية ، وهى ( ١ ) الحجاز ( ٢ ) العراق ( ٣ ) الجزيرة ( ٤ ) الشام ( ٥ ) مصر ( ٦ ) المغرب ( ٧ ) خراسان وما وراء النهر ( ٨ ) الدليم ( ٩ ) اقليم الرحاب وهو اران وارمينية واذربيجان ( ١٠ ) اقليم الجبال ( ١١ ) خوزستان ( ١٢ ) اقليم فارس

( ١٣ ) كرمان ( ١٤ ) السند . وانقسمت كل ولاية الى عدد من الكور واختلف هذا العدد قلة او كثرة باختلاف الاقاليم .

### حكومة الولايات على عهد الأمويين والعباسيين :

وتنوعت ولاية الاقليم في الدولة الاسلامية نوعين :

( ١ ) ولاية عامة وهي التي يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الكفاء ، فيفوض اليه ولاية الاقليم نيابة عنه فيقيم للمسلمين صلاتهم ، ويقود الجند او يختار من رجاله قائدا للجيش ، ويعين جانبا للخراج بصرف منه حاجات الادارة واعطيات الجند ، ويرسل ما يبقى الى الخليفة . ويعين من شاء للقضاء بين الناس .

وتصرف الولاة الذين كانت اليهم هذه النيابة العامة في كل شيء . وظهر ما كان الاستقلال الادارى في العراق في عهد زياد ابن ابي سفيان وابنه عبيد الله ، والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد القسرى . وكان الحجاج اكثرهم استقلالا للثقة التي حازها عند الخليفة عبد الملك وابنه الوليد . ومثل ذلك كانت اماره عمرو بن العاص الثانية على مصر ، وامارة عبد العزيز ابن مروان على مصر كذلك .

ومع قيام اولئك الولاة بحل المشاكل والمنازعات في حواضر الامارات ، كان لكل ذى ظلامة ان يرفعها الى الخليفة بعد ذلك فيقضى فيها . وضيق عمر بن عبد العزيز على الولاة بعض

التضييق ، فحتم عليهم الا ينفذوا حدا من الحدود الشرعية من قتل او قطع الا اذا عرض عليه وامر بتنفيذه .

( ٢ ) اما الامارة الخاصة فان يقصر الوالى على الصلاة والحرب والقضاء ، ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع اليه راسا . واغلب ولاة الاقاليم فى العصر العباسى الاول من هذا الصنف ، لاضطلاع الخلفاء العباسيين الاوائل بأمور الدولة بأنفسهم ، ولذلك كثر عدد عمال الاقاليم فى ذلك العصر ، وقصرت مدد حكمهم بالقياس الى ما كانت عليه الحال فى الدولة الاموية .

فلما ذهبت وحدة الدولة العباسية ابتداء من اوائل القرن الثالث الهجرى ، وتغلب بعض الولاة على اقاليمهم بالقوة ، واقاموا بها دولا شبه مستقلة ، من طاهرية وسامانية وبويهية وطولونية واخشيدية ، ظهر نوع جديد من الولاية العامة على الاقاليم وهو الذى يسميه الفقهاء « ولاية الاستيلاء » ، لان الامير استولى بالقوة على الامارة ، ولا يسع الخليفة لضعفه الا ان يقر ما حصل ويبعث الى الامير المتغلب بعهدده ، وبتشببت الولاية فى أسرته من بعده .

## الفضل الثاني

### الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها

#### اصولها

انشأ المسلمون حضارة جديدة هي ابهى حضارات العالم في العصور الوسطى ، وهذه الحضارة الإسلامية التي بلغت اوج كمالها في القرنين الثالث والرابع الهجريين ( التاسع والعاشر الميلاديين ) هي التي جعلت العصور الوسطى ، لا عصورا مظلمة كما سماها بعض المؤرخين ، بل عصورا مضيئة بالقياس الى ما سبقها في غرب اوروبا منذ اواخر ايام الدولة الرومانية القديمة الى اواخر القرن العاشر الميلادى . ومن الواضح ان المجال الذي نهضت فيه الحضارة الإسلامية هو موطن معظم الحضارات في الشرق القديم ، فلانما من حدوث تجاوب بين القديم والجديد في مثل هذه الحال . ومع ان المسلمين اخذوا من الحضارات التي سبقتهم او عاصرتهم شيئا غير قليل ، فانهم تناولوا ما اخذوه من هذه الحضارات بالتغيير والتبديل والحذف والاضافة . ونجم عن هذا كله حضارة جديدة قامت ، لها طابعها الخاص ، هو طابع الاسلام واللغة العربية .

ويمكن ارجاع الحضارة الاسلامية الى اصول أربعة استمد المسلمون من كل منها قدرا واضحا ، وهي ( ١ ) الاصل الاسلامي ( ٢ ) الاصل العربي ( ٣ ) الاصل الفارسي ( ٤ ) الاصل اليوناني .

### ١ - الاسلام :

الاسلام هو الدين الرسمي للدولة الاسلامية ، وهو عقيدة السواد الاعظم من سكانها ، وهو قسمان : عقائد واعمال . فالعقائد تنتظم الايمان بالله واحد هو رب العالمين والايمان بالبعث بعد الموت وبالثواب والعقاب في الدار الآخرة . واما الاعمال فمنها اعمال تنزل منزلة العقائد ، وهي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومنها أعمال تتصل بالاخلاق وهي التحلى بمكارم الاخلاق ، وآداب اللياقة ، والوفاء بالعهد ، والصبر في الشدائد ، والعدل مع من احببت او كرهت ، وعفة النفس ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومنها أعمال هي عبارة عن تطبيق ماجاء به الشرع خاصة بالاسرة ، او المعاملات التي تجرى بين الناس ، والجنايات التي تقع في المجتمع ، وشئون السلم والحرب ... الخ .

وللإسلام اثر بالغ في الحياة الفكرية للمسلمين ، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب علوم التفسير والحديث والفقہ ، والسير والمغازي او علم التاريخ . والاسلام يحث على النظر والتفكير في الكون الذي نعيش فيه ، وفي ظواهره المختلفة ، فأدى ذلك الى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها ، وهي

الجغرافيا والكيمياء والفيزياء ( الطبيعة ) والفلك والطب والرياضيات . فانت ترى ان الاسلام هو اليسوع الاول والاعظم للثقافة الاسلامية ، وهو الذى انطبعت حياة المسلمين بطابعه ، سواء فى ذلك نظمهم العامة والسياسية والادارية والمالية واحوالهم الخاصة والعامة وكذلك فنونهم وآدابهم .

## ٢ - الثقافة العربية :

ياتى بعد الاسلام ينبوع ثان اقل منه شأنًا بطبيعة الحال ، ولكنه ذو اثر كبير فى بناء الحضارة الاسلامية . ذلك هو الثقافة العربية ، اذ المعروف ان العرب هم العنصر الفعال فى الدولة الاسلامية ولاسيما فى صدر الاسلام . ولهؤلاء العرب ثقافة انفردوا بها ، ومثال ذلك ان حرصهم على انسابهم ادى الى قيام علم النسب لمعرفة انساب القبائل والافراد ، وظهرت فى الانساب كتب كثيرة لابن الكلبي وابن حزم وغيرهما . وللعرب فى الجاهلية والاسلام شعراء هم حملة لواء الشعر العربى على العموم ، وهذا الشعر فوق كونه الفن العربى الممتاز ، هو كذلك ديوان اخبار العرب وسجل احداثهم وكنز لغتهم وبلاغتهم . ومن اجل ذلك جمعه اهل الادب وشرحوه لبراعته الفنية من جهة ، وللإستشهاد به فى تحديد معانى الالفاظ الغامضة ، فضلا عن جلاء الحوادث التاريخية من جهة اخرى . وللعرب حظ موفور من الامثال والكلم الجامعة ، يوردونها فى المناسبات . وعنى العلماء بجمع هذه الامثال العربية فى كتب خاصة ، ومنها كتاب الامثال للميداني ،

كما عثبت طائفة اخرى من العلماء بأيام العرب في الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الاسلام ، وفتوحهم العظيمة بعد ان اضحووا مسلمين .  
واسهم العرب في بناء الحضارة الاسلامية بالآداب والاعادات التي اتصفوا بها ، من حيث الشجاعة ، والانفة من الضيم ، وحفظ الجوار ، واحترام المرأة ، واکرام الضيف ، والولع بالشعر وفصاحة اللسان . وشاعت هذه الآداب في المجتمع الاسلامى ، حتى بعد ذهاب نفوذ العرب السياسى ، وعنهم انتقلت الى اوروبا في اعقاب الحرب الصليبية ، فامتزجت بالنظام المعروف في اوروبا بالفروسية .

### ٣ - الثقافة الفارسية :

وهناك ينبوع ثالث عظيم استمدت منه الحضارة الاسلامية ، وهو حضارة بعض الامم القديمة المتحضرة التي دخلت في الاسلام ، ولا سيما الفرس .

والفرس امة عريقة في القدم وذات حضارة عظيمة ازدهرت في الدولة الساسانية . ونبتت دولة الساسانيين في فنون السياسة والادارة والحرب ومظاهر الترف والرفاهية . وكان لها دين رسمى هو الدين الزرادشتى ، ولغة ذات ادب وحكمة هي الفهلوية . فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية ، دخل الفرس في الاسلام افواجا ، وصاروا موالى للفاتحين من العرب . وبدخولهم في الاسلام اطرحوا الزرادشتية

والفهلوية ، واقبلوا على الاسلام يدرسونه ، وعلى اللغة العربية يحصلونها . ولم يمض طويل زمن حتى اضحوا هم اغلب القائمين على الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم . وافادت الحضارة الاسلامية من ذلك فوائد جمة ، فكثير من الالفاظ الفارسية التي تعبر عن مظاهر الحضارة والتي ليس لها مقابل في العربية نقلت بذاتها الى اللغة العربية ودخلت في بنيتها . كذلك فن الغناء الذي لم يكن للعرب منه حظ يذكر قبل الاسلام ، انتقل من الفرس الى العرب في صدر الدولة الاموية ، ونبغ كثير من موالى الفرس ، ومنهم عبيد الحميد الكاتب وابن المقفع في الكتابة ، واسماعيل بن يسار وبشار وابى نواس في الشعر . وكل هؤلاء ادخلوا على النثر العربي والشعر العربي اساليب وتعبيرات واخيلة لم تعرفها العرب من قبل . ثم استفاضت في العصر العباسي حركة تأليف الموالى في مختلف العلوم الاسلامية على الاطلاق .

ويمكن القول في هذا المقام ان الفرس اصفوا على المجتمع الاسلامي آدابا ومواصفات رقت من حواشيه ، ومن هذه مجالس الغناء والمنادمة ، والتائق في الطعام والشراب ، والزحرف في اللبس والمسكن .

#### ٤ - الثقافة اليونانية :

والمؤثر الاجنبي الثاني هو الثقافة اليونانية ( الهلينية ) . واليونان امة عريقة في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ، ظهر



فيها اساطين الفكر في العالم القديم ومنهم سقراط وافلاطون  
وارسطو. وانتشرت ثقافتهم في الشرق على اثر فتوح الاسكندر  
وقيام اسر يونانية حاكمة في الشام ومصر خاصة . وفي القرون  
السابقة على مجيء الاسلام نقل السريان في الشام وجزيرة  
العراق الى لغتهم السريانية كثيرا من تآليف اليونان في الفلسفة  
والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والجغرافية ، وعلقوا عليها  
وشرحوها . ثم انهم انشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم في  
الحواضر الكبرى ومنها انطاكية وقيسرية ونصيبين والرها ، كما  
قامت بالاسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليوناني واخرى  
بجنديسابور في اقليم خوزستان. وبذلك انتشرت الثقافة والعلوم  
اليونانية في اقطار الشرقين الادنى والاوسط ، بل جاوزتها على  
ايدى مهاجرة النساطرة الى بلاد الهند نفسها .

وفي العصر العباسي عهد خلفاء العباسيين ولاسيما المأمون  
الى طائفة من السريان ان ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة في  
العلوم المذكورة الى اللغة العربية . فنقلوا الكثير منها الى العربية  
عن السريانية ، وبعضها عن اليونانية راسا . وبذلك انتقلت  
الثقافة اليونانية الى المسلمين وهي اساس علوم الفلسفة والطب  
والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية عندهم . ومما يحسن  
التنبه اليه انهم لم ينقلوا شيئا من ملاحم الاغريق ومسرحياتهم  
العظيمة ، ذلك لان العرب اعتزوا بشعرهم واعتقدوا انه فوق  
كل شعر آخر وربما صرفهم عن نقل هذه الآداب ما فيها من

ذكر آلهة اليونان واساطيرهم مما ينبو عنه ذوق العربي المسلم  
في ذلك الزمان .

## ( ٢ ) الاحوال الاجتماعية والاقتصادية

اولا - الحياة الاجتماعية

### عناصر المجتمع :

تألف المجتمع في ازهى عصور الدولة الاسلامية من عناصر او  
طبقات مختلفة الاقدار الاجتماعية ، فالطبقة الاولى تشمل  
ال خليفة واهل بيته ، وكبار رجال الدولة ، وافراد البيت الهاشمى ،  
ثم جمع غفير من اتباع هذه الطبقة من الجند والحراس  
والاصدقاء والندماء والموالى والخدم .

وغالبية الخدم في الدولة الاسلامية من الرقيق المجلوب من  
الشعوب غير الاسلامية ، وهم اما اسرى حرب ضرب عليهم الرق  
او اشتروا بالمال زمن السلم . وجاء معظم الرقيق الابيض من  
بلاد اليونان والصقالبة والارمن والبربر . وبعض هؤلاء كانوا  
خصيانا يقومون بخدمة الحريم داخل قصور الخلفاء وكبار  
رجال الدولة .

اما الاناث من الخدم فكان جواري يحسن الغناء والرقص وعلى  
قدر موفور من الثقافة . واتخذ الخلفاء والامراء منهم السريات  
والمحظيات ، وغدا لبعض هؤلاء الجواري نفوذ على مواليهن .  
واقترنت التجارية لجمالها او لما تحسن من فن او علم او رواية ،

وربما بلغ ثمن الجارية الموفورة الحظ من هذه الصفات نحو  
١٠٠٠٠٠٠ درهم أى نحو ٨٠٠٠ جنيه ذهباً .

ويلى هذه الطبقة الاولى طبقة اخرى تشبه ان تكون طبقة  
ارستقراطية وهى تتألف من العلماء والادباء والشعراء ورجال الفن  
وكبار التجار واصحاب المهن والصناعات الكبرى . وكان لافراد  
هذه الطبقة رجحان فى الميزان الاجتماعى بما اوتوا من مواهب او  
من ثراء عريض .

ثم تاتى الطبقة الثالثة وهى طبقة العامة وسواد الامة من  
الفلاحين وسكان القرى ، والغالب على هؤلاء اول الامر انهم كانوا  
من اهل الذمة ثم شاع فيهم الاسلام .

#### اهل الذمة :

ويقال لهم ايضا « اهل العهد » وهم الذين بقوا على دينهم  
سواء كان النصرانية او اليهودية على شريطة ان يؤدوا الجزية  
للدولة . اما النصارى فكان اغلب اهل القرى منهم ، وكما سمح  
لهم بالاحتفاظ بدينهم سمح كذلك لهم بالاحتفاظ بلغتهم ، من  
آرامية وسريانية فى الشام والعراق ، وايرانية فى فارس ، وقبطية  
فى مصر ، ثم غلب عليهم الاسلام واللغة العربية فى القرنين الثانى  
والثالث الهجريين . وكان من يعتنق منهم الاسلام يهجر الريف  
وينتقل الى المدن الكبيرة .

وعاش اهل الذمة فى مستوى اجتماعى من جهة الواقع دون

مستوى المسلمين، غير ان ذلك لم يمنع بتاتا من وصول بعضهم الى منصب الوزارة او مناصب اخرى هامة في شئون الدولة المالية والكتابية، بل يكاد يكون جميع الاطباء المختصين بالخلفاء العباسيين الاوائل من النصارى . واثري كثير من اهل الذمة ثراء كبيرا الى درجة اثارت غيرة العامة من المسلمين ، وادى ذلك احيانا الى وقوع حوادث وفتن ادت الى التضييق على اهل الذمة من النصارى مثلا ، ولاسيما في اوقات الحروب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية ، اذ كان يظن انهم مع البيزنطيين كما حدث زمن المتوكل العباسي . على ان ذلك لم يؤثر في الحرية الدينية ورعاية شئون النصارى حيثما كانوا ، وكان لهم رئيسهم الروحي الذي يسمونه الجائليق ، وهو تعريب كلمة لاتينية تطلق في العصر الحاضر على الكاثوليك .

اما اهل الذمة من اليهود ، فكانوا اقل عددا واحسن حالا من النصارى على وجه التعميم ، لانهم تعاطوا اعمال الصرافة المالية ، ولان بعضهم شغل مناصب كبيرة في الدولة في كثير من العهود . وكان لليهود في بغداد جالية مشهورة وكثيرة العدد ، وتولى شئونهم الدينية ربانهم الاكبر في كثير من الحرية والاستقلال ، فاذا اراد هذا الرئيس لقاء الخليفة ركب اليه في كوكبة من الفرسان ، وعليه ثياب الحرير المطرزة ، وعلى راسه عمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ، وبين يديه مناد يفسح له الطريق .

### طوائف اخرى من اهل الذمة :

الضابئة اول هذه الطوائف الاخرى وكانوا ينزلون سواد العراق ولهم عقيدة مختلطة من اليهودية والنصرانية ولا تزال بقيتهم في العراق الى اليوم . والطائفة الثانية المجوس ، وهم اتباع الدين الزرادشتى ولا يزالون موجودين في الهند . والطائفة الثالثة البوذيون اتباع بوذا وكانوا في السند والهند . وانزلت الدولة الاسلامية هؤلاء جميعا منزلة اهل الذمة ، من النصارى واليهود وتقاضت منهم الجزية وتركتم احرارا في ممارسة عقائدهم وشؤونهم الدينية .

لكن طائفة واحدة لم تظفر بهذه المعاملة السمحة ، وهى طائفة المانوية اتباع مذهب مانى الذى ينزع باصحابه الى الزهد المطلق فى الحياة والى عدم الانتاج المطلق . واطلق المسلمون على اتباع هذا المذهب فى العصر العباسى خاصة اسم الزنادقة ، وحاربوه كما حاربته الساسانيون من قبل ، واشتد عليهم الخلفاء المهدي والهادي والرشيدي ، وانشئ لذلك ديوان خاص يعرف بديوان الزنادقة للبحث عنهم والضرب على ايديهم .

### الاسرة الاسلامية :

ظلت المرأة فى العصر العباسى الاول تنعم بالحرية التى نعمت بها المرأة العربية المسلمة فى العصر الاموى ، بل انا لنسمع عن نساء من اهل الطبقة العليا فى العصر العباسى الاول امتزن بقوة الشخصية وسعة النفوذ فى شئون الدولة امثال الخيزران زوجة الخليفة

المهدى ، والسيدة زبيدة زوجة الرشيد ، وبوران زوجة المأمون ، بل نسمع عن نساء عربيات قدن الجيوش وباشرن القتال ، ومنهن الفارعة اخت الوليد بن طريف الخارجي الذي خرج في زمن الرشيد . كما نقرا عن نساء اخريات يقرضن الشعر ، ويتقن الفناء ومنهن عبيدة الطنبورية التي اشتهرت زمن المعتصم بجمالها وبراعتها في فن الفناء .

لكن هذه الحرية اخذت تتناقص شيئا فشيئا بتكاثر الاماء والجوارى وانتشار التسرى وانحطاط الآداب ، فضرب الحجاب على المرأة ولم يأت عصر الدولة البويهية حتى امسى الفصل تماما بين الجنسين . وانحطت سمعة المرأة بصفة عامة حتى غدت توصف بالكر والخديعة وبغير ذلك من الصفات التي نجدها موصوفة بها في قصص الف ليلة وليلة .

ومهما يكن من شيء فقد ظل الزواج في المجتمع الاسلامي امرا واجبا على الرجل ، واحب المسلمون كثرة النسل ، وفضلوا كعرب الجاهلية البنين على البنات وكانوا يمتدحون الزوجة التي تقوم على خدمة زوجها ، ورعاية اولادها ، وتدبير شئون بيتها ، فاذا بقى لها بعد ذلك شيء قضته في العمل بمفزلها او منسجها .

وكانوا يعدون الرجل ظريفا مهذبا اذا كان وافر الادب ، جم المروءة ، قليل الضحك والمزاح ، نظيف الثياب ، حسن الاكلة اذا اكل ، وفيا بوعدده ، كتوما للسر ، متجنبيا لقرناء السوء .

## ثانيا - الاحوال الاقتصادية

احتوت الدولة الاسلامية فيما احتوت عليه من الاراضى الشاسعة بضعة اقاليم تعد من اخصب اقاليم العالم تربة واكثرها انتاجا ، وهى اولا مصر وبقاع الشام التى استولى المسلمون عليها من البيزنطيين ، وثانيا العراق وخراسان وما وراء النهر وسجستان التى كانت تابعة للدولة الفارسية الساسانية قبيل ظهور الاسلام . وساءت الاحوال الاقتصادية فى هذه الاقاليم جميعا بسبب الحروب الكثيرة بين الدولتين البيزنطية والساسانية ، وما ترتب على تلك الحروب من قلة الايدى العاملة فى الزراعة ، واهمال شئون الري ، وندرة المحاصيل ، مع ثقل الضرائب وشدة وسائل جبايتها من الناس . فلما فتح العرب هذه الاقاليم ، واخذوا فى تأمين احوالها الاقتصادية ، كى تصبح الدولة الاسلامية غنية بمرافقها ومنابع ثروتها ، قاموا فى كل من هذه الاقاليم باصلاح طرق الري خاصة . مثال ذلك ان عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠٠٠٠٠ عامل من المصريين فى اصلاح طرق الري فى مصر صيفا وشتاء ، وان العباسيين الاوائل جددوا حفر قنوات قديمة واستحدثوا قنوات جديدة بالعراق ، وذلك فيما بين الفرات ودجلة ، حتى اضحى ما بين هذين النهرين شبكة من القنوات ، بعضها قديم مجدّد ، وبعضها الآخر جديد مستحدث ، واطلقوا عليها كلها اسم النواظم ، لانها نظمت توزيع المياه بين الاراضى . وبذلك

أعاد العباسيون الى العراق شهرته القديمة بالخصب والنماء ،  
ولاسيما الجزء الجنوبي المعروف عندهم بالسواد .

وانتجت مصر من الحبوب الشعير والقمح والارز والسهم  
والعدس والبقول ، ومن الألياف القطن والكتان ، ومن الثمار  
اللارنج ( البرتقال ) وقصب السكر ومختلف اصناف الفاكهة  
والعسل والتمور ، وانواع المقاني ( الخيار والقشاء ) .

واما العراق فاهم حاصلاتها التمور والقمح والشعير والمقاني  
والفاكهة ، والارز والكتان والورد والبنفسج .

ونافست خراسان ومعها ماوراء النهر اراضي مصر والعراق  
في تقدم الزراعة ووفرة الحاصلات وكثرة السكان ، ولا عجب  
فرجال هذا الاقليم هم الذين اقاموا دولة بني العباس . ويقول  
الجغرافي ابن حوقل في وصف المنطقة التي تحيط بمدينة  
بخارى انه لم ير بلدا تحيط به المروج الخضراء والمزارع  
والحدائق مثل احاطتها بمدينة بخارى بحيث لا يقع البصر « الا  
على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، وكان السماء مكبة  
زرقاء على بساط اخضر » .

ويقال ان البطيخ حمل من خوارزم الى بلاط المأمون والوائق  
في اوعية من الرصاص مبطنة بالثلج ، فتباع الواحدة منه في  
نجداد بثمان يبلغ بضع مئتين من الدراهم . والحق ان اكثر  
الفاكهة والخضر التي تنمو في غرب آسيا في وقتنا هذا كانت



معروفة فيه اذ ذلك ، عدا المانجو والبطاطس والطماطم التي  
جاءت من العالم الجديد في امريكا او من المستعمرات الاوربية في  
آسيا . ففي ذلك الزمن انتقلت شجرة اللارنج ( البرتقال ) من  
شمال الهند الى غرب آسيا ، ومن ثم نقلها العرب الى الاندلس .  
وزرع الفرس قصب السكر وصنعوا منه السكر ، فانقل  
منها الى مصر وسواحل الشام ، حيث عرفه الصليبيون فيما  
بعد . ونقلوه وصناعة السكر كذلك الى اوربا ، واصبح مادة  
لايستغنى عنها الانسان المتحضر في غذائه اليومى .

وعنى المسلمون عناية فائقة بتربية الازهار ، فزرعوها في  
مزارع واسعة بقصد تصدير اعطارها وادهانها ومياها .  
وراجت من أجل ذلك في دمشق شيراز وغيرهما صناعة  
استخراج الادهان العطرية من الورد والنيلوفر ، وزهرالبرتقال  
والبنفسج . وحمل المسلمون ماء الورد من اقليم جور في فارس  
الى الصين شرقا ومراكش غربا ، ومن ماء الورد وعطره جاء  
في خراج فارس كل سنة ٣.٠٠٠ زجاجة الى قصر الخليفة  
في بغداد .

### الصناعة :

لم تكن الصناعة اقل تقدما من الزراعة في هذه الاقاليم ،  
ولا سيما بعد ان خلقت الحياة الاجتماعية في الدولة الاسلامية  
انواعا من الترف ، فانتشرت في غرب آسيا صناعة البسط

والطنافس ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية ،  
واغطية الارائك والوسائد . وانتجت انوال فارس والعراق  
بسطا ومنسوجات نفيسة غالية الثمن ، ومنها النسيج المخطط  
الذي يقال له « العتابى » الذى اشتهر به حتى عتاب ببغداد ، نسبة  
الى امير اموى اسمه عتاب . واعجب هذا النسيج العتابى اهل  
اسبانيا وفرنسا وايطاليا وغيرها من بلاد أوروبا حتى صار  
معروفا عندهم باسمه العربى ، ومنه لفظ ( TAPIS ) ومعناها  
البساط فى اللغة الفرنسية فى العصر الحاضر .

وصنعت الكوفة مناديل الحرير ( الكوفية ) التى تتخذ غطاء  
للراس ، واشتهرت مدن فارس مثل شيراز واصفهان بصناعة  
البسط والمطرزات والثياب السلطانية الخاصة . واشتهرت  
سوريا ومصر بصنع الاوانى الخزفية وادوات الطبخ والمصابيح ،  
وبصنع المنسوجات الحريرية المعروفة بالدمياطى والدبىقى  
والتنيسى نسبة الى دمياط ودبىق وتنيس ، وهى المدن  
الصناعية المصرية التى اضحت ذوات شهرة عالمية اذ ذلك .

واشتهرت مدن صيدا وصور وغيرها من مدن الشام  
بصنع الزجاج الذى ضرب به المثل فى الصفاء والرقة ، واشتهرت  
دمشق بصناعة الفسيفساء والقاشانى الذى تزين به جدران  
الجوامع والبيوت الكبيرة من الداخل والخارج .

وانتقلت صناعة ورق الكتابة اواسط القرن الثامن الميلادى

من الصين الى سمرقند ، ومنها الى بغداد ، ومن بغداد الى مصر ومراكش والاندلس . وبمكتبة جامعة ليدن اقدم كتاب عربى مكتوب على الورق ، وهو كتاب غريب الحديث لابي عبيد القاسم بن سلام ، وتاريخ نسخة الكتاب سنة ٢٥٢ هـ ( ٨٦٦ م ) . وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلادى انتقلت صناعة الورق من البلاد الاسلامية الى ممالك اوربا المسيحية حيث غدا الورق مستعملا للكتابة لأول مرة .

وبازدياد الثروة فى الدولة الاسلامية صارت صناعة الحلى وصقل الاحجار الكريمة ذات شأن كبير فى كثير من المدن ، فصار اللؤلؤ والياقوت الازرق والاحمر والزمرد والماس من الجواهر المفضلة عند الخلفاء والامراء وعلية الناس . اما الطبقة الدنيا ، فرغبت فى الفيروز والجزع ( او العقيق اليمانى ) . ومن أشهر الجواهر فى التاريخ الاسلامى ياقوتة حمراء كبيرة توارثها قديما ملوك فارس الساسانيين ، ثم صارت الى الخليفة الرشيد حين اشتراها بمبلغ ٤٠٠٠٠ دينار ونقش عليها اسمه ، وقيل ان هذه الياقوتة من الكبر واللمعان بحيث لو وضعت فى الليل فى حجرة مظلمة لاضاءت كالسراج .

واستخرج المسلمون الذهب والفضة والمرمر من جبال خراسان ، والزئبق والياقوت من جبال ماوراءالنهر ، والرصاص والفضة من كرمان ، واللؤلؤ من البحرين والحديد من جبل لبنان .

### التجارة :

وبتقدم الزراعة والصناعة واتساع الدولة نشأت تجارة عالمية واسعة على يد اهل الذمة من النصارى واليهود ومن في حكمهم كالزرادشتيين ، ثم تحولت هذه التجارة العالمية شيئا فشيئا الى المسلمين ولا سيما العرب الذين عرفوا التجارة قديما وكانت لها عندهم مكانة مرموقة ليست للزراعة ولا للصناعة . وسرعان ما استحوالت مرافئ برية وبحرية الى مراكز حافلة بمظاهرها التبادل التجارى البرى والبحرى ، واهمها بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية .

ووصل تجار المسلمين شرقا الى الصين من اجل المشاركة فى تجارة الحرير ، وسافروا اليها عن « طريق الحرير العظيم » الذى يمر من سمرقند وتركستان . وورد فى بعض الوثائق الصينية القديمة اسم امير المؤمنين ابى العباس واسم الخليفة هارون الرشيد ، مما يدل على قدم الصلة بين الدولة الاسلامية والصين . ووصل تجار المسلمين الاولين غربا الى مراکش واسبانيا ، وجنوبا الى سواحل افريقيا الشرقية وجزيرة مدغشقر واخبر السعوى المؤرخ ان الخليفة هارون الرشيد فكر فى الوصل بين البحرين الاحمر والمتوسط بقناة وذلك قبل ديلبس بأكثر من الف سنة . واما شمالا فوصل تجار المسلمين فى القرن العاشر الميلادى الى الاقاليم التى يجرى فيها نهر الفلجا ، وغدا بحر قزوين والجهات المحيطة به مجالا لنشاطهم بصفة خاصة .

وحملت قوافل التجار المسلمين واساطيلهم التجارية احمال التمر والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والسيوف وآنية الزجاج الى اقاصى آسيا و إفريقيا ، وعادت منها محملة بالتوابل والكافور والحرير من اقاصى القارة الاسيوية ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من القارة الافريقية .

وقصص السندباد البحرى وغيرها من قصص كتاب الف ليلة وليلة تعطى صورة لمغامرات هؤلاء التجار فى سبيل الثراء ، كما تلقى ضوءا على اسواقهم ومعاملاتهم التجارية . وظهر غير واحد فى الدولة الاسلامية من كبار التجار ممن بلغت ثروتهم بملايين الدنانير ، وذلك فى بغداد والبصرة خاصة ، على نحو ماشهد فى الولايات المتحدة الامريكية فى العصر الحاضر .

## النظم المالية

- الاموال التى استحققتها الدولة الاسلامية من رعاياها نوعان :
- ١ - مال تنقاضه الدولة من المسلمين خاصة ، وهو الزكاة . ولا حق للدولة فى مال المسلم غير الزكاة .
  - ٢ - مال تنقاضه الدولة من اهل الذمة ومن اعتبروا فى حكمهم من الطوائف ، وهى جزية الرؤوس وخراج الارض وضرائب اخرى ثانوية . ومطلق على هذه كلها اسم ( الفىء ) ، تمييزا لها من اموال غنائم الحرب .

## الزكاة :

ويقال للزكاة ايضا الصدقة ، وهي تؤخذ من الاغنياء في كل  
جهة اسلامية وتفرق في فقرائها .

والاموال التي تكون فيها الزكاة اربعة انواع ( ١ ) الماشية  
( ٢ ) والذهب والفضة ( ٣ ) والثمار ( ٤ ) والزرع .

والماشية تشمل الابل والبقر والغنم . ولها حد ادنى لا تؤخذ  
فيما دونه زكاة ثم تزداد الزكاة فيما فوق الحد الادنى بزيادة عدد  
الماشية . وكل ذلك وارد بالتفصيل في احكام السنة .

اما الفضة فليس فيما دون ٢٠٠ درهم زكاة ، واما ما بلغ  
٢٠٠ درهم فاكثر فتؤخذ زكاته بنسبة ٢٥ ٪ . ومثل ذلك  
الذهب ، فليس فيما دون العشرين مثقالا زكاة ، وما زاد فيؤخذ  
عن كل عشرين مثقالا نصف مثقال . ومثل الذهب والفضة  
اموال التجارة .

واما الثمار وتشمل ثمار النخل والكرم والزيتون وغيرها من  
اشجار الفاكهة فتختلف زكاتها باختلاف نوع سقايتها . فاذا  
سقيت بغير مشقة ، اي بماء المطر او الانهر الجارية ، فزكاتها  
العشر . واذا سقيت بمشقة فنصف العشر . وعلى كل حال  
لا تستحق الزكاة على الثمار الا اذا بلغت كمية معينة ، وهي  
خمسة اوسق فاكثر .

وأما الزروع ، وهى الحبوب بأنواعها من القمح والارز واللوبيا  
والحمص والعدس ونحوها ، فحكمتها فى الزكاة حكم التمار .

### المستحقون للزكاة :

عين القرآن الاوجه التى تصرف فيها اموال الزكاة ، وذلك فى  
قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ،  
والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، وانصارميين ؛ وفى سبيل الله وابن  
السبيل » . ولذا جرى تقسيم مال الزكاة ثمانية اسهم : السهم  
الاول للفقراء وهم الذين لا يملكون شيئا ، بشرط ان يأخذ الفقير  
الواحد اقل من ٢٠ درهم ، حتى لا تستحق عليه الزكاة . والسهم  
الثانى للمساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم ، وقيل بل هم  
فقراء اهل الذمة ، كما ورد عن عمر بن الخطاب . والسهم الثالث  
للعاملين على الزكاة اى الذين يتولون جبايتها ، فيأخذون اجورهم  
منه . السهم الرابع يفرق فى المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين تتالفهم  
الدولة ، اما لكف اذاهم عن المسلمين او لترغيبهم او ترغيب  
عشائهم فى الاسلام . والسهم الخامس يذهب فى شراء الارقاء  
وعتقهم . والسادس للغارمين وهم العاجزون عن وفاء ديونهم ،  
فيعطون منه ما يقضون به ديونهم . والسابع ينفق فى سبيل  
الله ، اى يعطى منه للغزاة المجاهدين نفقة ما يحتاجون اليه من  
عدة الحرب . والسهم الثامن لابناء السبيل وهم المسافرون الذين  
لا يجدون نفقة سفرهم .

### الضرائب التى تؤخذ من أهل الذمة :

فانت ترى مما تقدم ان الدولة مقيدة فى جباية اموال الزكاة وانفاقها بالكتاب والسنة ، فمن اين تأتى الدولة بالمال اللازم للمصالح العامة من عمارة المساجد وصيانة الطرق ، وحفر الابار ، وكرى الترعى وانشاء الخلجان ؟ ومن اين تأتى بنفقات الجند ورواتب العمال ؟ والجواب ان الدولة حصلت على المال اللازم لكل ذلك من الضرائب التى تتقاضاها من أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن جرى مجراهم من المجوس والصائبين . وهذه الضرائب نوعان هما : الفىء والغنائم ، اى غنائم الحرب .

والفىء لفظ يطلق على الاموال التى تجبىها الدولة من أهل الذمة واشباهم من الطوائف ، على هيئة جزية اوخراج بصفة خاصة . ذلك انه لما فتح العرب العراق وغيره من الاقطار ، اراد الجند تقسيم الارض الزراعية عليهم قسمة اموال الغنائم ، فابى عمر بن الخطاب عليهم ذلك . وجرى فى الامر جدل ونقاش كثير ، ثم استقر راي كبار الصحابة على ان تكون الارض ملكا للدولة ، وان يعهد الى من عليها من أهل الذمة باستغلالها على ان يؤدوا عنها للدولة الجزية عن رءوسهم ، والخراج عن الارض التى يزرعونها . وان يعوض الجند باعطيات او رواتب تصرفها لهم الدولة .

وعلى ذلك وضع عمر الجزية على الرءوس والخراج على الارض ودون ذلك فى سجلات ، كما فعل الفرس والبيزنطيين ، وهو المعبر عنه بتدوين الدواوين . وكانت السجلات تكتب اول



الامر باللغات الاجنبية ، ثم عربت زمن عبد الملك بن مروان .  
ويطلق لفظ الجزية على عهد الرسول و ابي بكر و صدر خلافة  
عمر على المال الذي يؤديه اهل الذمة للدولة ، سواء كان ضريبة  
رعوس او ضريبة ارض . فلما فتح المسلمون اقاليم الفرس  
والبيزنطيين ، ووجدوا ان لكل من النوعين اسما خاصا ، تخصص  
لفظ الجزية بـضريبة الرعوس ، ولفظ الخراج بـضريبة الارض .  
ولم تكن الجزية اول الامر محددة المقدار ، ثم تعين مقدارها  
على الرجل الغنى ٤٨ درهما في العام ، وعلى المتوسط الحال ٢٤  
درهما ، وعلى الفقير ١٢ درهما . واعفت الجزية ابناء اهل الذمة  
من الخدمة العسكرية ، فاذا اعتنق الذمي الاسلام سقطت عنه  
الجزية ، وصار مطلوبا للخدمة العسكرية . ولم تطلب الدولة  
ضريبة الجزية على النساء او الصبيان او ذوى العاهات او  
الشيوخ او الرهبان المنقطعين للعبادة .

اما الخراج فالغالب ان المسلمين اتبعوا في تقديره النظام الذى  
كان متبعاً في كل اقليم قبل ان يفتحوه ، وهو في بعض الجهات  
نظام المقاسمة للمحصول بعد تمام نضجه ، اى ان تأخذ الدولة  
حصة لا تزيد على النصف ولا تقل على الخمس ، وتترك الباقي  
لصاحب الزراعة . وفي جهات اخرى جرى تقدير الخراج على  
نظام خراج المساحة ، اى ان تأخذ الدولة الخراج باعتبار مساحة  
معينة ، وهى الفدان فى مصر ، والجريب فى العراق . وقد يكون  
الخراج على نظام خراج المقاطعة ، اى تقدر الدولة حصتها تقديرا

ثابتا لا يتأثر بزيادة المحصول أو نقصانه ، بخلاف الحال في النوعين الآخرين على ما يظهر .

وفرضت الدولة عدة ضرائب أخرى ثانوية تلحق بالخراج ، ومنها اعشار السفن التي تمر ببعض الثغور الاسلامية ، فيؤخذ منها العشر اما عينا او نقدا ، واخماس المعادن المستكنة في باطن الارض ، فيؤخذ عنها الخمس .

اما غنائم الحرب ، فهي ما يستولى عليه المسلمون من أعدائهم بالحرب ، اى ( ١ ) الاسرى ( ٢ ) والسبى ( ٣ ) والاموال المنقولة ( ٤ ) والاراضى .

فاما الاسرى ، وهم رجال العدو المقاتلون الذين يقعون في الاسر ، فولى الامر مخير بين ان يمن عليهم ويطلقهم ، وبين ان يأخذ الفداء عنهم ، والمال المأخوذ على هذه الصورة يضم الى باقى الغنيمة . واما السبى فالمقصود به النساء والاطفال الذين يقعون في ايدى المسلمين اثناء الحرب ، فلا يجوز قتلهم وانما يفرقون في جملة الغنيمة ، ويجوز قبول الفداء عنهم . واما الاموال المنقولة ، وهى الماشية وعتاد الحرب الذى يصير بعد الوقعة الى المسلمين ، فيدخل في جملة الغنيمة ويفرق كما سيأتى . واما الاراضى التى يكسبها المسلمون بالحرب فلا تدخل في جملة الغنيمة ، بل تعامل على نحو ما تقدم فى الكلام عن الفء .

تقسيم الغنائم :

وعين القرآن طريقة تقسيمها ، وذلك فى قوله تعالى «واعلموا ان

ما غنمتم من شيء فان لله خمسة ورسرر - ولذي القربى  
واليتامى والمساكين وابن السبيل « فتقسم اموال الغنيمه من  
فداء وسبى واموال منقولة خمسة اقسام ، اربعة منها للمقاتلة  
توزع عليهم بالسوية ، ثم يقسم الخمس الباقي ، الذى هو  
للسول ، الى خمسة اسهم ، سهم ينفق منه على نفسه وعلى  
ازواجه وفي مصالح المسلمين ، وسهم يفرق في ذوى قربى الرسول  
وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو مناف ، وسهم لليتامى من  
ذوى الحاجات ، وسهم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفهم ،  
والسهم الخامس لابناء السبيل ، وهم الذين لا يجدون نفقة  
السفر .

#### ديوان الجند :

تنفيذا لما تقرر من جعل الارض الزراعية في البلاد المفتوحة ملكا  
عاما للدولة ، وصرف اعطيات الجند مما يتبقى من مال الفىء بعد  
طرح جميع نفقات الادارة ، انشأ عمر بن الخطاب ديوان الجند ،  
ودون فيه اسماء جميع الذين يستحقون عطاء ، ورتب الاسماء  
بحسب القبائل ، وجعل عطاء كل مستحق بحسب قرابته للرسول  
او بحسب سابقته في خدمة الدولة والدعوة الاسلامية او مبلغ حفظه  
للقرآن . وهو احصاء طريف حقا ، ويعتبر الاول من نوعه في  
التاريخ . ولذا جاء ازواج النبى عليه السلام في راس السجل ،  
وبلغ عطاء كل منهن يختلف بين ١٢ر٠٠٠ درهما في العام وهو  
عطاء السيدة عائشة ، ١٠ر٠٠٠ درهم ، وهو عطاء كل من سائر

ازواجه . ثم المهاجرون والانصار ، واختلف عطاء كل منهم باختلاف سبقه الى الاسلام ، وبلغ متوسط ما يأخذه الواحد من هذه الطبقة بين ٤٠٠٠ ، ٥٠٠٠ درهم في العام ، ثم بقية المستحقين من سائر القبائل العربية ، مرتبين بحسب سابقتهم او علمهم بالقرآن . وتراوح اقل عطاء للجندى العادى بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ درهم في العام ، واقل عطاء حتى للنساء والاطفال والموالى بين ٢٠٠ ، ٦٠٠ درهم .

### اعتبار الخراج حقا عينيا على الارض :

حدث في اثناء القرن الاول الهجرى ان دخل كثير من اهل الذمة في الاسلام ، واصبحوا من الموالى ، فسقطت عنهم الجزية وصارت ارضهم الزراعية ارض زكاة لا ارض خراج . وهجر كثير من اولئك الموالى الداخلين في الاسلام الريف الى المدن الكبرى ليلتحقوا بالجيش وصار لهم عطاء ، بمقتضى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب . وترتب على ذلك ان تناقص دخل بيت المال من الجزية والخراج ، وهما اهم موارد الدولة المالية . ثم حدث ابتداء من عهد الخليفة عثمان ان سمحت الدولة للعرب بان يضعوا ايديهم على اراض زراعية خراجية فى الاقاليم المفتوحة ، فاصبحت بتملكهم لها تؤدى الزكاة فحسب ، وهى فى الجملة اقل من الخراج فازداد تآثر المال بتلك الحال . فلما جاء الحجاج عمل على تلافى كل ذلك بان الزم الموالى العودة الى الريف واداء الجزية برغم اسلامهم ، كما ذهب الى فرض الخراج على العرب الذين وضعوا

أيديهم على أراض في الأقاليم المفتوحة. غير أن الشكوى عمت من هذه المعاملة. فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع الجزية عن أسلم من الموالى ، واعتبر الخراج حقا عينيا ثابتا على الأرض لا يتأثر بإسلام صاحبها ، وذلك بأن تضم الأرض إلى أرض القرية ولصاحبها أن يستأجرها بعد ذلك على شريطة أن يؤدي عنها الخراج ، كما نهى عن أن تصير أرض خراجية إلى عربى بعد سنة ١٠٠ هـ . وبذلك أصبحت الأرض الزراعية في الدولة الإسلامية من ذلك الوقت أما خراجية يؤدي عنها الخراج ، وأما عشيرة يؤدي عنها الزكاة .

ويمكن أن يقال بوجه عام أن الأرض في الدولة الإسلامية كانت ملكا للدولة ، وأن الناس استغلوها على قاعدة أن يكون للحكومة نصيب من غلتها ، وذلك إلى أوائل القرن الماضي ، إذ تقرر تمليك الفلاح الأرض التي يزرعها ، على نحو ما حدث في مصر خاصة .

### ارتفاع الخراج :

المقصود بهذا التعبير مقدار ما يجبى من خراج كل إقليم سنويا ، ومع أنه ليس لدينا احصاء واف بما جبى من الخراج في العصور الإسلامية الأولى ، فمن المعروف أن العراق بلغ ارتفاع خراجه زمن عمر بن الخطاب ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم في العام ، وفي زمن الحجاج ١٨٨.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وفي أواخر الدولة الأموية ١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وأما مصر فجبها عمرو بن العاص

١٢٠٠٠٠٠٠ دينار ، وبلغت جبايتها زمن هشام بن عبد الملك  
٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ثم انحط خراجها في الدولة العباسية الى  
٨٠٠٠٠٠٠٠ دينار . غير أنه زاد زمن بن طولون الى ٣٠٠٠٠٠٠٠  
دينار ، استمر خراجها نحو ذلك . واما الشام فبلغ خراجها  
زمن عبد الملك ابن مروان ٧٢٠٠٠٠٠٠ دينار .  
ثروة الدولة الاسلامية في ازهى عصورها :

ولدينا ثلاث قوائم ليرادات الدولة العباسية في عصور ثلاثة ،  
وهي عصر المأمون وعصر المعتصم ، ومنتصف القرن الثالث  
الهجرى والقائمة الاولى أوردها ابن خلدون ، ومنها نعلم أن  
ما وصل الى بيت المال ببغداد زمن المأمون بلغ ٣٩٠٠٠٠٠٠٠ درهم  
بما في ذلك الضرائب العينية . والقائمة الثانية أوردها قدامة بن  
جعفر في « كتاب الخراج » ومنها نعلم أنه وصل الى بيت المال  
على عهد الخليفة المعتصم بالله ٣٨٨٠٠٠٠٠٠ درهم ، بما فيها  
الضرائب العينية . والقائمة الثالثة أوردها ابن اثير في  
كتابه ، وتتعلق بجباية الدولة العباسية في اواسط القرن الثالث ،  
ويبلغ مقدارها ٢٩٩٢٦٥٠٠٠ درهم . وصفوة القول أن الدولة  
الاسلامية كانت في ازهى عصورها من اغنى دول العصور القديمة  
والعصور الوسطى ، ان لم تكن اغناها على الاطلاق .

## الحياة الفكرية

غلبت الأمية كما غلبت البداوة على العرب في جاهليتهم ، فلم يكن لهم علوم بالمعنى الذي يدل عليه هذا اللفظ ، بل كانت لهم معارف متنوعة اكتسبوها بالمشاهد والتجربة ، أو اقتبسوها من جيرانهم من الفرس والبيزنطيين والسريان ، ومن هذه معلومات بدائية في طب الانسان ومعرفة اجزاء جسمه وعلاجه ، وطب الحيوان ولا سيما الخيل والابل ، ومعلومات أخرى تتعلق بالظواهر الجوية ، وهو ما عبروا عنه بالانواء ومهاب الرياح ومساقط الفيث ، ومعلومات فلكية تتصل بمواقع النجوم الثوابت والكواكب السيارة وأوقات طلوعها وغروبها ، وهذه أفادتهم في أسفارهم خاصة . واشتغل العرب بمعرفة ما كان أو يكون من الحوادث ، وهو ما يسمونه العرافة والكهانة ، ومهروا في قدرة تتبع آثار الانسان والحيوان ، والاستدلال بها على أصحابها ، وهو ما أطلقوا عليه قيافة الاثر ، أو تبين النسب بين شخصين من علاقات خلقية مشتركة بينهما ، وهو قيافة البشر .

فلما جاءهم الاسلام نقلهم من هذه الحال البدائية الى حال جديدة ، اذ فتح لهم آفاقا فسيحة من العلم والمعرفة ، ومهد

لهذه الحال الجديدة امران جليلان تم كل منهما في عهد الخلفاء الراشدين :

( ١ ) جمع القرآن من الصحف التي كتب فيها الوحي زمن الرسول ، ومن صدور الرجال ، وذلك بتدوينه في مصحف واحد ، ارسلت نسخ منه الى الامصار الكبرى ؛ وبذا اصبح للمسلمين نص واحد معتمد لكتابهم المقدس يستسخونه ويقرؤونه ويتدبرونه دون اختلاف فيه .

( ٢ ) نمو الخط العربي وانتشاره بين المسلمين ، واخذ العرب الخط اصلا عن الحيرة القريبة من الكوفة ، ولذا اشتهر هذا الخط باسم الكوفي ، ثم اخذوا عن الانباط بشمال شبه الجزيرة نمطا آخر ، وهو المسمى بخط النسخ . وبذلك لم يعد العرب اميين ؛ بل اصبح اكثرهم يقرأ ويكتب ؛ وهو مالا بد منه في التمهيد لكل حركة فكرية عامة .

ومن الطبيعي ان ياخذ العرب من علوم الحضارات التي امتدت اليها فتوحهم ما تمس اليه حاجتهم من تلك العلوم ، وان تنمو بينهم علوم اقتضاها الاسلام نفسه ، من تفسير للقرآن وجمع وتدوين للحديث ، واستنباط للاحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، وهو المسمى بعلم الفقه . فلما دخل كثير من الاعاجم في الاسلام ، وصاروا موالى في الدولة الاسلامية ، اقبلوا على الاشتغال بالعلم والتأليف فيه ، ونشأ عن اشتغال



العرب والموالي بمختلف العلوم حركة فكرية أخذت تقوى وتعظم حتى بلغت الغاية حوالى منتهى القرن الرابع الهجرى ، وهى فى الواقع من اعظم الحركات فى تاريخ الفكر الانسانى بوجه عام .

واتخذت هذه الحركة مراكز مختلفة باختلاف محور الارتكاز السياسى والفكرى فى الدولة الاسلامية واقاليمها ، وهذه المراكز بحسب ترتيبها الزمنى هى : ( ١ ) فى الحجاز مكة والمدينة ( ٢ ) وفى العراق البصرة والكوفة وبغداد ( ٣ ) وفى الشام دمشق ( ٤ ) وفى مصر القسطنطينية . وازدادت هذه الحركة نشاطا وقوة منذ القرن الثالث الهجرى ، حين ظهرت مراكز اخرى فى فارس وخراسان وما وراء النهر وفى شمال افريقية والاندلس .

## علاوم اللغة

### علم النحو :

ينبغى ان يكون واضحا كل الوضوح فى هذا الموضوع اولا ان العرب الذين غلبت عليهم الامية والبداءة فى جاهليتهم ، اسهموا فى الحضارة الاسلامية وعلومها كلها فى العصور المختلفة بسهم عظيم هو اللغة العربية الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، واحتواها الادب العربى القديم وما فيه من نظم ونثر يشرح كل منهما مستويات الفكر والدوق الفنى والخلق والسلوك عند العرب .

ثم اختلط العرب بالاعاجم من الفرس والبيزنطيين والسريان ،

ودخل كثير من أولئك الاعاجم في الاسلام ، فظهر اللحن في اللغة ، ومست الحاجة الى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطا ، وهذا هو الباعث على وضع علم النحو . والراى السائد ان ابا الاسود الدؤلى الذى وضع علم النحو ، او انه بوجه اصح هو البادى بوضعه . وصحب ابو الاسود الامام على بن ابي طالب ، ويقال انه بدأ بوضع النحو باشارة الامام على نفسه . وعاش ابو الاسود الدؤلى فى البصرة ، والظاهر انه اطلع على نحو السريان ، فنسج على منواله فى وضع النحو العربى .

واشتغل علماء البصرة بالنحو فى العصر الاموى وصدر الدولة العباسية ، ثم جاراهم فى الاشتغال به علماء الكوفة ، غير انهم خالفوا البصريين فى بعض قواعده ، وصار لكل من الفريقين مذهب فى النحو ينسب اليه .

ثم استوى النحو علما جليلا مستقلا بنفسه ، بعد ان وضع فيه سيبويه ( توفى سنة ١٨٣ هـ ) كتابه الكبير الذى هو عمدة هذا العلم واساسه ، واخذ العلماء يؤلفون فيه بعده ، فى البصرة والكوفة وغيرهما من الامصار ، ولا سيما الاندلس .

#### علم اللغة :

واستحدثت الشريعة الاسلامية والنظم السياسية والادارية فى الدولة والمجتمع الفاظا ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه الالفاظ والمصطلحات بما نقل المسلمون عن اليونانية والفارسية من مختلف العلوم الطبية والرياضية

والفلسفية . ثم أدى ذلك السيل من المفردات الجديدة في لفظها واستعمالها الى البحث في مفردات اللغة العربية ، من حيث معانيها واصولها واشتقاقها وطرق تعريب الدخيل عليها . وتناول المسلمون ذلك اول الامر على شكل مجموعات منها مصطلحات موضوع واحد ، كالخيل ، والشجر ، والنخيل ، والكرم ، وخلق الانسان ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، والمياه ، والجبال ، فحصلت عندهم بذلك مادة لغوية عظيمة استغلها واضعو المعاجم اللغوية .

واكبر واضعى المعاجم العربية في عصر النهضة الاسلامية الخليل بن احمد المتوفى سنة ١٨٠ هـ ، ومعجمه يسمى « كتاب العين » ، لانه بداه بالالفاظ المبدوءة بحرف العين . وتبعه ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وله « الجمهرة » ، ثم الازهرى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وله « كتاب التهذيب » ، ثم الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، وله معجم « الصباح » ، ولخص محمد بن ابي بكر الرازى من اهل القرن الثامن هذا المعجم في كتاب سماه « مختار الصباح » ، وهو متداول في المدارس المصرية . وآخر اصحاب المعجمات في عصر النهضة ابن سيده ، وله كتاب « المخصص » ، وهو معجم مواده مرتبة على المعانى لا الالفاظ ، ثم كتاب « المحكم في اللغة » ، وهو اساس القاموس المحيط . وتشهد هذه المؤلفات بأن العرب اسبق الامم الى وضع المعاجم للفتهم في التاريخ كله ، ما عدا اهل الصين فيما يقال .

## علوم الدين

### تفسير القرآن :

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب كلامهم ، ومع ذلك لم يكن القرآن كله في متناول جميع الصحابة ، يستطيعون فهمه اجمالا وتفصيلا ، بل احتاج بعضهم أن يسأل عن معاني بعض الفاظه او اشاراته او عن سبب نزول آية من آياته . واشتدت هذه الحال بدخول الاعاجم في الاسلام ، فلم يلبث أن اشتهر بعض كبار الصحابة بالقول في تفسير القرآن ، واكثر من روى عنهم تفسير له على بن ابي طالب ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وابي بن كعب . ثم اشتهر بعض التابعين بالرواية عن هؤلاء الصحابة . وبعد انقضاء عصر الصحابة والتابعين اخذ العلماء يؤلفون الكتب في تفسير القرآن ، واعظم تفسير للقرآن هو تفسير ابن جرير الطبري ( المتوفى سنة ٣١٠ هـ ) ثم تعددت التفاسير وتنوعت بين موجزة ومفصلة ، ولكل منها مزية معروف بها .

### علم الحديث :

يراد بالحديث ما يروى عن رسول الله عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، واخذ الناس الحديث عن الصحابة ، ولا سيما الذين طال اتصالهم بالرسول ، ومنهم السيدة عائشة زوجة ،

وعمر بن الخطاب ، وأبى هريرة ، ثم ظهرت طبقة من التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديث أول الأمر ، كما دون القرآن ، بل ظل غير مدون في الجملة مدة القرن الأول ، يتناقله المحدثون مشافهة وحفظا في الذاكرة ، لانهم كرهوا ان يكون الى جانب القرآن كتاب اخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . فلما ظهرت احاديث موضوعة لا يعرفها اعلام الصحابة والتابعين ، وتجرا الواضعون على رسول الله فنسبوا اليه احاديث غير صحيحة ، اشتدت الرغبة في تدوين الاحاديث الصحاح . ثم امر الخليفة عمر بن عبد العزيز بعض من يوثق به من علماء الحديث بجمع الاحاديث ، فكتبت ودونت في دفاتر ، وارسلت منها نسخ الى انحاء الدولة الاسلامية . ثم استفاض التأليف في علم الحديث ، وهي كتب السنة واهل الاجماع واشهرها واكثرها تداولاً « الجامع الصحيح » لابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ . وافادت اللغة العربية من تدوين الحديث فائدتين كبيرتين ، وهما ان لغة الحديث النبوي طبقة عالية من البلاغة ، ثم ان السنة هي المصدر الثاني للتشريع الاسلامي بعد القرآن ، وتدوينها هو الذي سهل لرجال الفقه والتشريع عملهم .

#### علم الفقه

وهو العلم بالاحكام الشرعية العملية المستنبطة من الادلة التفصيلية ، والمراد بالاحكام الشرعية العملية كل ما يتعلق

بالعبادات والمعاملات والاحوال الشخصية والجنائيات والنظم العامة . واستنبط كبار الصحابة احكام الشريعة من الكتاب والسنة ، فان لم يجدوا نصا صريحا لجأوا الى القياس او الراى او الاجماع ، وعبروا عن ذلك بالاجتهاد . غير ان فقهاء الحجاز مالوا الى الاستمسك بالكتاب والسنة ، لاستفاضة الحديث عندهم ، ولم يجنحوا الى الاخذ بالقياس والاجماع الا عند الضرورة القصوى . اما فقهاء العراق ، فلقللة رواية الحديث عندهم صاروا الى الاخذ بالقياس والراى فيما ليس فيه نص صريح فى كتاب او سنة مشهورة . ولذلك عرف فقهاء الحجاز بأهل الحديث ، وفقهاء العراق بأهل الراى والقياس ، وزعيم الاولين الامام مالك بن انس ، وزعيم الاخرين الامام ابو حنيفة .

وفى القرن الثانى من الهجرة ابتدا ظهور نوابغ الفقهاء ، ومن آرائهم نشأت المذاهب السنية الاربعة المعمول بها حتى يومنا هذا . واصحاب هذه المذاهب على حسب ترتيب وفياتهم هم : الامام ابو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، والامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، والامام الشافعى الذى مزج فى مذهبه بين طريقة اهل الحجاز وطريقة اهل العراق ، واتم مذهبه فى مصر حيث توفى سنة ٢٠٤ هـ ، والامام احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ ، وهو امام اهل الحديث فى عصره . ولكل من هؤلاء الائمة تلاميذ اخذوا الفقه عن امامهم ، والفوا الكتب على مذهبه ، وعملوا على نشره فى البلاد .

## علم أصول الفقه :

ولم يكتب الفقهاء باستنباط الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، بل وضعوا لذلك من القواعد ما يضبطها ويحكمها ، واطلقوا على مجموع هذه القواعد اسم « علم اصول الفقه » ، واول من كتب في هذا العلم الامام الشافعى .

والخلاصة ان المسلمين استنبطوا الاحكام والشرائع ، ودونوا فقههم قبل انقضاء القرن الثانى الهجرى من قيام دولتهم وهو مالم يتفق لدولة من الدول السابقة ، فالقانون الرومانى مثلا لم يستقر امره ويضبط الا زمن الامبراطور جستنيان ، اى بعد تأسيس الدولة الرومانية باكثر من عشرة قرون ميلادية .

## التاريخ

عنى المسلمون عناية شديدة بالتاريخ ؛ فالفوا فيه كتبا كثيرة ؛ وصلنا منها ما يعد بالمئات ، فضلا عما ضاع ولم يصل الينا . ونشأت رغبتهم فى التاريخ من حرصهم على معرفة سيرة الرسول واخبار الفتوح ، ونهجوا اول الامر فى تدوين التاريخ منهج المحدثين ، فأوردوا الخبر مسبوqa بسلسلة اسناده ، ثم صاروا يرتبون الحوادث بالسنين مع استبقاء الاسناد ، كما فعل الطبرى . ثم اسقطوا الاسناد ، ورتبوا الحوادث بالسنين ، كما فعل ابن الاثير . ثم اخذوا يؤرخون لكل دولة من الدول على حدة ، كما فعل ابن خلدون وتلميذه المقرئى المصرى .

ومن أشهر الكتب التاريخية « سيرة الرسول » تأليف محمد  
ابن إسحق بن عيسى بن موسى سنة ١٥٠ هـ ، وهذه السيرة وصلت إلينا مبهمة  
على يد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وسميت لذلك  
باسم سيرة ابن هشام . ومن هذه الكتب كذلك سيرة عمر بن عبد  
العزيز لابن عبد الحكم من أهل القرن الثاني الهجري ، « وكتاب  
فتوح البلدان » للبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو أفضل كتاب  
في موضوع الفتوح . والفتوح في الطبقات ، وأشهر كتبهم  
في ذلك « كتاب الطبقات الكبير » لمحمد بن سعد المتوفى سنة  
٢٢٠ هـ ، وهو في طبقات الصحابة والتابعين . أما مؤلفات المسلمين  
في التاريخ العام فأولها تاريخ ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ،  
وهو أوسع وأعظم تأليف في تاريخ الدولة الإسلامية في القرون  
الثلاثة الأولى ، وكتاب « مروج الذهب » للمسعودي المتوفى سنة  
٣٤٦ هـ ، ثم كتاب « تجارب الأمم لمكسوبة المتوفى سنة ٣٦٩ هـ ،  
ولهذا الكتاب ذيل من تأليف الوزير أبي شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ .  
ومن المادة المتجمعة في هذه الكتب وكثير غيرها استقى ابن الأثير  
المتوفى سنة ٦٣٠ هـ كتابه المسمى بالكامل في التاريخ ، وأبو الفداء  
المتوفى سنة ٧٣٢ هـ في كتابه المسمى المختصر في تاريخ البشر ، وابن  
خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ في كتابه المسمى المبتدا والخبر في أيام  
العرب والعجم والبربر .

ويؤخذ على مؤرخي المسلمين عامة أنهم قصرُوا همهم على  
أخبار الخلفاء والملوك والأمراء والحروب والفتن ، وأنهم لم يتعدوا



ذلك الى وصف الاحوال الاجتماعية والشؤون الاقتصادية والادبية ، وانهم قلما ينقدون خليفة أو حاكما مهما بلغ من الظلم والظفیان ، على انهم على العموم توخوا الصدق في روايتهم ؛ وهى مزية لهم ولا شك عظيمة .

### الاجتماع

الاجتماع هو دراسة ما تتصف به الجماعات والشعوب من مواصفات في معاشها ومحافلها ؛ واعيادها ومواسمها ، وفي كتب الرحلات والخطط والمجموعات التاريخية والجغرافية معلومات كثيرة عن هذه الاحوال ، فوصف ابن حوقل احوال جزيرة صقلية وطباع اهلها عندما زار هذه الجزيرة ، وفعل مثل ذلك ابن جبیر للاقطار التى زارها فى رحلته ، وكذلك وصف ابن بطوطة فى رحلته ما شهدته من عادات الشعوب التى زار بلادها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب . واسهب المقرئى ( توفى سنة ٨٤٥ هـ ؛ فى كتاب الخطط الشهير ؛ الاعياد والمواسم والاحتفالات الدينية للمصريين ؛ زمن الفاطميين خاصة . وكذلك اورد المقرئى ( توفى سنة ١٠٤١ هـ ) فى كتابه « نفع الطيب » فصولا متنوعة فى عادات اهل الاندلس ، فى ماكلهم ومشربهم وملبسهم ومختلف احوالهم .

واذا اردنا بالاجتماع العلم الذى يبحث فى تطور الجماعات ، ونشوء الدول وعوامل قوتها ونضجها ، ثم عوامل ضعفها واضمحلالها وسقوطها ، وبعبارة اخرى « فلسفة التاريخ »

فابن خلدون في مقدمته العظيمة خاض غمار هذا العلم ،  
وكتب فيه بتفصيل تام في اسلوب علمي ، فوافى على الغاية ،  
وهو في الواقع المؤسس لعلم الاجتماع في الشرق والغرب ، اذ  
سبقت آراؤه في هذا المجال معظم ما جاء به علماء اوربا الحديثة  
من نظريات علمية مستمدة من دراسات طويلة .

### تقويم البلدان

بلغ تجار المسلمين في اسفارهم خلال القرنين الثاني  
والثالث من الهجرة بلاد الصين برا وبحرا ، وجزيرة زنجبار  
واقاصى سواحل افريقية الجنوبية ، واوغلوا في روسيا شمالا ،  
ووصلوا الى سواحل المحيط الاطلسى غربا . ورجع اولئك  
التجار بكثير من اخبار الاقطار والشعوب التى زاروها ، فأنارت  
هذه الاخبار رغبة واسعة في معرفة هذه الاقطار وشعوبها ،  
ومن هؤلاء الراندين المسلمين سليمان التاجر ، واصله من  
سيراف الواقعة على الخليج الفارسى ، اذ سافر غير مرة الى  
الصين وسواحل الهند ، ودون وصف اسفاره مؤلف مجهول  
الاسم في كتاب مشهور ، وذلك في منتصف القرن الثالث  
الهجرى ، وهذا الكتاب اقدم وصف باللغة العربية للصين  
وسواحل الهند .

ثم ان الخليفة المقتدر بالله العباسى اوفد احمد بن فضلان  
سنة ٣٠٩ هـ الى ملك البلغاريين النازلين على ضفاف نهر الفلجا ،  
وكتب ابن فضلان وصف رحلته هذه ، واورد هذا الوصف

ياقوت الحموى فى معجمه فى مادة « بلغار » ، وهو اقدم نص  
عربى عن روسيا فى العصور الوسطى .

هكذا ابتدأت كتب الجغرافية الاسلامية المتعلقة بالاقطار  
والشعوب الاجنبية ، اما جغرافية الاقاليم الاسلامية نفسها ،  
فانشأتها عوامل اخرى ، وهى الحاجة الى وصف الطرق المتشعبة  
التي تسلكها قوافل الحجاج والتجار وغيرهم ، والى معرفة  
ابعادها ، ومراحلها ومنازلها ، والمدن التي تمر بها . ثم ان  
توظيف الخراج على كل اقليم اقتضى مسح هذا الاقليم وبيان  
عامرة وغامرة ، وانواع غلاته وحاصلاته ، فبعث ذلك على الكتابة  
فى وصف اقاليم الدولة الاسلامية فى تفصيل . ولذا دار اكثر  
الكتب الجغرافية التي كتبت فى القرنين الثانى والثالث من  
الهجرة حول الوصف الطبغرافى لكل اقليم ، ومن هذه كتاب  
« المسالك والممالك » لابن خرداذبة ، و« كتاب الخراج » لقدماء بن  
جعفر .

ثم نقل بعض المترجمين كتاب « الجغرافية » لبطليموس من  
اليونانية فى صدر الدولة العباسية ، فتأثرت الجغرافية الاسلامية  
به تأثيرا كبيرا . ونسج على منوال بطليموس محمد بن موسى  
الخوارزمى فى كتابه « صورة الارض » ثم طلب الخليفة المامون  
الى الخوارزمى ان يضع لكتابه هذا مصورا جغرافيا ، فقام  
بهذا العمل مع تسعة وستين عالما فيما يروى ، وهو اول مصور  
جغرافى عربى للدولة الاسلامية واقليمها . واثرت كتاب الخوارزمى

بدوره في جغرافى العرب في القرن الرابع الهجرى ، ولا سيما  
الاصطخرى في كتابه « مسالك الممالك » ، وابن حوقل في كتابه  
« المسالك والممالك » وكذلك المقدسى في كتابه « احسن التقاسيم في معرفة  
الاقاليم » ، وزين هؤلاء الجغرافيون كتبهم بالخرائط ، وذكروا  
العروض والاطوال ؛ والاقاليم السبعة ، وغير ذلك مما هو  
مقتبس من كتاب بطليموس .

ويعد ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ خاتمة كبار  
الجغرافيين الاسلاميين بالشرق ، فهو مؤلف « معجم البلدان »  
الذى يعتبر اعظم قاموس جغرافى في العصور الوسطى ، لانه  
كنز معلومات جغرافية واسعة ؛ وذلك فضلا عما فيه من  
معلومات تاريخية وادبية فريدة .

واعتنى اهل الاندلس والمغرب عناية كبيرة بالجغرافية  
والرحلات خاصة ، وظهر فيهم جغرافيون لا يقلون شانا عن  
جغرافى المشرق .

### علم الكلام

قام الى جانب المحدثين والفقهاء طائفة ثالثة من علماء الاسلام  
هى جماعة « المتكلمين » ؛ اصحاب علم الكلام ؛ وسرعان ما ظهر  
الخلافا واشتدت الخصومة العلمية بين فريق المحدثين والفقهاء  
من جهة وفريق المتكلمين من جهة اخرى . وقيل في تسمية هذا  
العلم الجديد انه سمي بذلك ؛ لانه علم نظرى لا عملى ، وسمى

ايضا بعلم التوحيد ؛ لانه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق  
ونفى الصفات عنه سبحانه وتعالى . ويسمى علم الكلام ايضا بعلم  
اصول الدين ؛ لانه يبحث في اصل العقائد من اثبات وجود الله ،  
ومسألة القضاء والقدر وغيرهما .

والمعتزلة هم مؤسسو علم الكلام وهم الذين حملوا لواءه قرابة  
قرن ونصف قرن من الزمان ( ١٠٠ - ٢٤٠ هـ ) . ويرجع اصل  
تسميتهم الى واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس استاذة حسن  
البصرى بمسجد البصرة ، لاختلافه معه في الراى ، ولزم هذا  
الاسم اتباع واصل بن عطاء وفرقته الجديدة ، واطلق عليهم في  
صدر الدولة العباسية اسم المتكلمين . وتتلخص آراء المعتزلة في  
القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر ، واعتباره في منزلة بين المؤمن  
والكافر . وقالوا بالقدر ، اى ان الله لا يخلق افعال الناس ، وانما  
هم الذين يخلقون افعالهم ، وانهم من اجل ذلك يثابون او يعاقبون  
على عكس ما قال به خصومهم من المحدثين والفقهاء الذين تغالوا في  
سلب الانسان قدرته وحرية في التصرف . ولذا قال المعتزلة  
بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ودعاهم الى  
وضع هذا المبدأ ما راوا من جمود بعض الفقهاء على ما ورد من  
حديث ولو موضوع ، ووقوفهم عند النصوص ، فاذا لم يجدوا  
نصا لم يجرءوا على ابداء راي فيما هم فيه .

وقال المعتزلة كذلك بالتوحيد المحض ؛ فنفوا ان يكون لله  
تعالى صفات ازلية من علم وقدره وحياة وسمع وبصر غير ذاته ؛

بل ان الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ؛ وليست هناك صفات زائدة على ذاته ؛ وربما دعاهم الى هذا القول ما شاع في عصرهم من ذهاب قوم الى تجسيم الله تعالى ، واثبتت صفات له كصفات المخلوقين من بصر وسمع ومكان وغير ذلك .

ونزل الاضطهاد بالمعتزلة اول الامر في الدولة الاموية ، غير انهم اخذوا يعملون على نشر آرائهم بدعاة لهم ، فنقدت حالهم حتى اعتنق مذهبهم الخليفتان الامويان يزيد بن الوليد ومروان بن محمد الذى لقب بالجمدى ؛ لآخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلى ، وذلك اواخر الدولة الاموية .

ثم انتشر الاعتزال من البصرة الى سائر العراق ؛ وصار له في العصر العباسى الاول فرعان ؛ احدهما بالبصرة نفسها بزعامه واصل بن عطاء ( المتوفى سنة ١٨١ هـ ) وابو الهذيل العلاف والنظام والجاحظ ، وثانيهما ببغداد بزعامه بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ هـ ) ، وثمامة بن الاشرس ، واحمد بن ابي داود . واستمد هؤلاء جميعا من كتب المنطق والفلسفة اليونانية التى ترجمت في العصر العباسى الاول ، وانتفعوا بها في الجدل والاحتجاج لآرائهم ؛ وفي الانتصار للاسلام والرد على الملاحدة ، والزنادقة الذين رفعوا رءوسهم وقتذاك . وبلغ اولئك المتكلمون المعتزلة قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسيين الثلاثة ، المأمون والمعتصم والواثق . ذلك ان المأمون اخذ بقولهم بخلق القرآن ، اى انه مرتبط بالحوادث التى اقتضت نزوله ؛ وذلك ردا منهم على

المحدثين والفقهاء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله ، وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى . وبالغ المأمون في الاخذ بنظرية المتكلمين واضطهد وعذب من لم يقل بخلق القرآن ، وتابعه في ذلك المعتصم والواثق ، وعظمت الفتنة واشتدت المحنة . ثم وضع الخليفة المتوكل حدا لتلك المحنة ؛ اذ نهى الناس عن الخوض في هذه المسألة ؛ وامرهم بالعود الى السنة والجماعة ، والاخذ بالتسليم والتقليد .

والخلاصة ان المعتزلة وعلماء الكلام اطلقوا لعقولهم عنان البحث في حدود الدين ؛ وانهم قاوموا بذلك جمود خصومهم ؛ وانهم ردوا على الثنوية والدهرية والملاحدة ؛ وانهم في سبيل اقناع خصومهم والزامهم الحجة اسسوا قواعد البحث والمناظرة ، ووضعوا اصول علم البيان والبلاغة العربية . غير انه يؤخذ عليهم انهم صدموا العامة بأرائهم في مسائل قصرت عقولهم عن فهمها ، فلم يجتذبوا احدا منهم الى جانبهم ، ومات مذهب المعتزلة نهائيا عندما انفصل عنهم احد كبرائهم ، وهو ابو الحسن الاشعري ( المتوفى ببغداد ٣٣٣ هـ ) ، اذ عاد الى السنة ، وحمل على المتكلمين حملة شعواء ؛ فلم تقم للاعتزال او علم الكلام قائمة بعد ذلك .

### الفلسفة

تأخر تضحج الفلسفة عند المسلمين بالقياس الى العلوم الاخرى ؛ لان الفلسفة اليونانية التي استندوا اليها في فلسفتهم لم تنتقل

كتبها الى اللغة العربية الا في عصر المأمون على وجه العموم .  
وحرص فلاسفة المسلمين على التوفيق عموما بين الفلسفة  
والدين ، لا الانتصار لاحدهما على الآخر ، واشهر فلاسفة الاسلام  
في المشرق الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وجماعة اخوان  
الصفاء .

فالكندي ( المتوفى حوالي منتصف القرن الثالث ) هو ابو يوسف  
يعقوب بن اسحق ، العربي الاصل ، يتصل نسبه بملوك العرب  
الاقدمين من كندة ، ولذلك سمي « فيلسوف العرب » .  
ونشأ الكندي بالكوفة مسقط راسه ؛ وانزله المأمون والمعتصم  
والوائق عندهم منزلة عظيمة . وحاول الكندي في مذهبه  
الفلسفي ان يجمع بين آراء افلاطون وارسطو ، واعتبر  
الرياضيات الفيثاغورية اساس العلم كله . ولم يكن الكندي فيلسوفا  
فحسب ؛ بل اشتغل بالنجوم والكيمياء والموسيقى النظرية والبصريات  
اما ابو نصر الفارابي ( المتوفى سنة ٣٣٩ هـ بدمشق ) ، فهو  
تركي الاصل ، اصله من مدينة فاراب ، باقليم ما وراء النهر ؛  
وازدانت به حاشية سيف الدولة الحمداني بحلب ، ومذهبه  
الفلسفي هو المزج بين الافلاطونية والارسطوطاليسية والتصوف  
الاسلامي ، مما جعل العلماء يسمونه المعلم الثاني ( والاول هو  
ارسطو ) . وللفارابي في السياسة « رسالة في آراء اهل المدينة  
الفاضلة » ، و « كتاب السياسة المدنية » ، وكلاهما متأثر



بكتاب الجمهورية لافلاطون ، وكتاب السياسة لارسطو .  
وتتلخص آراء الفارابي السياسية في ان المدنية الفاضلة تشبه  
في تكوينها جسم الانسان ، فالحاكم يشبه القلب يخدمه  
موظفون دونه ، وهؤلاء يخدمهم من دونهم ، والغرض من  
الاجتماع في المدينة الفاضلة هو اسعاد اهْلِها . وللفارابي مثل  
الكندي كتب في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى ؛  
ويحكى عنه انه حضر مرة مجلس سيف الدولة ، فاخرج عوده  
وعزف عليه ، فاضحك كل من في المجلس ، ثم عزف ثانياً  
فابكاهم ، ثم عزف ثالثة فانايمهم ، ثم تركهم نياما وانصرف .

وابن سينا ( المتوفى سنة ٤٢٨ هـ بهمدان ) هو الشيخ الرئيس  
ابو علي الحسين امام الفلسفة والطب كذلك في عصره ، ومولده  
بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠ هـ . واتفق ان مرض نوح بن  
منصور ملك الدولة السامانية ، فاستقدم الطبيب ابن سينا  
فبرىء على يده . وكان لهذا الملك مكتبة عظيمة ، فاستوعب  
ابن سينا ما فيها من الكتب قراءة ودراسة ، ثم جعل ينتقل  
في البلدان ويؤلف التأليف المتنوعة ، واشهرها كتاب «القانون»  
الذي حوى اهم ما عرف من علوم الطب وخصائص العقاقير  
والتشريح وغيرها عند العرب . ومن تأليفه الفلسفية شرح  
كتاب النفس وما بعد الطبيعة لارسطو ، وله كتاب الاشارات ،  
والقصيدة العينية المشهورة في الروح . واشتهر ابن سينا عند

الاوربيين باسم افيسنا ، وذاعت مؤلفاته بينهم في الطب  
والفلسفة بعد ترجمتها الى اللاتينية .

واما جماعة اخوان الصفا ، فهي جماعة فلسفية سرية لها  
ميول باطنية سياسية . وتكونت هذه الجماعة في البصرة حوالى  
منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم صار لها فرع في بغداد ،  
ومن اخبارها ان اعضاءها وضعوا اثنتين وخمسين رسالة في  
الرياضيات والفلك والجغرافية والموسيقى والاخلاق والفلسفة .  
وتعتبر هذه الرسائل خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد  
اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهنود ، وتعديلها على  
ما يقتضيه الاسلام . ولكتابات هذه الجماعة تأثير كبير في ابي  
العلاء المعرى ، و ابي حيان التوحيدى ، و ابي حامد الغزالى ،  
وغيرهم من مفكرى القرنين الرابع والخامس من الهجرة .

وتجرد ابو حامد الغزالى ( المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ) لمحاربة  
الفلاسفة والرد عليهم بحججهم ومنطقهم ، بعد ان احاط بكل  
علوم عصره ، فهاجمهم دون هوادة في كتابيه « مقاصد  
الفلاسفة » ، ثم كتاب « تهاافت الفلاسفة » ، ولم تقم للفلسفة  
بعد ذلك قائمة في المشرق برغم لمعان وميضها في المغرب والاندلس ،  
بفضل ابن رشد وغيره من الفلاسفة الاندلسيين ؛ وابن رشد  
هو الذى سماه الاوربيون افيروس ، واطلقوا على مذهبه اسم  
الافيروسية ذات الاثر الكبير في التطور الفكرى في جامعة باريس  
وغرب اوربا في القرن الثانى عشر الميلادى .

### الفلك والرياضيات

ابتدأ اشتغال المسلمين بالفلك بعد ان اطلعوا على ترجمة كتاب « سند هند » الذي جلبه عالم هندي الى بلاط المنصور العباسي ( حوالي ٧٧١ م ) ، واصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين في الفلك ، بعد ترجمته على يد محمد بن ابراهيم الفزارى ؛ الذي يرجع اليه الفضل كذلك في استخدام الاسطرلاب اليوناني الاصل في رصد الكواكب والاجرام السماوية ، ثم وصلت التقاويم الفهلوية الى المسلمين مترجمة الى العربية في عصر الدولة السامانية ، ولكن المسلمين تأثروا بالفلك اليوناني بعد ترجمة كتاب المجسطى لبطليموس في القرن التاسع الميلادي .

وانشأ المسلمون المراصد لدراسة الفلك دراسة علمية عملية ، واولها مرصد جند يسابور اوائل القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) ، ثم انشأ الخليفة المأمون دارا للرصد في بغداد ؛ لدراسة حركات الاجرام السماوية . فحقق الفلكيون المسلمون مسائل كثيرة واردة في المجسطى ، واستطاعوا تقدير الدرجة العرضية الارضية بمسافة طولها  $\frac{2}{3}$  ٥٦ ميل . وامكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الارضية ونصف قطرها ، واسهم الخوارزمي العالم الرياضى المشهور في هذه العملية

ثم تعددت المراصد الفلكية في الدولة العباسية ، فصاح ابو عبد الله البتاني ؛ وهو من صائبة حران ، في مرصد مدينة الرقة ، حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب ، وحدد طول

السنة المدارية والفصول ، ومدار الشمس الحقيقي والمتوسط .  
وبعد ابو الريحان البيروني ( ٩٧٣ - ١٠٤٨ م ) ، الذي عاش  
في مدينة غزنة بافغانستان ، اعمق المفكرين الاسلاميين في ميدان  
العلوم الفلكية والطبيعية ؛ فالف لمولاه السلطان مسعود بن  
محمود الفزنوي كتابا في الفلك سماه « القانون المسعودي في  
الهيئة والنجوم » . والف البيروني كذلك كتاب « الآثار الباقية  
عن القرون الخالية » ، وهو دراسة في تقاويم الشعوب القديمة ،  
وبحث في غير هذا الكتاب من مؤلفاته نظرية دوران الارض حول  
محورها ، ووصل الى تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض .  
وطاف البيروني في بلاد الهند ، ودرس احوالها وعادات أهلها  
وعقائدهم ، ووضع في ذلك كتابه العظيم « تحقيق ما للهند من  
مقوله » ، وهو الكتاب الذي لم يؤلف مثله في اى لغة من اللغات  
غير العربية .

اما عمر الخيام ( ١٠٣٨ - ١١٢٤ م ) الذي اشتهر بانه شاعر  
عظيم ، فهو الى جانب نبوغه في الشعر رياضى وقلكى من الطراز  
الاول ، وعهد اليه السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى  
اصلاح التقويم الفارسى القديم ، في مرصده الذي انشاه بمدينة  
الرى سنة ٤٦٧ هـ . واسفرت بحوث الخيام واعوانه عن اخراج  
تقويم سماه « التاريخ الجلالى » نسبة الى السلطان جلال الدين ،  
وهو يفوق في دقته التقويم الجريجورى .  
واما الارقام العددية والحساب ؛ فكان وصولهما من الهند

زمن الخليفة العباسي المنصور ، مع كتاب السند هند ، وبذا دخل علم الحساب الهندي بنظامه وارقامه المعروفة في العربية بالارقام الهندية ، وكذلك نظام الصفر . غير ان المسلمين ظلوا زمنا يعبرون عن الارقام بالحروف ، ثم اهتموا الى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التربيعية والتكعيبية ؛ فاحلوا الارقام الهندية نهائيا لسهولتها محل الحروف .

واعظم علماء المسلمين في تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي ( ٧٨٠ - ٨٥٠ م ) ، وهو مؤلف اقدم كتاب عربي في الحساب ، وكذلك اقدم كتاب في علم الجبر ، وهو معروف « بكتاب الجبر والمقابلة » الذي حمل معه اسمه العربي وهو « الجبر » الى الجامعات الاوربية ، بعد ترجمته الى اللاتينية . وتأثر الخيام بالخوارزمي في علم الجبر ، وزاد عليه حولا لكثير من المعادلات الهندسية والجبرية من الدرجة الثانية ، وبواسطة مؤلفات الخوارزمي انتقلت الارقام العربية الى اوربا .

### العلوم الطبيعية

#### الكيمياء :

ابتكر العرب في الكيمياء نظام التجربة ، بيد انهم لم يصلوا في الكيمياء الى نظريات ونتائج حاسمة كالتى وصلوا اليها في الرياضيات . واسس علم الكيمياء العربي جابر بن حيان بمدينة الكوفة حوالى سنة ٧٧٦ م واتضح من الكتب التى ألفها بنفسه انه ادرك قيمة التجربة في الكيمياء وانه

وصف كلا من التكليل والتحويل وصفا علميا ، وانه ادخل تحسينات جديدة على الطرائق القديمة للتبخير والتصفيد والاذابة والبلورة ، وانه عرف تركيب حمض الكبريتيك وحمض النيتريك ، وكيف يمزجها ليخرج منهما ما يعرف بالماء الملكي الذي يمكن ان يذاب فيه الذهب والفضة . وبالاختصار عدل جابر بن حيان نظرية ارسطو في تركيب المعادن، وظلت طريقته قائمة مع شيء من التغيير حتى اوائل عهد الكيمياء الحديثة في غرب اوربا في القرن الثامن عشر الميلادي . وحذا جابر حذو من سبقوه من الكيميائيين المصريين واليونانيين في افتراض ان المعادن الخسيسة يمكن تحويلها الى ذهب او فضة ؛ ولم يزد الكيميائيون المسلمون بعد جابر بن حيان على ذلك وغيره على الكيمياء العربية الا اليسير ، وظلوا يواصلون البحث عما كانوا يرجون تحقيقه وهو حجر الفلاسفة واكسير الحياة من مختلف المعادن والعقاقير .

### الفنون والعمارة

لم تكن للعرب في جاهليتهم فنون بالمعنى الذي يدل عليه هذا اللفظ ، ما عدا الشعر والخطابة في اللغة العربية الفصحى ، اذ تدل اوصاف قصورهم في اليمن ، واوصاف مبانيهم في الحيرة على انها جميعا شيدت على الفن الفارسي او الفن البيزنطي . ثم شهد العرب خلال فتوحهم الكبرى من اثار الفرس والروم ما ادهشهم ، ومن هذه ابوان كسرى بالمدائن ، وكنائس الشام

ومصر : فحفزهم كل ذلك الى ان يشيدوا في حواضر دولتهم  
افخم المباني على نحو ما يلائم مزاجهم العربى ويوافق دينهم  
الاسلامى ، فانشا الوليد بن عبد الملك المسجد الاموى بدمشق ،  
واختط سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة بفلسطين ، وبنى  
جامعها المشهور . وسبق على هذا وذلك تشييد عبد الملك  
بن مروان قبة الصخرة ببيت المقدس ، ونشا فى كل اقليم  
اسلامى كبير مسجد جامع على نموذج المسجد النبوى بالمدينة  
وذلك من حيث التصميم والتكوين لا من حيث الزخرفة واحكام  
البناء . والملاحظ فى عمارة الامويين عموما انها تأثرت بالفن  
البيزنطى ، بل تذكر المصادر التاريخية صراحة ان الخلفاء  
الامويين استعانوا بالمهندسين والعمال البيزنطيين  
فى انشاء المساجد والقصور ، ومن هذه القصور  
القبة الخضراء التى شيدها معاوية بدمشق ، وقصور المشتى  
وقصر عمرة والرصافة التى بناها خلفاء معاوية فى شرق الاردن  
وبادية الشام بالقرب من مدينة الرقة ، وهى القصور التى  
اكتشفت مواضعها واثارها من عهد قريب .

ولم يكن العباسيون اقل اهتماما من الامويين بالعمارة ، فبنى  
المنصور بغداد وابتنى فيها هو ومن جاء بعده من خلفاء العصر  
العباسى الاول عددا من المساجد والقصور ، وجميعها زال  
ولم يبق منه شئ الا وصف المؤرخين . اما سامرا التى اختطها  
العتصم ، ونزلها بجنده التركى ، فلا يزال مسجدها قائما

بمئذنته الشهيرة للدلالة على مدى تأثير الفن العراقي القديم  
في مباني العباسيين ؛ وذلك فضلا عن الفنون الساسانية  
والهندية والصينية .

### التصوير والنحت :

والمعروف ان علماء المسلمين الأولين اعتبروا تصوير الانسان  
والحيوان مكروها ، دون ان يفتوا بتحريمه . والظاهر ان خلفاء  
بنى امية وبنى العباس ترخصوا في ذلك ، اذ توجد بجدران  
قصر المشتى صور آدمية متقنة ؛ وكذلك بجدران القصر الذي  
بناه المعتصم في سامرا حسبما ورد في اوصاف المؤرخين . وبنى  
الخليفة الامين قوارب لنزهته في دجلة على هيئة الاسد  
والنسر والدلفين ، كما اشتمل قصر المقتدر بالله على تماثيل  
فرسان متحركة بخيلها تتقدم وتتاخر كما في الحرب ، بل وصل  
الينا بعض الكتب العربية موضحة بالصور ، ومنها كتاب  
كثيرة ودمنة ومقامات الحريري .

### الزخرفة والخط العربي :

استعاض جمهور المسلمين عن النحت والتصوير بالزخرفة  
التي لم يكن عليهم فيها جناح ، احتراما لتزمت الفقهاء في هذا  
الصدد ، فزخرفوا المساجد والمباني بأشكال هندسية او نباتية  
مؤلفة على نحو يجعلها جميلة في عين الناظر اليها ، كما وجدوا  
عوضا ثانيا في الخط العربي بعد ان صار فنا جميلا على يدخطاطين  
مشهورين ، ومنهم ابن مقلة وابن هلال وابن البواب وياقوت



المستعصى . وبفضل العناية بالخط العربي لاغراض الزخرفة  
اصبح نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فنا قائما بذاته ؛  
واستمر ذلك الى اوائل القرن الحالى .

### الفنون الصناعية :

وبرع المسلمون فى النسيج وصناعة الخزف والقاشانى والزجاج  
وغير ذلك من صناعات البلاد التى تم لهم فتحها . وفى متاحف  
العالم الكبيرة ؛ والمتحف العربى بالقاهرة ، ومتحف دمشق ؛  
مجموعات من كل صنف رائعة ؛ وهى تدل على درجات متفاوتة  
من تأثير الفنون الصناعية البيزنطية والفارسية والقبطية فى فنون  
المسلمين ، فى عصر ازدهار الدولة الاسلامية .

### الموسيقى :

عرف العرب فى جاهليتهم نوعا من الغناء وهو الحداى يستعملونه  
فى اسفارهم فى البوادمى والغفار ، استحثاثا للابل وطرادا للوحشة ؛  
كما عرفوا الانشاد لاقاء الشعر خاصة . وورد فى كتب السيرة  
انهم عرفوا كذلك النقر على الدف ؛ وهو لون بدائى من الموسيقى .  
فلما جاءت الاسرى من الفرس والبيزنطيين والسريان فى صدر  
الاسلام الى المدينة نقلوا معهم غناءهم وموسيقاهم ؛ فلقفها منهم  
بعض الرجال والنساء من العرب ؛ وانتقلت الالحن الفارسية الى  
الغناء العربى . وظهر فى العصر الاموى نوابغ فى الغناء على هذا  
النحوبين رجال وقيان ، ومنهم المغنى معبد ، والمغنية ذات الخال  
وكثير غيرهم .

وذاعت الموسيقى العربية حتى بلغت الغاية في العصر العباسي  
الاول ؛ على يد ابراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وذلك بتشجيع  
الخلفاء لهذا الفن الجميل ، رغم معارضة الفقهاء . وتعددت آلات  
الموسيقى وتنوعت في البلاد الاسلامية ، ومنها الدف والطنبور  
والعود والرباب والصنج والناى والقيثار والارغول . وبرع في  
الموسيقى من المسلمين الكندي والفارابي ، واكتملت بهما الموسيقى  
العربية من الناحيتين العملية والنظرية . غير انه مما يؤسف له  
ان هذه الموسيقى العربية ذهبت اسرارها ، ولم يبق منها الا رموز  
غامضة في كتاب الاغانى ونحوه ، وذلك لان الموسيقيين المسلمين  
لم يدونوا الحانهم « بالنوتة » ، كما هي الحال في الموسيقى  
الحديثة .

### حركة الترجمة في الدولة الاسلامية

لم تقم الترجمة في تاريخ الفكر الانساني كله بمثل الدور الذي  
قامت في الدولة الاسلامية ، في مرحلتين متباعدتين من الزمن ؛  
الاولى مدة العصر الاموي والعصر العباسي الاول ؛ اى القرنين  
الثامن والتاسع . والثانية مدة القرنين الثاني عشر والثالث  
الميلادي .

وفي المدة الاولى اتصل المسلمون بالسريان ، وشهدوا مدارسهم  
في انطاكية وقيصرية ونصيبين والرها زمن الامويين . فلما كان  
زمن العباسيين الاوائل ازداد اقبال المسلمين على دراسة العلوم  
المترجمة بهذه المدارس ، فترجمت للخليفة المنصور كتب في الطب

والنجوم عن السريانية . ثم شجع البرامكة نقل المؤلفات الفارسية والسريانية الى العربية ؛ وجاء المأمون فسلك مسلكا جديدا بانشاء « بيت الحكمة » في بغداد للدراسة والبحث على مثال مدارس السريان . ثم انه احب ان تنقل كتب الفلسفة اليونانية راسا دون وساطة لغة اخرى كالسريانية او غيرها ، فارسل الى امبراطور الدولة البيزنطية وقتذاك يساله ان ينفذ اليه ما يختار من الكتب القديمة ، فاجابه الى ذلك بعد امتناع . وامر المأمون بنقل هذه الكتب الى العربية في اسرع وقت وجعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة .

واقتردى بالمأمون كثير من رجال الدولة ، وجماعة من اهل الوجاهة والثراء من المسلمين ، فتقاطر المترجمون من انحاء العراق والشام وفارس الى بغداد ، ومنهم النساطرة والعاقبة والصائبة والمجوس والبيزنطيين والبراهمة ؛ وترجموا من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية الى اللغة العربية ؛ واقبل الناس على الاطلاع على هذه الكتب والبحث فيها ايما اقبال .

وترتب على حركة الترجمة وذبوع الكتب المنقولة الى اللغة العربية ان اتاحت الفرصة للمسلمين تصحيح اغلاط القدماء في كثير من المواضع ، كما اضافوا من عندهم اضافات وابتكارات قيمة ، ولا سيما في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وانتقل هذا التراث العربي الى الاندلس ، فقام كثير من اليهود الاندلسيين

بترجمة كتب المسلمين في الفلسفة وغيرها الى العبرانية واللاتينية ، ولاسيما زمن الفونس السادس ملك قشتالة (اسبانيا) بعد استيلاء هذا الملك على مدينة طليطلة من بعض ملوك الطوائف المسلمين سنة ١٠٨٥ م . وكان كبير اساقفه طليطلة رجلا واسع الفكر ، اسمه ريموند ، واحب ان ينتفع المسيحيون من المسلمين ، فانشا في طليطلة معهدا لترجمة العربية اللاتينية ، فترجمت كتب ابن رشد وفلاسفة المشرق .

وفي سنة ١٢٢٤ م اسس الامبراطور فردريك الثاني المعروف بشدة ميله الى الثقافة الاسلامية جامعة نابلي ، لنشر الكتب العربية الاسلامية في العالم الغربي المسيحي . وانتشرت هذه الكتب في ترجمتها اللاتينية بين امهات الجامعات الفرنسية والاطالية والانجليزية ، واحدثت اثرا قويا في تفنيق الازهان وتحريرها من قيود رجال الكنيسة وخاصة في ايطاليا ، وبذلك تمهد الطريق الى النهضة الاوربية الكبرى ، وحركة الاصلاح الديني ، وبهما بتدريج الحضارة العالمية الحديثة .

## الفصل الثالث

### الحركات الاستقلالية في الدولة الإسلامية

#### الفرق الإسلامية :

نشأت من مسألة الخلافة أهم الفرق الإسلامية ، ثم أثرت هذه الفرق تأثيرا كبيرا في سياسة الدولة ومصائرهما . فالسنة والشيعة والخوارج أسماء اصطلاحية ظهرت في جوف الدولة الإسلامية نتيجة حوادث معينة وانقسامات في الرأي في زمن الخلفاء الأربعة .

#### السنة :

أما أهل السنة والجماع فهم غالبية المسلمين ، وهم الذين رضوا بما تم في انتخاب الخلفاء الأربعة ، والتزموا أحكام القرآن ، وما سنه الرسول عليه السلام في حياته للدولة الإسلامية من القواعد الدينية والمدنية . ووضع أهل السنة والجماع بذلك أسس الخلافة الإسلامية التي سار على مقتضياتها العامة خلفاء الأمويين والعباسيين والأتراك العثمانيين ، برغم ما طرأ على الخلافة نفسها من نظام ولاية العهد وتوريث الحكم لابناء الخلفاء أو أخوتهم ، وما دخل عليها من مظاهر ورسوم غريبة على الإسلام .

#### الشيعة :

أما الشيعة فممنشؤها الرأي القائل بأحقية علي بن أبي طالب

بمنصب الخلافة دون غيره من الصحابة ، اذ رأى بعضهم انه افضل من ابي بكر وعمر وعثمان . ثم اخذ اتباع علي بن ابي طالب وشيعته يضعون النظريات لتبرير آرائهم في الخلافة واحقية علي وابنائهم من بعده بها ، حتى صارت الشيعة مذهبا دينيا مناهضا لمذهب السنة .

وتلمس الشيعة في احاديث الرسول وحياته ما يؤيد دعواهم ، فقالوا ان الخلافة او امامة المسلمين امر لا يمكن ان يترك للأمة لتبدي رأيها فيه ، وان الامامة ركن من اركان الدين حددها الرسول الكريم بنفسه ، وان النبي اشار الى علي بن ابي طالب باعتباره خليفة واماما من بعده . واستشهدوا بنصوص من الاحاديث والقرآن ينقلونها ويشرحونها ، فقالوا ان كلا من ابي بكر وعمر وعثمان مغتصب للخلافة ، وان عليا هو الامام بعد محمد ، وان عثمان كمية مجهولة . وغالى بعض الشيعة في تبرير احقية علي بالخلافة ، حتى اضعف عليه بعضهم صفات التقديس والالوهية ، واختلف الشيعة في ترتيب الائمة بعد علي بن ابي طالب ، ونشأت بينهم فرق عديدة ، لكل منها رأيها الخاص . وكان اهم هذه الفرق الزيدية اتباع زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين ابن ابي طالب ، وفرقة الامامية الاثنا عشرية التي تقول بان اثنى عشر اماما بعد علي بن ابي طالب ، والامامية السبعية المعروفة كذلك باسم الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر السابق ، وهذه الطائفة من الشيعة هي التي يتزعمها آغا خان في العصر الحاضر . وانضم الى هذه الفرق احيانا بعض العناصر

المعادية للدولة الاسلامية ، متخذة من الدعوة لال البيت ستارا  
تخفى وراءه اهدافها الحقيقية ، وتفكيك عرى الدولة .

وناضلت فرق الشيعة الامويين والعباسيين ، ونجحت في  
تأسيس دويلات لها رغم مالقته من عسف واضطهاد . فعلت  
شوكة الزيدية في طبرستان واليمن ، وظل اتباع الائمة الاسماعيلية  
يكافحون سرا حتى قوى نفوذهم على عهد عبيد الله المهدي ،  
مؤسس الدولة الفاطمية بشمال أفريقيا ومصر . اذ جهر بالدعوة  
الى الشيعة ، ونجح في تأسيس دولة شيعية جعلت الخلافة  
الاسلامية خلافتين متناضلتين زمنا طويلا ، احدهما الخلافة  
العباسية ومقرها بغداد ، والاخرى الخلافة الفاطمية ومقرها  
القاهرة .

### الخوارج :

في اثناء النزاع بين علي ومعاوية ظهرت طائفة الخوارج ، عقب  
وقعة صفين سنة ٦٥٧ م ، اذ اختلف انصار علي بن ابي طالب في  
قبول تحكيم كتاب الله ، وهو التحكيم الذي طالب به معاوية بن  
ابن سفيان حسما للنزاع وايقانا للقتال ، وذلك عندما احس  
بقرب الهزيمة في واقعة صفين . ولذا لم يوافق فريق من  
المحاربين من جند علي بن ابي طالب على اجتماع ابي موسى الاشعري ،  
ممثلا لعلي بن ابي طالب ، مع عمرو بن العاص ، ممثلا عن معاوية  
ابن ابي سفيان ، للتفاوض والتحكيم في الخلاف . واشتهرت

هذه الفئة التي رفضت التحكيم باسم الخوارج ، لخروجها على صفوف جيش علي بن ابي طالب .

ورفض الخوارج التحكيم بتاتا ، ونادوا بان الخلافة حق لكل مسلم حر ، ولو كان عبدا حبشيا ، وانه لا يجوز لخليفة ان ينزل من منصبه بعد انتخابه ، ولكن يصح عزله او قتله اذا جار او اساء استخدام سلطته . واشتهر الخوارج بالتعصب لمبادئهم والتحمس الشديد لها ، حتى حاربهم علي بن ابي طالب ، وقضى على حركتهم مؤقتا في وقعه النهروان سنة ٦٥٩ م . لكن احدهم واسمه عبد الرحمن بن ملجم اغتال عليا بن ابي طالب ، انتقاما لما حدث في هذه الواقعة . وتفرق الخوارج في البلاد الاسلامية ، ولا سيما في البحرين والاحساء بجنوب شبه جزيرة العرب ، واخذوا يدعون الى مبادئهم السياسة وذابوا على قض مضاجع الدولة الاسلامية ، فثاروا في وجه الخلفاء الامويين ، غير معترفين باحقيتهم في الخلافة ، وهاجموا الخلفاء العباسيين كذلك .

وظل الخوارج مصدر المتاعب للخلافة ، اذ انضم اليهم كثير من اهل الولايات ، اعجابا بنظريتهم الجمهورية في انتخاب الخليفة ، واتخذوا من مبادئهم ستارا لتحقيق مآربهم في الخروج على الخلافة . وغدا للخوارج فرق عديدة في البلاد الاسلامية اهمها الازارقة اتباع نافع بن الازرق ، والاباضية اتباع عبد الله بن اباض التميمي ، والصفرية اتباع زياد بن الاصفر . واتسع نفوذ الفرقتين الاخيرتين في تونس ببلاد المغرب ( شمال افريقيا ) ،



وتمهدت بثوراتهم المتكررة الطريق امام الدول المستقلة التي قامت  
بتلك البلاد .

### المرجئة :

ثم ظهرت فرقة المرجئة ، وهي حزب سياسي وسط معتدل .  
عرف اصحاب هذا الحزب ان يغمسوا ايديهم في الفتن والآراء  
التي اثارها كل من الخوارج والشيعة . وترجع نواة هذه  
الفرقة الى طائفة من الصحابة الذين امتنعوا عن الدخول في  
النزاع الذي قام بعد مقتل عثمان بن عفان حول الخلافة ، فلم  
يميلوا الى جانب دون آخر . واشتهروا بالمرجئة لانهم ارجأوا  
الحكم على اتباع الخوارج والشيعة واهل الفتنة والقتل من  
المسلمين الى يوم القيامة ، حين يفصل الله فيما شجر بينهم  
من خلاف .

وبحثت فرقة المرجئة امورا دينية تهدف الى تحديد معنى  
الايمان والكفر ، والمؤمن والكافر . وجاءت ابحاثهم مخالفة للاراء  
الدينية التي نادى بها الخوارج والشيعة لتبرير دعوتهم  
السياسية . فلم يوافقوا الخوارج فيما ذهبوا اليه من تكفير  
الخلفاء ، ولم يؤمنوا بما قاله الشيعة من ان امامة علي بن ابي  
طالب ركن اساسي من اركان الدين . واتفق رأيهم الديني مع  
مذهبهم السياسي ، وهو عدم الجزم بكفر انسان او ايمانه ،  
لان الله هو الذي يزن عمله في الميزان .

### المعتزلة :

ونشأت فرقة اخرى تنادى بتحكيم العقل فيما نشب بين المسلمين من خلاف حول الخلافة . واشتهرت هذه الفرقة باسم المعتزلة ، وبنيت نظريتها السياسية على الآراء الفلسفية التي شاعت في صدر الاسلام حول حرية الانسان ، وهل هو مخير او مجبر في اعماله . اذ انتشر بين الناس اذ ذاك مذهبان ، احدهما ينادى اتباعه بأن الانسان حر الارادة ، له قدرة على اعماله ، ويطلق عليهم اسم القدرية . والآخر يرى اتباعه ان الانسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة وان الله كتب عليه اعمالا لا بد ان تصدر عنه ، ويسمون بالجبرية .

ثم ذابت هاتان الفرقتان في معترك التفكير السياسي ، وقامت على اثرهما فرقة المعتزلة ، التي ترتبط تعاليمها بما نادى به القدرية . ولذا قال المعتزلة ان للانسان قدرة تدفعه على اداء الافعال دون قيد من الله تعالى . لكن شاع عليهم اسم المعتزلة عند ما تعرض زعيمهم واصل بن عطاء لمناقشة المسائل السياسية التي تداولها الخوارج والمرجئة حول معرفة المصيب والمخطيء في الفتنة التي تلت مقتل عثمان بن عفان . اذ اختلف واصل بن عطاء في آرائه عن قول استاذه الحسن البصرى الفقيه المشهور ، واعتزل هو واتباعه ، وانتبدوا بطائفتهم مكانا خاصا بالمسجد حيث قامت هذه المجادلات ، واشتهروا باسم المعتزلة .

والتزم واصل بن عطاء رأيا وسطا بين الخوارج والمرجئة ،  
لا هو يابس ولا هو لين . اذ قالت الخوارج ان مرتكب الذنوب  
كافر ، على حين قالت المرجئة انه مؤمن . فذهب واصل  
واتباعه الى ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن ، بل هو  
في منزلة بين المنزلتين . فمرتكب الكبيرة لا يعد مؤمنا لان الإيمان  
صفة من صفات الخير التي لا تتوافر له ، وهو ليس بكافر  
ايضا ، لانه متمسك بسائر الشعائر الاسلامية الاخرى مثل  
الشهادة والصلاة وغير ذلك من الامور التي لا يمكن انكارها .

وطبق المعتزلة نظريتهم على المشاكل التي ثارت حول  
الخلافة ، فأباحوا انتقاد الصحابة واعمالهم ، ومناقشة صحة  
انتخاب الخلفاء وتولييتهم السلطة . وعلا مركزهم على عهد  
الخليفة العباسي المأمون ( ١٩٨ هـ - ٨١٣ م ) الذي اعتنق  
مذهبهم وآراءهم . فاستخدم المعتزلة للقضاء على الآراء  
الجامدة التي كادت تخنق كل حركة اجتماعية أو سياسية ،  
وتهدد بتقويض دعائم الدولة .

#### أثر الفرق الاسلامية في الاحوال السياسية والاجتماعية :

بلغت الفرق الاسلامية اقصى نشاطها زمن العباسيين ،  
وقسمت الناس طوائف واحزابا حسب مذاهبها . وزاد في هذا  
الانقسام ان كل فرقة من الفرق الكبيرة السالفة انقسمت  
بدورها فرقا فرعية صغيرة عديدة . فانقسم المعتزلة الى نحو  
ثلاث عشرة فرقة ، والخوارج الى عشرين ، والشيعية الى

ما يقرب من الثلاثين والمرجئة الى نحو سبع فرق . واشتد  
الجدل والنزاع بين طوائف الفرق السالفة ، واصبح المجتمع  
الاسلامى ميدانا لصنوف الآراء المختلفة .

واثر هذا الخلاف بين هذه الفرق الاسلامية فى الشؤون  
الداخلية ، اذ وجدت الحركات الانفصالية المختلفة ولا سيما  
فى اطراف الدولة الاسلامية البعيدة متنفسا لها ، ذلك أن تعاليم  
هذه الفرق انتشرت فى كثير من اقاليم الدولة بعيدا عن السلطة  
المركزية ، وكذلك فى البلاد التى اشتهرت بتعصبها لقوميتها  
القديمة ، مثل فارس . وتعد ثورات الخوارج مثالا مبتكرا من  
هذه الحركات الانفصالية التى تولدت عن مسألة الخلافة وذلك  
ايام الدولة الاموية . ثم ان الخوارج نشروا بين اتباعهم أن  
الخلفاء العباسيين لا يصلحون للخلافة ، وأن احدا من اولئك  
الخلفاء لم يستوف الشروط التى يجب استيفاؤها لهذا  
المنصب ، ولذا يجب الخروج عليهم وعزلهم . ووضحت هذه  
الآراء السياسية الانفصالية منذ عهد اول الخلفاء العباسيين ، وهو  
ابو العباس المعروف باسم السفاح ، اذ قامت عدة ثورات  
اقليمية ، ولا سيما فى عمان ، وخراسان وبلاد المغرب الادنى  
( تونس ) .

واذا نجح الخلفاء العباسيون فى اخماد فتن الخوارج ، فان  
مابدلوه فى هذا السبيل استنزف من قوتهم ، وهيا للفرق  
الاسلامية الاخرى أن يزداد نشاطها والخلافة العباسية  
مشغولة بهذه الفتن . فاستطاع الشيعة نشر تعاليمهم فى كثير

من بلاد الدولة الاسلامية ، مثل فارس ، وأرسلوا الدعاة لنشر مذهبهم في البلاد الأخرى التي مهدتها ثورات الخوارج لدعوتهم . وضرب الشيعة اوضح الامثلة في اثر الفرق الاسلامية في الشئون السياسية بنجاحهم في تأسيس دولة لهم بالمغرب وامتدت هذه الدولة فيما بعد الى مصر والشام ( الدولة الفاطمية ) .

وهكذا أدى نمو الفرق الاسلامية الى انكماش الخلافة العباسية في بغداد . وتأثرت الحماسة الدينية للجهاد والفتوح الجديدة . فوقفت الفتوح الاسلامية ، وانصرف جهاد المسلمين الى اخماد الفتن السياسية والدينية الداخلية . ولم تسلم الدولة الاسلامية من آثار الجدل السياسى والدينى ، وانتهى بها الامر الى التفكك والانقسام الى ممالك ودول عديدة .

واحدثت الفرق الاسلامية آثارا اجتماعية كبرى في المجتمع الاسلامى ، لأن كلا من الجدل والاختلاف فى الآراء ساعد على بحرية الفكر ، ومران الناس على تقبل الآراء والنظريات بصدر رحب . وافاد المجتمع الاسلامى من هذه الحرية الفكرية ، فان اتساع رقعة الدولة وتكوينها من عناصر مختلفة فى الجنس والعقليات وبقايا الديانات السالفة تطلب حرية الجدل والمناظرة لتفهيم الدين الى الناس ، والدفاع عنه دفاعا سلميا منطوقيا امام هجمات العقائد الناشئة .

واثر المعتزلة تأثيرا كبيرا فى المجتمع الاسلامى بالقياس الى فئدهم من الفرق ، اذ وجد اتباع هذه الفرقة اناسا دخلوا فى

الدين الاسلامى من اليهود والنصارى والمجوس دون أن يتخلصوا تماما من معتقداتهم القديمة ، ولا عمل لهم الا اثاره الشكوك حول بساطة الدين الاسلامى . وانبرى المعتزلة لمجادلة اولئك الذين لم يريدوا للاسلام خيرا ، ونشأت عن مجادلاتهم أسس علوم الكلام والبلاغة والجدل والمناظرة . وفتح المعتزلة كذلك النافذة الاولى التى دخل منها فلاسفة المسلمين الى علوم اليونان . اذ دفعهم الجدل الى استقراء الكتب اليونانية المترجمة الى العربية مباشرة او عن طريق غير مباشر ، وعملوا على فهم ما فيها من منطق وفلسفة للرد على خصومهم الذين تسلحوا بالفلسفة اليونانية .

ومهما يكن من شأن الفرق الاسلامية واثرها الاجتماعى ، فان جدلها اثار بلبلة فى الافكار ، وادى الى قيام مذاهب اخرى متأثرة بالفلسفة اليونانية ، وهذه المذاهب وسعت هوة الخلاف بين اقاليم الدولة الاسلامية . ولم تستطع السلطة المركزية ببغداد القضاء على عوامل التفكك التى خلقتها هذه الفرق ، وانتهى الامر الى قلة نفوذها وسطوتها فى مختلف الولايات .

## عوامل التفكك السياسى

### الشعبوية :

ساعدت عوامل اخرى على تفكك الدولة الاسلامية ، ومن هذه ما هو معروف باسم الشعبوية . وهى كلمة تطلق على الروح

الانفصالية التي سادت الشعوب العريقة في المدينة قبل الاسلام ،  
ومحاولتها الخروج على العرب المسلمين ، اصحاب السلطان .  
والفرس اول الدعاة الى هذه الحركة الشعوبية ، اذ حقدوا على  
العرب سطوتهم وسيطرتهم على بلادهم ذات الحضارة القديمة ،  
ووجدوا متنفسا لتحقيق مآربهم السياسية في الفتنة التي ظهرت  
عقب مقتل عثمان بن عفان ، بقيام الشيعة والخوارج . فاحتضن  
الفرس دعوة الشيعة المنادية بحق بيت الرسول في الخلافة ،  
وخرجت من بلادهم الثورة التي اطاحت بالدولة الاموية ، وكفلت  
للعباسيين عرش الخلافة الاسلامية .

وادرک الخلفاء العباسيون الاولون اهداف اهل فارس فلم  
يسمحوا لهم بتحقيق مطامعهم الانفصالية ، مع انهم الذين ساعدوا  
الدعوة العباسية الاولى على الانتشار في بعض جهات من بلادهم ،  
لا سيما في خراسان ، وهي الجزء الشمالي الشرقي من فارس .  
بيد ان الفرس ظلوا ينافسون العرب ، وانتهزوا فرصة الشقاق  
بين بعض الخلفاء العباسيين لنشر دعوتهم . واتضح نشاط  
الفرس وعلو مركزهم على عهد الخليفة المأمون العباسي . اذ  
استعان بهم علنا في التخلص من اخيه الامين وانصاره من العرب  
( ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ) وجعل منهم قادة للجيش واشتهر من اولئك  
القادة الفرس طاهر بن الحسين الذي عينه المأمون والياعلى خراسان .  
ثم لم يلبث هذا القائد أن اغفل الخلافة العباسية واسقط اسم  
الخليفة من خطبة الجمعة ، واسس هو واخلافه الدولة الطاهرية

( ٢٠٢ - ٢٥٩ هـ / ٨٢٠ - ٨٧٢ م ) التي غدت أول دولة فارسية  
مستقلة عن الخلافة العباسية في آسيا .

### ضعف الخلافة في بغداد :

ثم أدى التنافس بين الفرس والعرب الى اتجاه الخليفة المعتصم  
العباسي الى التخلص من هذين الحزبين معا ، والاعتماد على  
الأتراك في ادارة الدولة . فاشترى الأتراك من بلاد ماوراء النهر ،  
ولقنهم التعاليم الاسلامية واللغة العربية ، واتخذ منهم حرسه  
الخاص ، بعد أن اقصى الفرس والعرب عن خدمته وجيشه ،  
وقلد ارباب الكفريات منهم مختلف المناصب في الدولة . وظن  
الخليفة المعتصم أن الأتراك أقل خطرا على الخلافة من الفرس  
والعرب .

غير أن نفوذ الأتراك لم يلبث أن طغى على عهد المعتصم نفسه ،  
فلم يحترموا الخلافة وضاعت بهم بغداد واهلها ، فانتقل المعتصم  
بهم الى سامرا ، وجعل منها عاصمة الخلافة . واستخف الأتراك  
بالخلفاء بعد وفاة المعتصم ، فعزلوا الخليفة الذي لا يرضون  
عنه ، وقتلوا الخليفة الذي يعترض اعمالهم . وغدا الأتراك  
اصحاب الكلمة العليا في سامرا وبغداد ، ومنحهم الخلفاء ادارة  
معظم الولايات الاسلامية ، وتركوا لهم الحرية في تصريف شئونها .  
وادی ذلك الى تفكك الدولة الاسلامية ، إذ فضل بعض السادة  
الأتراك البقاء في بغداد ، واوفدوا نوابا عنهم في ادارة هذه الولايات



وصاروا بذلك ولاية متغيبين عن ولاياتهم ، وهو أسوأ أنواع الولاية .  
وتطلع أولئك النواب واشباههم من الولاية الى الاستقلال بهذه  
الولايات لضعف الرقابة عليهم ، ولم يلبثوا ان جعلوا مناصبهم  
وراثية في ابنائهم . فنشأت دويلات عديدة لايربطها بالخلافة  
العباسية سوى تبعية اسمية ، واخرى مستقلة عنها تمام  
الاستقلال او تكاد . ومن امثلة هذه الدويلات دولة الطولونيين ثم  
الاخشيديين بعدهم في مصر .

#### مشكلة ولاية العهد :

ثم ان الخلفاء العباسيين دابوا على نظام تولية العهد لاكثر من  
واحد ، سواء من ابنائهم او من اقاربهم من آل بيت الرسول .  
وادى ذلك الى كثير من النزاع الداخلى والشقاق بين الاخوة ،  
على نحو ما حدث بعد موت الخليفة الرشيد سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩م ،  
ذلك ان الرشيد عهد بالخلافة من بعده الى اولاده : الامين ثم  
المأمون ثم المؤمن - وثالثهم هذا هو الذى صار المعتصم فيما  
بعد ، كما قسم البلاد الاسلامية بينهم كأنما هى ارث من اب الى  
ابنائهم . فلما تولى الامين عمدا الى اقضاء اخيه المأمون عن ولاية  
العهد ، ونشب بينهما صراع قويته فيه شوكة الفرس اصحاب  
المأمون ، وضعفت سلطة العرب اصحاب الامين .

ثم انتشرت العداوة والبغضاء بين افراد البيت العباسي ،  
ولا سيما بين ولى العهد واخوته واقاربه ، فلم يكده ولى العهد  
يصل الى عرش الخلافة حتى عمل على التنكيل بهؤلاء واولئك .

على أن ذلك لم يقطع دابر العداوة والبغضاء ، فضلا عن المنافسة ، بل أصبحت هذه المنافسة خطرا على كيان الدولة عندما استبد الاثراك بالسلطة من دون الخلفاء . اذ دخل الاثراك في الدسائس والمؤامرات بين أبناء الخلفاء . وذاعت الفوضى عندما ولى الخليفة المتوكل العباسي ( ٢٣٢هـ / ٨٤٧م ) اولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، اذ قدم المتوكل ابنه الثاني وهو المعتز على المنتصر في ولاية العهد . واقترص الجند الترك هذه الفرصة ، وشجعوا المنتصر على قتل ابيه فقتله . وتولى الخلافة بعده .

واصبح بذلك مركز الخليفة ضعيفا ، ولا هيبة له في العاصمة نفسها . وغدا الخليفة نفسه تحت رحمة قادة الجند من الترك الذين اصبحوا وزراء الدولة ، وليس له في الامر شيء سوى اطاعة اولئك الوزراء الذين استبدوا بالحكم والادارة معا ، وجعلوا مصالحهم الشخصية فوق وحدة الدولة .

#### صعوبة المواصلات :

ومما زاد في ضعف الخلافة ضخامة الدولة الاسلامية وتعدد اجزائها وصعوبة اتصال هذه الاجزاء بالحكومة المركزية . فاستطاع ولاة العباسيين ، ولا سيما ولاة البلاد النائية عن بغداد ، ان يستقلوا بشئونهم دون خشية بطش سريع او عقاب عاجل . ومن الواضح ان صعوبة المواصلات وطول المسافات

مساعد على تحقيق مطامعهم ، فلم تصل جيوش الخلافة في كثير من الاحيان الا بعد قوات الاوان .

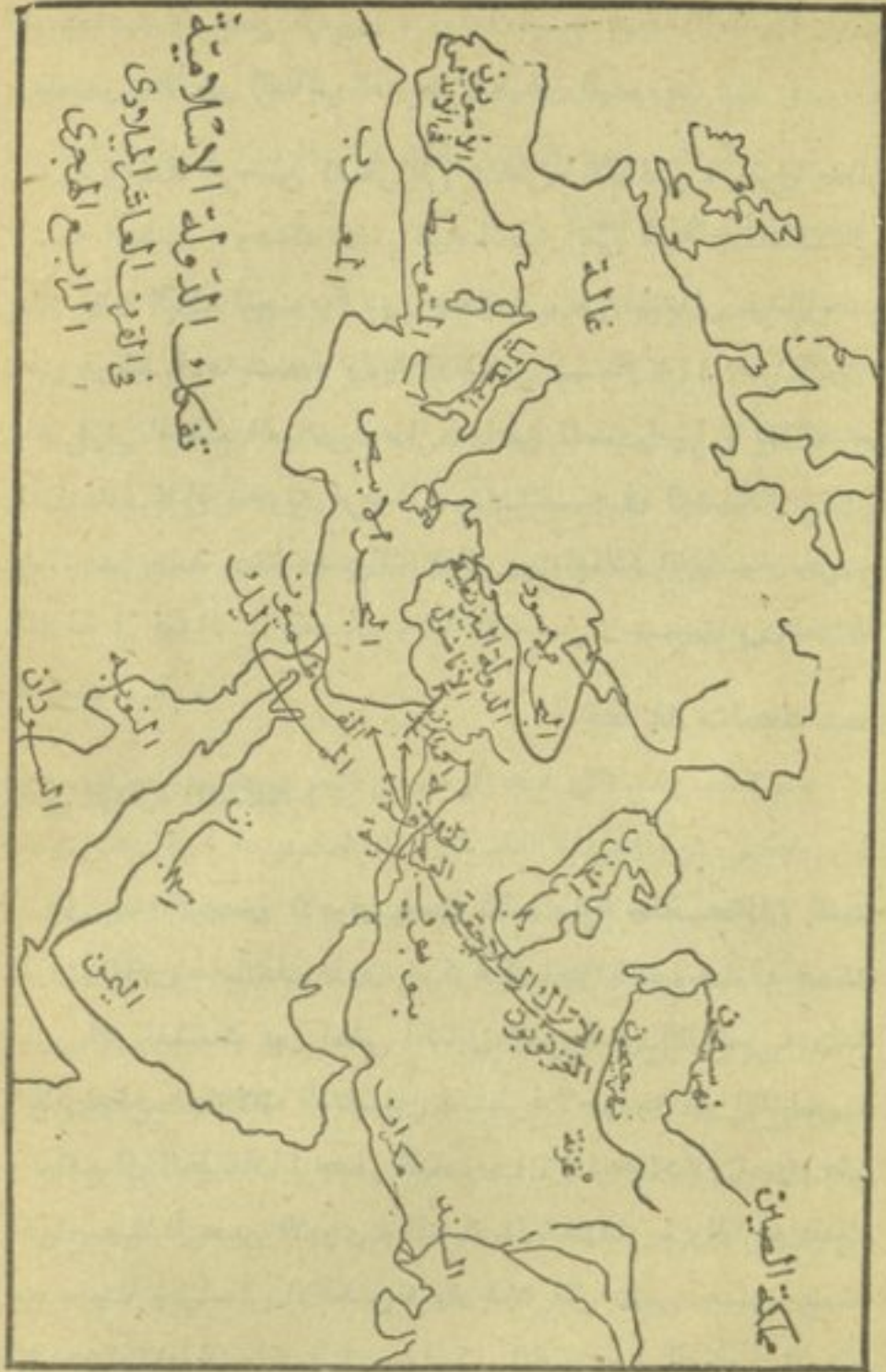
ثم ان الخلفاء العباسيين منحوا قادة الجيوش المتوجهة للقضاء على الفتن في الولايات البعيدة سلطات واسعة ، واستغل بعض أولئك القادة هذه السلطات ، فعمل الواحد منهم على الاستقلال بالولاية الموقد اليها . ولذا غدا سلطان العباسيين ضعيفا في معظم اطراف الدولة الاسلامية ، ولا سيما في شمال افريقيا وأرض الاندلس . وشهدت هذه الاطراف اول انفصال وتفكك مادي في كيان الدولة الاسلامية منذ السنوات الاولى لقيام الخلافة العباسية ، وتمثرت جهود الخلفاء العباسيين في ازالة ذلك بسبب صعوبة المواصلات ، فلم يستطيعوا القضاء على بذور الانقسام السياسي الاول الذي نبت في أرض اسبانيا . ثم اضحى تفكك الدولة الاسلامية واضحا ، وسرت عدوى الانفصال والاستقلال من أرض اسبانيا الى غيرها من ولايات الخلافة العباسية .

## قيام الدول المستقلة

### الاندلس

#### الامارة الأموية في اسبانيا :

رأى العباسيون منذ اول اعلان خلافتهم . سنة ١٢١ هـ / ٧٥٠م أن استمرارهم في الخلافة يتطلب القضاء على أبناء البيت الأموي . غير أن احد افراد بني أمية ، واسمه عبد الرحمن بن معاوية - وهو حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين - استطاع الهرب من المذبحة التي اقامها الخليفة أبو العباس لتنفيذ هذه السياسة . ودخل عبد الرحمن بن معاوية فلسطين ، ثم انتقل منها سريعا الى شمال افريقيا ، حيث لجأ الى قبائل أخواله من اهل تلك البلاد ، واخذ ينتقل من مدينة الى اخرى - من برقة الى مراكش ، حتى دخل مدينة سبتة سنة ١٢٧هـ / ٧٥٥م ، فاستقر بها قليلا . وفي سبتة ، على الطرف الغربي للبحر الابيض المتوسط ، اخذ عبد الرحمن الأموي يفكر في احياء الدولة الأموية . وتطلع الى الاندلس الاسلامية لتحقيق ذلك ، وهي البلاد التي فتحتها جيوش اسلامية زمن الأمويين منذ سنة ٧١١م . واستقرت بها بعد الفتح الاسلامي طوائف من اهل الشام وجنده الموالين للبيت الأموي . لذا ارسل عبد الرحمن أحد اتباعه ليجمع كلمة انصار بني أمية من اولئك الجند . ورحب الزعماء الاندلسيون



بدعوة عبد الرحمن الأموي ، وراوا فيه شخصا جديرا بتولي زعامتهم بدلا من الحاكم العباسي البغيض اليهم .

وعبر عبد الرحمن البحر الى شاطيء الاندلس ، ونزل بمكان اسمه المنكب ، وهناك انضم اليه انصار بنى أمية ، فاستولى على مدن البلاد الجنوبية دون مقاومة . ثم استولى عبدالرحمن على قرطبة عاصمة ولاية الاندلس سنة ١٤١ هـ / ٧٥٦ م ، بعد فرار الحاكم العباسي منها . واعلن نفسه أميرا ، كما اصدر عفوا عاما غداة دخوله قرطبة ليتمكن لنفسه في البلاد . وتم بذلك - بعد عشر سنوات فقط من اجتلاء العباسيين عرش الخلافة في بغداد - انفصال ولاية الاندلس رسميا عن الخلافة العباسية .

#### تأمين الامارة المستقلة :

ظل عبد الرحمن الأموي يعمل دائما مدة حكمه التي بلغت ثلاثة وثلاثين عاما على تأمين مركزه في اجزاء دولته . فآخذ الفتن التي نشبت بين بعض القبائل العربية في الاندلس ، واعد البلاد لدفع محاولات العباسيين المنتظرة لاجراجه من الاندلس . والواقع ان الخليفة ابا جعفر المنصور ( ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م ) عزم على اخراج عبد الرحمن الأموي والقضاء على دولته . ولذا عين العلاء ابن مغيث واليا على الاندلس ، وارسله على رأس جيش سنة ١٤٦ هـ / ٧٦١ م الى اسبانيا . ولكن الامير عبد الرحمن الأموي

هزم هذا القائد العباسي وقتله ، ووضع رأسه في ملح وكافور ،  
ولفها في علم العباسيين الاسود اللون ، وارفق معها كتاب التعيين  
العباسي . ثم امر احد التجار بقاء هذه الرأس في طريق الخليفة  
المنصور الى الحج بمكة .

ولم يحاول المنصور العباسي ان يعين احدا آخر على  
الاندلس ، او يرسل جيشا لحرب الامير عبد الرحمن الاموي .  
بل فضل ان يستميله اليه ، واعترف له بلقب « صقر قريش » .  
واكتفت الخلافة العباسية ببقاء عبد الرحمن الاموي بعيدا عنها في  
امارته ، اذ قال الخليفة المنصور « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين  
ذلك العدو بحرا »

#### صد هجمات الفرنجة :

ولم تقتصر مشاكل عبد الرحمن الاموي على ما حاظ امارته  
من خطر من ناحية الخلافة العباسية ، بل هددته  
دولة الفرنجة ( فرنسا الحالية ) ، فضلا عن بقايا  
المقاومة المسيحية الاسبانية التي انكسرت الى حين في الشمال  
الغربي من شبه جزيرة ايبيريا . ولذا عمد الخليفة المنصور  
العباسي الى عقد حلف مع بين ( Pepin ) ملك الفرنجة للهجوم على  
بلاد الاندلس . وارسل اليه سفراء وهدايا عديدة ، ولكن الحلف  
لم يدخل في دور التنفيذ العملي . على ان الامير عبد الرحمن لم  
يفعل خطورة مملكة الفرنجة على اية حال ، فاستعد لاي هجوم  
ياتي من جانبها . وتحققت مخاوفه عندما بعث شرلمان ، ملك

الفرنجة ، بجيش الى اسبانيا سنة ٧٧٧ م لمساعدة زعماء العرب المناوئين لسلطان الامويين . لكن الجيش الفرنجى اضطر الى النقهقر بعد ان عجز عن فتح مدينة سرقسطة سنة ٧٧٨ م وقفل عائدا الى بلاده . وعند عبور جيش الفرنجة مضائق جبال البرانس هجمت على مؤخرته قبائل البسقاوية المسيحية سكان تلك الجبال وانزلت به خسائر فادحة . وسقط قائد الفرنجة المدعو «رولاند» قتيلا .

وخلد الفرنجة فيما بعد ذكرى هذه الهزيمة التى انزلها المسيحيون بجيوش مسيحية فى اغنية رولاند التى تعد من طلائع الادب الفرنسى فى العصور الوسطى ، وشاعت هذه القصيدة ايام الحروب الصليبية بين اوروبا والشرق ، وحلا لمؤلفها ان يعزو هزيمة رولاند ومقتله الى المسلمين . وهى فرية عمد مروجوها لاستثارة حماسة الاوروبيين ضد المسلمين .

على ان ارتداد الجيش الفرنجى عن اسبانيا اثبت للملك اوروبا منعة الامارة الاسبانية المستقلة . وقضى على اية محاولة للهجوم عليها مرة اخرى . اما العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنجة فلم تنتج شيئا سوى تبادل الهدايا . اذ عمد الخليفة العباسى هارون الرشيد الى تجديد الصلات التى بداها جده ابو جعفر المنصور مع دولة الفرنجة ، فكتب الى شارلمان بذلك . وظلت امارة الاندلس مهابة مدة عبد الرحمن الاموى ، وبدت دولته عند وفاته سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وطيدة الاركان ، وعاشت بعده قرنين وثلاثة



أرباع قرن من الزمان .

على ان اسبانيا الاسلامية دخلت في القرن الحادى عشر الميلادى دورا طويلا من التفكك الداخلى بين اجزائها ،على يد ملوك مسلمين اطلق عليهم التاريخ اسم ملوك الطوائف . ومازال هؤلاء الملوك يتناحرون فيما بينهم حتى قضى عليهم الاسبانيون المسيحيون ، وزال سلطان المسلمين نهائيا من اسبانيا عندما انهزمت جيوش عبيد الله ملك غرناطة سنة ١٤٩٢ م .

### الحضارة الاسلامية الاندلسية

استطاع عبد الرحمن الاموى ان يكفل للاندلس حكومة اسلامية مستنيرة مستقرة ،رائدها التسامح الدينى . فنعمت امارة الاندلس بادارة سالحة ، وتمتعت بحضارة زاهرة نافست حضارة العباسيين فى بغداد ، وفاقته حضارات الدول الاوروبية المعاصرة لها . وبدت مظاهر العصر الجديد عندما كفل الامويون لسكان الاندلس ، على اختلاف طبقاتهم ، وسائل الرخاء والعطمانية ، وهياوا لهم الجو الصالح للعمل والانتاج .

وأظهر الامويون مقدرة عالية فى الادارة ، اذ اشتملت الاندلس على القبائل العربية التى جاءت مع الفتح الاسلامى ، كما اشتملت على جماعات من المسيحيين واليهود من سكان البلاد قبل الفتح الاسلامى ، وهؤلاء وأولئك فضلا عن جماعات من البربر المسلمين سكان شمال افريقيا ، وهذه جاءت الى اسبانيا مع الجيوش

الاسلامية . غير ان العرب والبربر مالبتوا ان تنازعوا فيما بينهم ،  
واتاحوا للسكان الاصليين من المسيحيين فرصة النيل من المسلمين  
وسيادتهم على البلاد . ومع هذا ظلت الامارة الاموية بالاندلس  
مهيبه الجانب ، وقضى الامويون في حزم على القلاقل الداخلية ،  
وكسبوا بتسامحهم ولاء السكان المسيحيين . وامعنت طائفة كبرى  
من اولئك السكان المسيحيين في تقليد المسلمين في حياتهم ونظمهم ،  
وصاروا طبقة اجتماعية عرفت باسم المستعربين ، واعتنق بعضهم  
الاسلام اقتناعا او ضمانا للدخول في وظائف الدولة .

#### نظم الحكومة :

وسار الامويون في حكم الاندلس وفق نظم لا تختلف كثيرا عن  
نظم العباسيين ، فالامارة وراثية في ابناء البيت الاموي ، واتخذ  
كل منهم لنفسه لقب امير ، اذ لم يظهر لقب خليفة او امير المؤمنين  
للأمويين في الاندلس الا في عهد عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر  
( ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م ) . ذلك ان عبد الرحمن الثالث هذا رأى ان  
مركزه في قرطبة لا يقل عن مركز خلافة العباسيين في بغداد ، بل  
يفوق خلافة الفاطميين التي قامت في شمال افريقيا قبل انتقالها  
الى مصر . ولذا عقد عبد الرحمن مجلسا من العلماء ورجال الدولة  
سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م للنظر في هذا الرأي ، وتم اعلانه خليفة امويا  
بالاندلس في تلك السنة .

وسار الخليفة في حكم البلاد عن طريق الوزراء ، واشتهر الوزير  
الاول في الاندلس باسم الحاجب ، وهو الذي يتلقى التعليمات من

الخليفة ، ويبلغها الى سائر الولاة والموظفين . وتمتع القضاة في  
الاندلس بمركز كبير سام . وتسمى رئيس القضاة باسم « قاضي  
الجماعة » واقام في قرطبة . ومن اهم وظائف الدولة كذلك وظيفة  
المحتسب ، ومهمة صاحبها لا تختلف عن مهام الحسبة في  
الدولة العباسية ، او غيرها من الدول الاسلامية .

وانقسمت الاندلس الى ست مقاطعات ، لكل منها حاكم له  
سلطة مدنية وعسكرية ، ويسمى بالوالي ، واختصت بعض المدن  
الكبرى بولاة يعينون لها وحدها . وغدت الاندلس بذلك تنعم  
بحكومة مستقرة ، وتقدمت احوالها الاقتصادية والعلمية والفنية .  
العاصمة الاندلسية :

ووضحت مظاهر ذلك التقدم العام في قرطبة عاصمة  
الاندلس . وتقع هذه المدينة في سهل خصيب واسع ، على سفح  
جبال الشارت ( وهي سيرامورينا ) ، بحيث تطل على الشاطئ  
الايمن لنهر الوادي الكبير . ونالت قرطبة شهرة عالمية اثارت  
الاعجاب في قلوب الوافدين عليها من الشرق الاسلامي والغرب  
المسيحي ، اذ ازدانت بشبكة من القنوات المائية لتغذية احيائها  
بالمياه الجارية الى المدينة من المرتفعات المحيطة بها ، وكثرت بها  
ايضا المساجد والفسادق والحوانيت والطرق المرصوفة ذات  
الاضاءة الحسنة .

واناض المعاصرون في الاشادة ببهاء قرطبة ، فقال احدهم :  
« ان المسافر يستطيع ان يسير عشرة اميال في طرفها على ضوء

المصاييح » . وذكر آخر « ان المدينة امتدت اربعة وعشرين ميلا طولاً ، وستة اميال عرضاً ، وامتلات كل هذه المساحة بالقصور والجوامع والمنازل والحدائق ، على ضفاف الوادى الكبير » . وتعددت ضواحي قرطبة حتى بلغت سبعا وعشرين ضاحية ، ونزل بهذه الضواحي اهل الطبقة الغنية ورجال الدولة ، ولكل ضاحية جوامعها واسواقها وحماماتها » . وزارت راهبة سكسونية من المانيا مدينة قرطبة ، فوصفتها بأنها « جوهرة العالم » .

وحرص خلفاء بنى امية على تجميل عاصمتهم بالمباني الشاهقة والحدائق والجوامع كذلك . فانشا عبد الرحمن الداخل منية الرصافة خارج قرطبة ، وجلب الماء الى هذا القصر ، وادخل في حديقته انواعاً من اشجار الفاكهة ، لم تعرفها الاندلس قبلاً ، مثل الخوخ والرمان . واسبس عبد الرحمن قبيل وفاته الجامع الكبير فى قرطبة ، لىباهى به حرم الكعبة بمكة والمسجد الاقصى ببيت المقدس . واتم خلفاؤه بناء هذا الجامع ، حتى اصبح اعظم جوامع الاسلام .

### قصر الزهراء :

واشتهرت قرطبة كذلك بالقصر الملكى المعروف بالزهراء ، وهو القصر الذى نمت حوله المباني والعمائر حتى صار اسمه علماً على مدينة كبيرة . وبنى الخليفة عبد الرحمن الثالث هذا القصر سنة ٢٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، وسماه بهذا الاسم ، نسبة الى محظية

من محفلياته . وتابع الخلفاء الامويون بعد عبد الرحمن تجميل  
القصر حتى غدا اروع بلاط بين دول اوربا ، تأتى اليه السفارات  
من امبراطور الدولة البيزنطية وملوك المانيا وايطاليا وفرنسا .

وتولى حراسة الزهراء حرس الخليفة المكون من المماليك  
المجلوبين من شتى بلاد اوربا ، وهم من اجلاب البلاد الجرمانية  
والسلافية ( الصقالبة ) وغيرهم من الفرنجة ، يشترى بالمال  
ويلحقون بخدمة الخليفة . واشتهر هذا الحرس باسم  
« الصقالبة » لكثرة الجنس الصقلبي بينهم . وغدت جماعات  
هذا الحرس المملوكى اداة الخليفة فى المحافظة على امن الدولة  
واستقرارها .

ودلت قرطبة بقصورها ومباهجها وضواحيها على غنى  
الدولة ، والمعروف ان ايرادات الخليفة عبد الرحمن الثالث  
بلغت ... ٦٢٤٥ دينار . وجاء هذا الايراد الوافر من الزراعة  
والصناعة والتجارة .

### الزراعة :

اما الزراعة فى اسبانيا الاسلامية فنالت عناية كبيرة من  
المسلمين ، اذ حفروا القنوات وغرسوا الكروم ، وجلبوا من  
الشرق الاسلامى ولاسيما الشام ومصر انواعا من النباتات  
والفواكه ، مثل الارز والمشمش والخوخ والرمان والبرتقال  
وقصب السكر . ووصل العرب الى مستوى عال فى علم فلاحه

الارض بالاندلس بفضل مازرعوا من حقول تجريبية ، وما درس  
علمائهم من علوم النبات . فلاءموا بين التربة والطقس لزراعة  
انواع النبات .

ولانزال بعض حدائق اسبانيا في الوقت الحاضر تشهد بالرقى  
الزراعى الذى تدين به البلاد الى المسلمين . ومن اروغ حدائق  
اسبانيا زمن الامويين جنة العريف التى ترجع الى اواخر  
القرن الثالث عشر الميلادى ، وهى الحديقة التى نسقت على  
شكل مدرجات ترويهما القنوات التى تهبط مياهها من مستويات  
مرتفعة ، ولا يزال فى موضع الحديقة بعض اشجار الريحان  
والسرو حتى العصر الحاضر .

#### الصناعة :

وازدهرت الصناعات فى اسبانيا كذلك على عهد المسلمين  
ازدهارا كبيرا . فانتقلت صناعة دبغ الجلود من مراکش الى  
اسبانيا ، وغدت قرطبة مقر هذه الصناعة الجديدة . وجلب  
المسلمون دودة القز الى اسبانيا ، وصارت صناعة الحرير رائجة  
فى كثير من المدن مثل مالقة والمرية ، فضلا عن قرطبة . وشجع  
المسلمون الصناعات الوطنية مثل صناعة الزجاج والنحاس  
والخزف .

واستثمر المسلمون مناجم الحديد والرصاص بالقرب من  
قرطبة ، ونشطت على اثرها صناعة السلاح . وكذلك ادخل  
المسلمون صناعة زخرفة المعادن وتذهيبها وتفضيضها . وغدت

مدن اسبانيا عامرة بالمنتجات الصناعية التي اقبل التجار على شرائها والمتاجرة فيها بانحاء العالم .

### التجارة :

ذلك ان منتجات اسبانيا الصناعية زادت عن حاجاتها المحلية فصدرت الفائض منها الى الخارج ، وغدت اشبيلية وهي احدى الثغور النهرية تصدر الزيتون والزيت ، وتستورد الاقمشة من مصر ، والدقيق والجوارى من اوروبا وآسيا . واشتملت صادرات مالقة على التين والسكر . وبلغت حركة النشاط التجارى اشدها مع الاسكندرية وبغداد والقسطنطينية . وقام الاندلسيون بكثير من الكشوف بحثا عن اسواق تجارية ، واتسعت حركة التجوال والرحلة .

### التعليم :

وتجلى ازدهار الحضارة في الاندلس في ميدان العلم فبلغ عدد مدارس قرطبة سبعا وعشرين مدرسة ، تلقى فيها الناس العلم بالمجان . كما اشتهرت جامعة قرطبة التي اتخذت مقرها في الجامع الكبير بعظمة علمائها وسعة معارفهم ، وهي تسبق في تاسيسها الجامع الازهر في القاهرة ، والمدرسة النظامية في بغداد . ووفد الى جامعة قرطبة كثير من اساتذة الشرق للتدريس بها ، فضلا عن اساتذتها من الاندلسيين ، مثل ابن القوطية المؤرخ وابو على القالى اللغوى .

واجتذبت جامعة قرطبة الطلاب من المسيحيين والمسلمين على السواء من اوربا وافريقيا . وامتاز علماء الاندلس بحب البحث والارتحال في طلب العلم . فرحل كثير منهم الى مصر والشام والعراق وفارس وبلغ بعضهم بلاد ما وراء النهر والصين في طلب العلم والمعرفة .

### فصل الحضارة الاسلامية الاندلسية على اوربا :

بلغت حضارة المسلمين في اسبانيا مرتبة رفيعة في القرن الحادى عشر الميلادى ، واخذ تيارها يتدفق في القرن التالى على اوروبا . ومعنى هذا ان التيارات الفكرية التى جلبها المسلمون الى اسبانيا من دمشق وبفداد والقاهرة جعلت اوروبا متصلة بمنابع العلوم والفنون فى الشرق . ذلك ان غرب اوروبا ظل منعزلا عن الحضارة البيزنطية بشرق اوروبا ، وهى الحضارة الوثيقة الاتصال باليونانيين والرومانيين الاقدمين ، - فضلا عن الحضارة الاسلامية - لان العداء المذهبى بين الكنيسة الكاثوليكية فى غرب اوروبا والكنيسة الارثوذكسية فى شرقها قلل الاتصال الحضارى بين اتباعهما ، وحجب حضارة اليونان القديمة عن ممالك غرب اوروبا ، ومن ثم غدا مجيء طلاب غرب اوروبا الى جامعات اسبانيا الاسلامية هو السبيل الى اطلاعهم على مؤلفات اليونان الاقدمين مترجمة الى العربية ، ومنها الى اللاتينية .

ومما ساعد على انطلاق الحضارة الاسلامية فى غرب اوروبا



ان ملوك اسبانيا المسيحيين عند ما استولوا على الاراضى  
الاسلامية وانتزعوا بعض مدنها الهامة مثل طليطلة ، حفظوا  
ما فيها من نور المعرفة املا في بقاء التقدم الحضارى في دولهم  
الجديدة . فشجع الفونسو السادس ملك قشتالة يهود  
طليطلة على تكريس جهودهم العلمية على نحو ما ساروا عليه  
ايام تبعيتهم للمسلمين . وشجع هذا الملك كثيرا من العلماء  
المسلمين كذلك على الانتقال الى ممتلكاته المسيحية واتاح لهم  
بذلك نشر التفكير الفلسفى الاسلامى وايصال التراث اليونانى  
القديم الى غرب اوروبا .

## الدولة المستقلة في مصر

### الفاطميون

ساعد موقع مصر الجغرافى وبعدها عن مركز الخلافة  
العباسية في بغداد على تفكير بعض ولاتها في العصر العباسى على  
الاستقلال بها . واول اولئك السرى بن الحكم الذى استطاع  
ان يجعل ولاية مصر في ابنائه من بعده ، مع بقائها تابعة اسميا  
للخلافة العباسية . واتخذ السرى بن الحكم لنفسه سنة  
٢٠٠ هـ / ٨١٥ م عاصمة في مدينة تنيس بشرق الدلتا  
وخطا احمد بن طولون بعد ذلك خطوة واضحة حين  
استقل سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٧ م بشئون مصر الداخلية

والخارجية ، ما عدا الاموال التي ادتها الخزانة المصرية سنويا لبيت مال الخلافة العباسية في بغداد . وبنى احمد بن طولون لدولته عاصمة جديدة اسمها القطائع ، وهي جهة حى الصليبة بالقاهرة في الوقت الحاضر ، وانشأ بها جامعا نسب الى اسمه ، وهو نموذج رائع من نماذج الفن المعماري الاسلامي ، كما بنى مستشفى يبدو انه الاول من نوعه في البلاد المصرية .

وظلت مصر على استقلالها هذا زمن ابناء احمد بن طولون ، الذين يجمعهم اسم الدولة الطولونية ، ثم عادت مصر الى التبعية للخلافة العباسية سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م . غير انها ما لبثت ان عادت الى الاستقلال مرة اخرى على يد محمد ابن طغج الاخشيد وابنائه ( سنة ٣٢٣ هـ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٨٩ م ) ومن الملحوظ ان الدولة الاخشيدية جعلت لنفسها كذلك عاصمة جديدة بين القطائع والقلعة الحالية .

### قيام الدولة الفاطمية

وبينما تلك الحوادث تجري ، قامت في شمال افريقيا حركة شيعية تنتسب الى فاطمة بنت النبي ، حتى صارت هذه الحركة تنتسب الى اسمها . واسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ ، ٩٠٩ م .

وتفصيل ذلك ان الدعوة الشيعية فُدت منذ قيام الدولة العباسية سرية ، بسبب امعان معظم الخلفاء العباسيين في اضطهادهم

وانتخذ بعض دعاة الشيعة مقرا لهم في اليمن لقربها من الحجاز ، ملتقى الحجاج المسلمين . وفي احد مواسم الحج تعرف احد اولئك الدعاة واسمه ابو عبد الله الشيعي بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامة من سكان شمال افريقيا ، ونجح في استمالتهم الى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم .

وتولى حكم شمال افريقيا وقتذاك من قبل العباسيين افراد اسرة الاغالبة ( ١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م ) ، التي لم تنجح في تأليف القلوب حولها ، واذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد ابو عبد الله الشيعي ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال افريقيا لدعوته ، وما زال يعمل سرا حتى اضحى قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهين للاغالبة من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع ابو عبد الله اخيرا ان يقضى على الاغالبة نهائيا سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م ، وان ينادى باحد سلالة علي بن ابي طالب ويدعى سعيد بن الحسين اماما ، ولقبه عبيد الله المهدي .

وانتخذ عبيد الله المهدي عاصمة له في رقادة عاصمة الاغالبة ، وهي ضاحية من ضواحي القيروان . ثم قويت شوكته وكثر اتباعه ، فانتقل سنة ٩٢٠ م عن رقادة الى مدينة بناها لنفسه وسماها المهديية نسبة اليه ، وهي على ساحل تونس ، على مسافة ستة عشر ميلا من الجنوب الشرقي لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيد الله المهدي يعمل من عاصمته الجديدة على امتداد سلطانه

نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر ومراكش ، وشرقا نحو برقة وليبيا ومصر . وأعلن نفسه خليفة فصار بالعالم الاسلامي ثلاث خلافت ، وهي العباسية ببغداد ، والاموية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة المهديّة .

وسار ابناء عبيد الله المهدي على نهج سياسته التوسعية ، حتى استطاع احدهم وهو المعز لدين الله فتح مصر . وكانت مصر تعاني وقتذاك ضنكا وجدبا اواخر حكم الاخشيديين . فأرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلي ، وتم له الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ ، بفضل ضعف الاخشيديين الذين رحب بعضهم بالفاطميين ، وذلك فضلا عن ضخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها . واسس جوهر الصقلي مدينة القاهرة تلك السنة قبل قدوم الخليفة المعز لدين الله اليها سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، وغدت القاهرة بذلك عاصمة للدولة الفاطمية واجزائها الممتدة من مراكش الى آخر الاطراف المصرية .

### الخلافة الشيعية :

وادي استقرار الخليفة الفاطمي بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمي وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقا حتى اشتملت على الشام ، ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله ( ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م ) ، اذ ورث الفاطميون ممتلكات الاخشيديين في الحجاز

والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمي يذكر في خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر واليمن ومكة ودمشق .

وضعف شأن الخلافة العباسية ضعفا شديدا في ذلك الوقت ، حتى ان اسم الخليفة الفاطمي ذكر في بعض مساجد العراق نفسها . اذ اغتصب البساسيري احد قادة الاثراك في بغداد جميع مظاهر السلطة من الخليفة العباسي ، وذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمي ( ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م ) في مساجد العاصمة العباسية مدة اربعين جمعة متتالية ، نكاية في العباسيين . وحدثت مساجد واسط والبصرة حذو مساجد بغداد ، فأعلنت اسم الخليفة الفاطمي من منابرها . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحيرة خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى ان الخليفة القائم العباسي كاد يتنازل عن خلافته للفاطميين . وبدا وصلت الخلافة الفاطمية الى مركز الصدارة في العالم الاسلامي ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان في شرق البحر الابيض المتوسط . وبلغ اسطولها مبلغا كبيرا من السيطرة والتفوق على اسطول الامبراطورية البيزنطية في العدد والضخامة وحسن الاستعداد . وتحدى الفاطميون خلافة الامويين بالاندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط .

**انهيار الدولة الفاطمية :**

غير ان الدولة الفاطمية على عظميتها واتساع مساحتها وعنايتها

بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب اليها اهل السنة ، بل ابتعد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى اذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م وادعى الألوهية لنفسه اخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها في قلوب الناس . واسباء الحاكم بأمر الله الى نفسه والى دولة آباءه وابنائيه بعده باصراره على الدعاية لمذهبه ، واضطهاد الطوائف التي اصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده الى الاقباط واليهود . وبدل على ذلك اغتياله ليلا في صحراء المقطم على يد رجل سني ، بايحاء من سيدة الملك اخت الحاكم .

ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية ان تعيش مدة طويلة بعدد الحاكم بأمر الله ، اذ عمدت الى استجلاب مختلف الاجناس من السودان والبربر والترك والارمن لتقوية جيوشها ، فليات بذلك اسباب كراهيتها ولا سيما في مصر . ومع ان الرحالة الفارسي ناصري خسرو شهد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥ م بما في القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المستنصر ، فان الاحوال لم تلبث ان تغيرت بسبب منافسة اجناس الجيش وثوراتهم ، واستهتارهم بالامن اللازم لنمو النشاط الاقتصادي والثقافي للدولة الفاطمية . ثم طرا على الدولة الفاطمية غلاء في عهد الخليفة المستنصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات اعقبها طاعون ، حتى سمى المعاصرون هذا الغلاء باسم الشدة العظمى . ومع حدوث غلاء في عهود سالفة لا يام الشدة العظمى فانه يبدو ان ما حدث ايام

الغلاء على عهد المستنصر ازال مابقى من هيبة الدولة الفاطمية .  
ولم ينقذ الدولة سلسلة الوزراء القادرين المعروفين باسم  
الوزراء العظام ، وهم يبدأون من بدر الجمالى على عهد الخليفة  
المستنصر ، وينتهون بشاور على عهد الخليفة العاضد . ذلك ان  
خطرا خارجيا اخذ يستولى على انتباه اولئك الوزراء من ناحية الدولة  
السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، اذ ازال السلاجقة  
سلطان الفاطميين من معظم الشام ، واتم الصليبيون القضاء نهائيا على  
نفوذ الفاطميين فى تلك البلاد . وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن  
شمال افريقيا ، لاستقلال ولائهم هناك ، ولم يبق للدولة الفاطمية  
سوى مصر .

وزاد الموقف سوءا فى الدولة الفاطمية حين اخذت مملكة بيت  
المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها ، مع بقاء الخطر السلجوقى  
مائلا كذلك فى صورة جديدة قوامها الدولة الزنكية ، التى تفرعت  
عن الدولة السلجوقية بقيام الاتابك عماد الدين زنكى فى  
الموصل وحلب . واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على  
دمشق سنة ١١٥٤ م ، وعمد الى سياسة منع الصليبيين من  
امتداد نفوذهم الى مصر ، ثم تطورت هذه السياسة الى تنافس  
بين مملكة بيت المقدس الصليبية ونور الدين بن زنكى عندما اضطرب  
الموقف الداخلى فى مصر . ذلك ان الوزير الفاطمى ضرغام سمح  
للسليبيين بالتدخل فى شئون الدولة الفاطمية ، بل رضى بأن يدفع  
لهم مبلغا سنويا من المال ضمانا لمساعدتهم له ضد منافسه فى

منصب الوزارة وهو شاور والى الوجه القبلى ، وان يعد الوعود  
الكثيرة نظير هذه المساعدة . ولم يستطع شاور الا ان يطلب بدوره  
المساعدة من نور الدين ، وسرعان ما أصبحت مصر ميدانا لحملات  
وحروب بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية . اما الصليبيون  
فقاد جيوشهم الملك آمورى الاول ، على حين قاد الجيوش  
النورية شيركوه الايوبى والشاب يوسف ، وهو الذى عرفته  
الحوادث باسم صلاح الدين ، وهو ابن نجم الدين ايوب اخى  
شيركوه .

وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام  
وطلب شيركوه من الوزير شاور ان يفى بما قدمه من وعود مقابل  
مساعدته على غريمه ، لكن شاور نكث بوعوده ، وراوغ وماطل  
حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح  
الدين . وراى الخليفة الفاطمى العاضد وقتذاك ان ينقذ الموقف  
بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام فى الوزارة مدة ثلاثة اشهر ، وتوفى  
بعدها سنة ١١٦٩ م . فراى الخليفة العاضد ان يسند الوزارة  
الى الشاب صلاح الدين ، املا ان يكون فى ذلك تمهيد للتخلص من  
الجيوش النورية ، لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، اذ تولى  
صلاح الدين الوزارة ، وطلب الى سيده نور الدين ان يرسل اليه  
اهله ، كما طلب نور الدين من تابعه صلاح الدين ان يعمل على  
الغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل  
الخطط التى حبكها اهله ولا سيما ابوه ايوب ان يلقى الخطبة



للفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، والخليفة  
العاقد مريض لا يدري شيئا . وتوفي العاقد سنة ٥٦٧ هـ /  
١١٧١ م ، ويقال انه توفي دون ان يعلم بذلك الحادث . وهكذا  
انتهت الخلافة الفاطمية في غير جلبة او ثورة او حرب ، وهي  
الخلافة التي عجزت الدولة العباسية عن ازالتها بالحرب او السياسة .

### الحضارة الفاطمية

اما حضارة الدولة الفاطمية فأول مظهر من مظاهرها انشاء  
القاهرة . ووضع جوهر الصقلي أساس هذه المدينة  
الحصينة الى الشمال من الفسطاط والقطائع ومدينة  
الاخشيديين ، فبدأت من باب زويلة الى باب الفتوح في العصر  
الحاضر ، واشتملت على ما هو الآن حى الجمالية وباب الشعرية  
والموسكى والغورية وباب الخلق ، وغيرها .

وأحيطت القاهرة الفاطمية بسور تناوله التجديد مرات عديدة  
باتساع رقعتها ، وأصبحت دار خلافة تنافس دار الخلافة  
العباسية ، اى بغداد .

### الجامع الازهر :

ولما أتم جوهر تأسيس القاهرة رأى أن يبني جامعا تقام  
فيه شعائر المذهب الشيعى ، تجنباً لاثارة شعور أهل السنة .  
فوضع الحجر الاساسى للجامع الازهر المعروف سنة ٣٥٦ هـ /

٩٧٠ م ، وانتهى جوهر من بناء هذا الجامع الكبير بعد سنتين تقريبا ، واقيمت فيه الصلاة لأول مرة في رمضان سنة ٣٦١ هـ . ولم يلبث أن تطور الجامع الأزهر إلى جامعة تلقى فيها الدروس والمحاضرات في علوم الدين على المذهب الشيعي ، وذلك بإشارة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بن المعز لدين الله ، سنة ٣٧٨ هـ ، ليكون للدولة الفاطمية مركزا علميا يفد إليه الطلاب من ممتلكاتها لدراسة العلوم الدينية ومبادئ الشيعة .

واجتذب الخليفة العزيز وخلفاؤه الطلاب إلى جامعهم وقدمو اليهم المأكل والمسكن . ولم يفقد الجامع الأزهر مكانته العلمية بعد زوال الخلافة الفاطمية ، إذ تولاه سلاطين مصر من المماليك بالرعاية والعناية ، وحفظوا له هيئته وسمعته .

### قصور الفاطميين :

وابدع الفاطميون في بناء القصور الفخمة ، وتنظيم البلاط الخلفي على نسق فاخر . فبنى جوهر الصقلي أثناء تأسيس القاهرة قصرا للخليفة المعز لدين الله . واهتم ابنه الخليفة العزيز كذلك بتشبيد القصور ، وبنى لنفسه قصرا غربى مدينة القاهرة . وبنت الملكة تغريد أم الخليفة العزيز قصر القرافة والحقت به بستانا وحماما فاخرا . وتردد الناس من عليه القوم على هذا القصر طلبا للراحة . وأسست هذه الملكة كذلك « منازل العز » ، وهو قصر فخم على النيل ، دأب ابنها الخليفة العزيز وخلفاؤه على الاستجمام فيه طلبا للراحة .

واهتم الخلفاء الفاطميون بتزيين قصورهم أبيى زينة ، فانشأ الخليفة العزيز قاعة الذهب التى جعلها مقرا لمجلس الحكومة ، ومكانا لاستقبال الوفود ، وزينها بالستور والطنافس الحريرية ، وكلها من رسم ولون واحد . واتخذ الخليفة العزيز مقعده فى صدر هذه القاعة خلف ستارة لا ترفع الا بعد انعقاد المجلس واكتمال عدد الحاضرين .

واشتهر الفاطميون فضلا عن ذلك ببناء « المناظر » ، وهى الاماكن التى تشرف على الجهات التى يقام فيها الحفلات الرسمية او تقع فى نواح هادئة تصلح للاستجمام والراحة . ومن امثلة هذه المناظر ، منظره المقس التى استعرض الخلفاء منها الاحتفال بسير الاساطيل الحربية فى النيل ، ومنظره باب الفتوح لاستعراض الجيوش الفاطمية حين خروجها من القاهرة او عودتها اليها .

#### الاعياد والمواسم :

وبالغ الفاطميون فى الاحتفال بالمواسم الاسلامية والاعياد وغيرها من المواسم غير الاسلامية كذلك ، واشتهر احتفال الفاطميين بيوم عاشوراء ومولد النبى و ليلة النصف من شعبان . ويقال ان العرائس المصنوعة من السكر ، والحلوى السمسامية والسكرية وغيرها من هدايا الموالد المصرية فى العصر الحاضر ترجع الى ايام الفاطميين .

ومن اعياد الفاطميين غير الاسلامية خميس العهد الذى

يحتفل به النصارى قبل الفصح بثلاثة ايام ، ويوم الفطاس ،  
وعيد الميلاد عند المسيحيين .

واهتم الفاطميون كذلك باحياء المواسم المصرية القديمة مثل  
عيد النيروز ، وهو اول السنة القبطية . اذ داب الناس في  
مستهل شهر توت على ابقاء النيران مشتعلة ليلة النيروز ، مع  
رش الطرقات والبيوت بالماء تبركا بقدم فيضان النيل .  
ووزعت الحكومة الرواتب الاضافية على موظفيها احتفالا بهذا  
العيد القومى .

غير ان القاهرة الفاطمية ظلت مدينة حربية ليس للمصريين  
فيها سوى اعمالهم فى الصناعة وخدمة قصور الخلفاء ، والوظائف  
الكتابية الصغرى ، والابتهاج بالمواكب الخليفة وليالى الوقود ،  
وهى ليالى اول رجب وليلة النصف منه ، وليلة اول شعبان  
وليلة النصف منه كذلك وليالى رمضان .

ومما يدل على موقف المصريين من الدولة الفاطمية ان هذه  
الخلافة زالت فى صمت وسهولة ، وان صلاح الدين الايوبى لم  
يجد مقاومة عندما قام بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمى فى صلاة  
الجمعة . وعندما زالت الدولة الفاطمية ظل المصريون على موقفهم  
الهادى ، اما بقايا الفاطميين فاخذت تدبر المؤامرات لاسترداد  
سلطانها .

## الدولة الايوبية

### صلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الايوبي سنة ١١٣٨م بمدينة تكريت على نهر دجلة شمالي بغداد وسامرا ، واتصل والده نجم الدين ايوب وعمه شيركوه بالاتابك زنكى ، فنشأ صلاح الدين في ظل البيت الزنكى ، وتعلم علوم اولاد الامراء ، وهى حفظ القرآن ودرس الفقه والأدب ، والتدريب العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه فى الحملات التى انفذها السلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر اواخر ايام الدولة الفاطمية . واسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ؛ ولم يكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزدوجة ؛ وهى قيامه وزيرا فى دولة شيعية لا خليفة لها ، ونائبا لمملكة صاحبها نور الدين ، حتى اخذ رجال القصر الفاطمى يحيكون له المؤامرات . ثم توفى نور الدين سنة ١١٧٤م فاستنطاع صلاح الدين ان يعلن نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع اجزاء مملكة نور الدين تدريجا . ووافق الخليفة العباسى على سلطنته . والتفت صلاح الدين الى كثير من الاعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، واحاط القاهرة والفسطاط معا بسور واحد ، وشجع على اقامة معاهد الدراسة الفقهية التخصصية وهى المعروفة

بالمدارس ، ومنها مدرسة الامام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ١١٧٩ م ، ووصفها فى مذكراته وصفا طيبا .  
وانشأ صلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك العصور .

ثم اتجه صلاح الدين الى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصارا حاسما فى حطين سنة ١١٨٧ م ، بل استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وانطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية .

#### ضعف الدولة الايوبية :

غير ان ابناء البيت الايوبى فى مصر والشام اختلفوا فيما بينهم بعد صلاح الدين وتحاربوا حروبا انتحارية كثيرة . واستعان ملوك الايوبيين سواء بالشام او مصر بأجناد من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد نفوذ اولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين ابناء البيت الايوبى ، حتى اضحى اولئك الجند المماليك اصحاب الاراضى والاملاك والسلطة والنفوذ والحكم والادارة ، فضلا عن القوة الحربية . واولئك المماليك هم الذين دفعوا الصليبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح ايوب ( سنة ١١٤٩ م ) .

ثم توفى السلطان الصالح ايوب وتولى شئون الدولة بعده زوجته شجر الدر ، واصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء

توران شاه بن الصالح ايوب ، واختلف مع زوجة ابيه ،  
فحرضت شجر الدر زعماء المماليك على التخلص منه بقتله  
حريقا غريقا في فارسكور سنة ١٢٥٠ م . وبذا انتهت الدوا  
الايوبية وقامت دولة المماليك في مصر .

### دولة سلاطين المماليك

واقام المماليك شجر الدر سلطنة ، وعينوا احدهم وهو ايبك  
التركمان الى جانبها . غير ان الخلافة العباسية صاحبة السيادة  
الاسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطانه على  
البلاد ، فاقام المماليك ايبك سلطانا ، وخلعت شجر الدر نفسها ،  
وتزوجت من ايبك ، بعد ان انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت  
ثمانين يوما فقط . وبعد ايبك ( ١٢٥٠ م - ١٢٥٧ م ) اول  
سلاطين المماليك وجرى المصطلح التاريخي على تقسيم عهد  
المماليك الى قسمين ، وهما دولة المماليك البحرية ( ١٢٥٠ -  
١٣٩٠ م ) ودولة المماليك البرجية ( ١٣٨٢ - ١٥١٧ م ) .  
والمماليك البحرية من حرس السلطان الصالح الايوبى . اما  
البرجية فنشأوا حرسا للسلطان المملوكى قلاوون ( ١٢٧٩ )  
- ١٢٩٠ م ) . وجاء هؤلاء واولئك من اجناس مختلفة ، فمنه  
التركي والشركسى والمغولى والايطالى والالمانى واليونانى .

وتداول عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم  
المماليك البحرية اربعة وعشرون سلطانا ، ومن المماليك المعروفين

باسم المماليك البرجية ثلاثة وعشرون سلطانا . ولم يحترم المماليك مبدأ الوراثة للعرش لانهم اعتبروا انفسهم اسوياء ، لا فضل لمملوك على آخر الا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة التابعين من المماليك .

وبلغت مصر مبلغا عظيما من القوة والثروة والابهة على عهد سلاطين دولة المماليك الاولى والثانية ، وصدت كثيرا من الاخطار الجسيمة التي هددت البلاد الاسلامية عامة ، والشرق العربي خاصة . ففضى المماليك على الخطر المغولي الذي ازال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، واخرجوا جيوش الصليبيين من الشام . واضحت دولة سلاطين المماليك هي القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان العالم الاسلامي ، وآخر الدول المستقلة التي عاشت بمصر .

واصاب المماليك الترف والعافية بعد ان استقر الامر لهم وتدفقت عليهم الثروات الواسعة بسبب التجارة . فدب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم واحزابهم ، وتضاربت مصالح هذه الفئات والاحزاب ، على حين تطورت الدولة العثمانية التركية في ذلك الوقت من قوة الى قوة في آسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العالم الاسلامي ، ولذا حاربت دولة سلاطين المماليك وقضت عليها في مصر سنة



## الحضارة المصرية زمن المماليك

### نظام الحكم :

سار سلاطين دولة المماليك الاولى والثانية على وتيرة اسلافهم وسادتهم الايوبيين . فالسلطان المملوكى راس الادارة المصرية والموجه لشئون البلاد . واتخذ المماليك لفظ سلطان جريا وراء العرف الذى ساد الدولة الايوبية فى تلقيب حكامها بالسلاطين . على ان السلطان المملوكى لم يختلف عن سائر مماليك الدولة . اذ نشأ مثلهم وعاش فى نظامهم الحربى ، وكثيرا مانعت نفسه بلفظ المملوك امعانا فى الدلالة على ان وظيفة السلطان لم ترفعه عن سائر اخوانه من المماليك .

وعلى الرغم من محاولة بعض السلاطين ان يجعلوا منصب السلطنة وراثيا فى ابنائهم بعدهم ، لم ينجح مبدا الوراثة الا احيانا . اذ اعتمد السلطان على قوته الحربية ، وكثيرا ما اغتصب قادة الجيش المملوكى الاقوياء منصب السلطنة لانفسهم . فالجيش المملوكى هو الاداة المحركة للشئون السياسية فى البلاد ، وهو جيش اقطاعى يأخذ الامير المملوكى منه اقطعا من الارض مقابل ما يقدمه من الجند والخدمات الحربية فى حروب السلطان . فيقوم امير مائة مثلا بتقديم مائة جندى يكون هو على راسهم ، ويقوم امير خمسين بما يناسب اقطاعه ، اى خمسين جنديا يذهب بهم الى جيش السلطان ، وهكذا .

وسار النظام الادارى فى السلطنة المملوكية على قواعد المركزية الدقيقة ، فالسلطان هو الذى يختار رؤساء الدواوين الكبرى فى القاهرة ، ويعهد اليهم بالاشراف على الادارات المحلية فى الاقاليم . وتعددت الدواوين الحكومية على عهد سلاطين المماليك ، واهمها ديوان الانشاء الذى تشببه وزارة الخارجية فى العصر الحديث ، واهم اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة . وديوان الجيش وهو الديوان الذى يقوم على توزيع الاقطاعات وضبطها ونقلها من امير مملوكى الى آخر . وديوان الاحباس وهو يقوم بما تقوم به وزارة الاوقاف اليوم . وديوان الخاص ويشرف على الشئون المالية التى تتعلق بالسلطان . وديوان النظر وتشببه وزارة المالية فى العهد الحاضر . ومن المعروف ان هذه الدواوين وغيرها من أدوات الجهاز الحكومى قامت زمن الفاطميين ، غير انه زاد عليها ما ادخله سلاطين الايوبيين والمماليك من تنظيم فى ادارتها واختصاصاتها .

واشتهر رئيس كل ديوان باسم الناظر او صاحب ويلييه نائب يسمى مستوفى الصحبة ، لملازمته الناظر فى اعماله ، ثم يليه موظفون آخرون وهم المعروفون باسم المستوفين وكتاب التوقيع وكتاب الدرج والمشدين والكشاف .

#### انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة .

داب سلاطين المماليك منذ ايام السلطان ايبك على الرجوع الى

الخلافة العباسية في بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة  
وليكسبوا حكمهم صبغه شرعيه في مصر . ثم تبدلت هذه  
السياسة تماما بعد ان زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد  
هولاكو وجنوده . وفكر السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك في  
اعادة الخلافة العباسية الى بغداد . لكن حدث ان اغتيل السلطان  
قطز وتولى بيبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى بيبرس الى  
القاهرة أحد أبناء البيت العباسي ، واسمه أبو القاسم سنة  
١٢٦١ م ، وعقد مجلسا عاما حضره جميع رجال الدولة وكبار  
التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان امام ذلك  
الجمع ان ابا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسي ، وبدا تمت  
له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلدا الخليفة  
السلطان بيبرس البلاد الاسلامية وما يضاف اليها ، وما سيفتحه  
الله على يديه من البلاد . واخذ بيبرس بعد ذلك يجهز الخليفة  
بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع بغداد من المغول . غير ان  
هذا الخليفة مات قتيلا على يد التتار قبل ان يصل الى بغداد %  
فَعقد بيبرس النية على اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة %  
واستدعى عباسيا ثانيا لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة %  
وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم بأمر الله ، أمر السلطان  
بيبرس بالدعاء له في خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد من  
منابر دمشق والمدينة والقدس . وهكذا احييت الخلافة  
العباسية بالقاهرة .

وأفاد المالِك من الوضع الجديد ، اذ صار سلاطينهم منذ أيام السلطان بيبرس الى الفتح العثماني لمصر يتمتعون بمقام سام في العالم الاسلامي ، باعتبارهم حماة الخلافة ، والمتمتعون ببيعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتي اليها وفود الملوك من البلاد الاسلامية القريبة والبعيدة تطلب تقليدها السلطة في بلادها .

### الاحوال الاقتصادية والاجتماعية :

وساعدت هذه الادارة على تنشيط التجارة التي افادت من موقع مصر الجغرافي على الطريق العالمي بين الشرق والغرب واستطاع المالِك بذلك الحصول على اموال كثيرة بالقياس الى ما حصل عليه الفاطميون قبلهم من هذا الطريق .  
اما العناية بالزراعة واحوال الفلاحين فاقترص اهتمام السلاطين والمالِك فيها على استغلال الارض دون مصلحة الفلاح ، وعاشوا بعيدين عن الاراضي ما عدا ايام الخروج للصيد او تربيعة الخيل في الربيع ، شأن الملاك المتغيبين الذين لا يعرفون عن ارضهم شيئاً سوى محصولاتها من عرق الفلاح .

والواقع ان المالِك عاشوا طبقة منفصلة تمام الانفصال عن سائر سكان سلطنتهم بمصر والشام ، ووصفهم المعاصرون بأنهم ارباب السيف تميزوا لهم عن ارباب القلم ، اى طائفة الموظفين المدنيين في مختلف دواوين السلطنة وولاياتها ودور

القضاء والحسبة ومعاهد العلم . وجاءت هذه الطائفة من الموظفين من المصريين والشاميين الذين ظلوا كذلك طبقة منفصلة عن الممالك وعمامة السكان من التجار وأرباب المهن . وعاشت هذه الطبقات الثلاث بمعزل عن الفلاحين وأهل الريف الذين لم يعرفوا عن القاهرة أو الاسكندرية شيئاً ، وكنعوا بتأدية أعمال الزراعة وواجبات النظام الاقطاعي السائد في البلاد وربما عاش الفلاح طول حياته دون أن يرى صاحب الارض التي يزرعها مرة واحدة . على أن هذا النظام الطبقي ظل جامداً ماعداً بعض حوادث الزواج والاختلاط بين بضعة من الممالك وأصحاب القلم من العلماء أو القضاة وغيرهم من كبار الموظفين المدنيين .

ومع هذا غلبت مظاهر القناعة على أهل البلاد ، بسبب ما أفادوا من أجور ومكافآت مقابل ما قاموا به للممالك أرباب السيف وللموظفين أرباب القلم من صناعة الاسلحة والاقمشة والملابس والاولان والأطعمة . ثم أن العصر المملوكي امتلأ بأنواع الملاهي مثل لعب الكرة بالصولجان ( البولو ) ، وسباق الخيل ، ومواكب النصر وحفلات الاعياد الاسلامية والمسيحية .

### العلوم والفنون :

واستطاع الممالك بفضل حصولهم على الاموال الكثيرة توجيه عنايتهم الى العلوم والفنون . وتجلى بدخ سلاطين الممالك وثرأؤهم في ميدان العمارة ، حرصاً على الظهور بالتقوى

والصلاح معظم الأحيان . اذ امتلأت مصر بالمساجد والمدارس والمدافن التى تزين مآذنها وقبابها سماء القاهرة والاسكندرية حتى العصر الحاضر . وعنى المماليك بتزيين عمائرهم وقصورهم بالمصابيح والنواقد ذوات الزجاج الملون فى اشكال زخرفية بديعة .

وتجلى التقدم العلمى فى ميدان الطب والتاريخ . فاشتهر فى دمشق على عهد المماليك ابن أبى اصيبعة ، اعظم مؤرخى الطب فى العالم العربى ( ١٢٠٣ - ١٢٧٠ م ) وهو طبيب باطنى درس الطب فى دمشق والقاهرة . ولف كتابه المشهور « عيون الانباء فى طبقات الاطباء » ويدل المستشفى الذى بناه قلاوون وهو « المارستان المنصورى » على مبلغ تقدم الطب على عهد المماليك . واحتوى هذا المستشفى على اجنحة خاصة لمعالجة الامراض المختلفة، مثل الحمى والرمد ، واقامت به مدرسة لتعليم الطب . ولا يزال مبنى مستشفى قلاوون قائما الى العصر الحاضر ، حيث جعلته وزارة الاوقاف مستشفى للعيون بالقاهرة .

وحفل عصر المماليك بطائفة من كبار المؤرخين ومنهم ابن واصل وابن ابيك الصفدى وابن دقماق والذهبى والمقرئى والعينى وابن حجر والسيوطى وابن اياس . وحفظت مؤلفاتهم الكثير من اخبار دولة المماليك والوان الحضارة فيها . وكثرت فى ذلك العصر المؤلفات المعروفة باسم الموسوعات واشهرها « نهاية الارب » للنويرى ، « وصبح الاعشى » للقلقشندى .

### نهاية دولة المماليك :

يرجع علو المستوى الحضارى فى مصر زمن سلاطين المماليك الى التجارة الدولية التى قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض التجار المصريين اصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند والصين . وادرك سلاطين المماليك اهمية هذه التجارة ، ففرضوا الضرائب الجمركية العالية على الصادرات والواردات . وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحروبهم .

ثم اخذت هذه التجارة تتحول تدريجاً عن مصر والبحر الاحمر بعد ان كشف البرتغاليون طريق الوصول الى الهند والخليج الفارسى بالطواف حول افريقيا ورأس الرجاء الصالح ، والسفر بحراً من اوروبا الى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المماليك اعظم مواردهم المالية السهلة . فصارت الاحوال الاقتصادية تدريجاً من رخاء الى ضيق ، ومن غنى الى فقر . وعجز السلاطين عن النهوض بمرافق البلاد ، فأصاب دولتهم الجمود وتمردت الجيوش على السلاطين ، واصبح كيان الدولة مهدداً ، حتى اذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطة المماليك فى سرعة غير منتظرة .

## الدول المستقلة في فارس والعراق

تولدت في فارس حركة استقلالية منذ أيام الفتوح الاسلامية الاولى . ووضحت هذه الحركة وضوحا متقطعا حتى اواخر الدولة الاموية . ثم اشترك الفرس في الدعوة لبنى عباس ، لعلهم يصيبون بذلك شيئا من الاستقلال بشؤونهم او السيادة على الدولة الاسلامية كلها . لكن هذه الحركة انتكست بافاقة اول الخلفاء العباسيين - وهو ابو العباس الذي اطلق عليه بعض المؤرخين اسم السفاح - لهذه المآرب الانفصالية فقتل اباسلمة الخلال ؛ كما قتل الخليفة الثاني ، وهو ابو جعفر المنصور اباسلم الخراساني ، والمعروف ان كلا من هذين الزعيمين الفارسيين كان من اركان اقامة العباسيين في الخلافة . ثم تخلص رابع الخلفاء العباسيين ، وهو هارون الرشيد من النفوذ الفارسي كله ، وما انطوى عليه من روح استقلالية ، بقتل البرامكة ومصادرة اموالهم سنة ٨٠٣ م . وتم القضاء على ذلك النفوذ الفارسي حين استجلب المعتصم (٨٢١٨هـ/٨٢٣م) جنودا من الترك ليكونوا جيشه من دون الفرس والعرب وأسس لذلك سامرا سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م وجعلها عاصمة جديدة للخلافة العباسية ، بعيدة عن النفوذ الفارسي وبقاياها في بغداد .



غير أن العباسيين لم يستطيعوا القضاء على الحركات الاستقلالية  
الفارسية وغيرها من الحركات الشعبية ، نظرا لاتساع رقعة  
الدولة . ومن امثلة ذلك قيام طاهر بن الحسين ، الذي ولاه المأمون  
على خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م قبل خلافة المعتصم ، اذ  
استطاع هذا الوالي وابناؤه من الظاهريين ان يؤسسوا لانفسهم  
دولة شبه مستقلة دون ان ينفصلوا انفصالا تاما عن الخلافة  
العباسية . وظلت هذه الدولة قائمة حتى سنة ٢٥٩ هـ ، وقامت  
اشباؤها بمختلف الاقاليم العباسية ، ومنها الدولة الصفارية  
والدولة السامانية ، والدولة البويهية ، وكلها قامت في بلاد  
فارس .

### بنو بويه

ورنا بعض امراء هذه الدول المستقلة الى السيطرة على العراق  
نفسها مقر الخلافة العباسية وضمها الى سلطانهم ، متخذين  
لانفسهم لقب امير الامراء . ومن اولئك بنو بويه ، واصلهم فيما  
يقال يرجع الى ملوك ساسان الفارسيين ، الذين تشردوا الى  
اقليم الديلم الواقع في المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين . وتزعم  
قبائل البويهيين فى خلافة الراضى العباسى ابو شجاع بويه . وفى  
سنة ٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م جمع ابو شجاع هذا رجال قبيلته وتوغل  
بهم فى جنوب فارس . وهدف الى تأسيس دولة له على حساب  
الولاة المسلمين المتنازعين فيما بينهم . ولم يستطع هؤلاء الولاة  
له دعما ، فاحتل ابو شجاع شيراز ، وجعلها عاصمة لدولة

جديدة . ثم امتدت حركاته الى الاهواز ( وهى الآن خوزستان )  
ثم الى اقليم كرمان .

وفى سنة ٣٢٤هـ / ٩٤٥م - وهى السنة العاشرة لقيام الدولة  
الاخشيدية فى مصر - اتجه احمد بن ابي شجاع بويه نحو بغداد  
بقوة حربية ، فلم تستطع حاميتها المكونة من الحرس التركى  
مقاومته ، ودخل احمد المدينة فى سهولة ويسر . واستقبل  
الخليفة المستكفى زعيم بنى بويه وانعم عليه بلقب « معز الدولة »  
تشريفا له وبرهانا على الاعتراف بسطوته . ولم يكتف احمد  
بويه بهذا اللقب ، الذى لم يعد ان يكون مرادفا للقب « امير  
الامراء » . فأصر على ذكر اسمه مع اسم الخليفة فى خطبة  
الجمعة ، وان يسك اسمه فى العملة ايضا . وبلغ معز الدولة  
مركزا عاليا ، واصبح الحاكم الفعلى فى بغداد دون ان يتعرض  
للخليفة ، غير انه لم يلبث ان كشف عن نيته نحو المستكفى ،  
فقبض عليه وسمل عينيه سنة ٩٤٦م ، واختار بدله المطيع  
خليفة . ودل الخليفة الجديد على انه جدير باسمه ، اذ امسى  
مطيعا لكل ما اراده البويهيون منه ، وبات اداة طيعة فى ايديهم .

وبلغ البويهيون اقصى قوتهم ايام عضد الدولة الذى اتخذ  
لنفسه لقب شاهنشاه ( اى ملك الملوك ) ، على حين اكتفى  
بنو بويه قبله بالقب التبجيل والتفخيم مثل عماد الدولة وركن  
الدولة . ومن ثم فاق عضد الدولة اسلافه قوة وعظمة ، وتزوج  
من ابنة الخليفة الطائع ، ودلت القاب واعماله على نفوذ واسع

وجبروت شديد . وظلت شيراز عاصمة للبويهيين منذ وصولهم اليها . وبدت العراق كأنها ولاية تابعة لها ، بعد ان تحول محور الارتكاز والقوة في الخلافة العباسية الى هذه المدينة .

ثم استطاع عضد الدولة ان يضم الى سلطانه مختلف الدويلات الصغيرة المجاورة التي ظهرت على عهده في فارس والعراق ، وبدا غدا اعظم حاكم في الدولة الاسلامية . واهتم عضد الدولة ببغداد رغم بقاء بلاطه في شيراز فاتخذ لنفسه وخلفاؤه من بعده قصورا في العاصمة العباسية القديمة ، وغدت هذه القصور بجمعها اسم « دار الخلافة » وانشأ عضد الدولة كثيرا من العمائر في بغداد ، مثل المستشفى المشهور باسم « البيمارستان العضدي » نسبة اليه ، واحتوى هذا المستشفى على اربعة وعشرين طبيبا ، وصارت هذه المجموعة هيئة للتدريس والأبحاث الطبية ، فضلا عن علاج المرضى . وتغنى الشعراء مثل المتنبي بعظمة عضد الدولة ، واهدى المؤلفون مؤلفاتهم اليه ، مثل العالم النحوي ابي علي الفارسي صاحب كتاب « الايضاح » .

وأورث عضد الدولة ابناءه بعده سياسة مرسومة لتشجيع العلم ، فبنى ابنه شرف الدولة دار الرصد ببغداد ، وأسس بها بهاء الدولة ، اخو شرف الدولة ، مجمعا علميا سنة ٩٩٣م بمساعدة وزيره الفارسي سابور بن اردشير . واحتوت مكتبة هذا المجمع على ١٠٠٠٠ كتاب ، انتفع بها ابو العلاء المعري أيام تلمذته في

بغداد . وازدهرت في عهد شرف الدولة جماعة اخوان الصفا ، وهي  
احدى الفرق الفلسفية في الدولة الاسلامية .

غير ان الدولة البويهية اخذت في الانهيار بسبب النزاع على  
السلطة بين الاخويين بهاء الدولة وشرف الدولة . وامتد هذا  
النزاع الى سائر افراد الاسرة ، وعجل بالقضاء على البويهيين ،  
لان مذهبهم الشيعى جعلهم بغيضين الى السنين من اهل بغداد .  
ولذا اخذت هذه الدولة تنكمش تدريجا بسبب حركة السلاجقة  
وزعيمهم طغرل بك الذى لم يلبث ان قام بمثل ما قام به زعيم  
البويهيين ابو شجاع قبلا ازاء الخلافة العباسية حتى قضى على  
البويهيين سنة ١٠٥٥ م .

### السلاجقة

والسلاجقة قبيلة من قبائل الغز التركية واسها زعيم اسمه  
سلجوق ، وقبيلته من برارى القرغيز في التركستان ، واستقر  
به الترحال في بخارى ؛ حيث اعتنق الاسلام على المذهب السنى .  
وانتشر الاسلام بين السلاجقة الذين لم يلبثوا ان اخذوا على انفسهم  
الدعوة للسنة ضد الشيعة ، فاخذ سلجوق يغير على الدول الشيعية  
القائمة في فارس مثل الدولة السامانية . ثم اعد سلجوق ابناءه  
واحفاده للغزو والفتح ، واستطاع طغرل احد احفاده ان يستولى  
سنة ١٠٣٧ م على اقليم خراسان ، في الشمال الشرقى من  
فارس . واستمر طغرل في تقدمه في بلاد فارس والعراق حتى

تصدع بيت بنى بويه في شيراز وبغداد . وفي سنة ١٠٥٥ م وقف طغرل على رأس جماعة من جنده الغز الأتراك امام ابواب بغداد ، كما وقف احمد بن ابو الشجاع بويه قبله . فسلمت المدينة له دون مقاومة ، واستقبل الخليفة طغرل زعيم السلاجقة كما استقبل احمد ابو شجاع من قبل .

### الدولة السلجوقية في عز أيامها : -

ولم يلبث الخليفة القائم العباسي ان اعترف بطغرل سلطانا ، ومنحه لقب « ملك الشرق والغرب » . وتدفقت القبائل التركية على العراق بعد نصره طغرل وتوفيته الذي جعله صاحب الامر في بغداد . واستغل السلاجقة مركزهم في بغداد الى جانب الخلافة العباسية ، فعمدوا الى توسيع سلطانها . على ان السلاجقة لم يستهدفوا تقوية مركز الخليفة العباسي نفسه ، وانما عمدوا الى نشر المذهب السني الذي دانت به الخلافة العباسية ، ومحاربة الفاطميين الشيعة ، املا في اعادة الوحدة للدولة الاسلامية .

وتولى البارسلان السلجوقي ، ابن اخى طغرل ، سنة ١٠٦٣ م القيادة العليا للجيش السلجوقي ، فسير شعبة منها نحو الشام ، وشعبة ثانية الى بلاد العرب ، وكلاهما تابع للدولة الفاطمية الشيعية ، وسير شعبة ثالثة قام هو على رأسها نحو ارمينيا وآسيا الصغرى من املاك الدولة البيزنطية - وآسيا الصغرى هي بلاد الروم على قول المؤرخين المسلمين . واستولت

الجيوش السلجوقية على حلب سنة ١٠٧٠ م ، وانتزعت مكة  
والمدينة بعد ذلك بقليل ، على حين انتصر الب أرسلان على  
الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين سنة ١٠٧١ م فى وقعة  
منزكرت ( ملازكرد ) فى الشمال الشرقى من بحيرة فان ، وابد  
معظم الجيش البيزنطى حتى باتت آسيا الصغرى تحت رحمته  
فانتشرت جيوشه فيها الى قرب البسفور والدردينيل . ومن  
هذه الفتوح تأسست دولة السلاجقة الروم فيما بعد .

ورغم اتساع الدولة السلجوقية ، واستئثار سلاطينها بالسلطة  
الفعلية فى بغداد ظل اولئك السلاطين فى مدينة اصفهان . ولم  
ينتقلوا الى بغداد ويتخذوها عاصمة الا سنة ١٠٩١ م على عهد  
ملكشاه السلجوقى . وفى عهد هذا السلطان بلغت الدولة  
السلجوقية اقصى عظمتها ، فبنى ملكشاه المساجد ، وانشأ  
الخانات ( الفنادق ) على طرق القوافل لراحة المسافرين ، وعبد  
طريق الحجاج الى مكة وزوده بالحراس . وأمر ملكشاه بتجميل  
بغداد وتنظيمها ، فحرم تصريف المياه المتسربة من الحمامات  
العامة الى نهر دجلة ، وجعل لهذه المياه اماكن لتصريفها .

وساعد ملكشاه فى ادارة مملكته ، التى اصبحت ممتدة من  
مدينة قشغر الى بيت المقدس ، وزيره الفارسى « نظام الملك » ، وهو  
من اعظم شخصيات التاريخ الاسلامى . والف نظام الملك كتابا  
فى فن الحكم يعرف باسم « سياسة نامه » ، ورعى  
الشخصيات المشهورة فى العلوم والآداب ، فتمتع عمر

الخيّام ، الشاعر الفارسي والفلكي الكبير بعطفه ، وتوج الوزير مجده بإنشاء المجامع العلمية في بغداد ، وأشهرها المدرسة النظامية التي تم بناؤها سنة ١٠٦٧ م . ومن تلاميذ هذه المدرسة السعدي الشاعر الفارسي الكبير ، مؤلف بستان السعدي ، وعماد الدين الاصفهاني وبهاء الدين بن شداد ، وهما اللذان خدما صلاح الدين والدولة الايوبية في مصر ، وعبد الله بن تومرت ، الذي أسس دولة الموحدين في افريقيا ، وابو اسحق الشيرازي مؤلف كتاب المهذب والتنبيه ، وهو أول شيوخ النظامية . ومن تلاميذ النظامية كذلك ابو حامد الغزالي ؛ وهو الذي تولى كرسى الاستاذية بها مدة .

#### تفكك دولة السلجوقية :

غير أن عظمة الدولة السلجوقية استندت الى شخصية سلاطينها ، ولذا اخذت هذه الدولة في التفكك بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ م وعدم قيام شخصية تقربه ، هذا فضلا عن حروب أبناء البيت السلجوقي . ومن ثم تطلع أبناء البيت السلجوقي الى الاستقلال بما يملكونه من ولايات اقليمية ، كار الدولة ارث ينبغي تقسيمه انصبة بين أبناء الاسرة . وغدت الدولة السلجوقية مضطربة الاحوال لكثرة الحروب الداخلية فحلت محلها دول الاتابكة بالعراق وفارس كما حلت دولة الاتراك العثمانيين محل سلجوقية الروم بآسيا الصغرى سنة ١٢٠٠ م .

## الدولة الحمدانية

### الحمدانيون في الموصل والشام :

تتطلب معرفة احوال هذه الدولة رجوعا الى ايام الاتراك اصحاب وظيفة « أمير الامراء » في بغداد ، واستبداد اولئك الامراء بالسلطة من دون الخليفة العباسي . ذلك ان بعض القبائل العربية التي سكنت بادية الشام ووادي الفرات استغلت ضعف الخلافة العباسية واستقلت بالمدن والقلاع الواقعة في ارضها ، ومن امثلة ذلك ماقامت به قبيلة تغلب ، اذ استطاعت بفضل ابناء زعيمها حمدان بن حمدون ان تؤسس دولة لها في شمال العراق ، وان تتخذ من مدينة الموصل عاصمة لها ( ٣١٧ - ٣٥٨ هـ / ٩٢٩ - ٩٦١ م ) .

وتعصبت هذه الدولة للعروبة ، وساءها استبداد الاتراك بالخلافة العباسية . فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمداني الى بغداد ، ومعه اخوه ، لناصر الخليفة المتقي بالله ( سنة ٢٣٠ هـ / ٩٤١ م ) . وكافا الخليفة هذا الزعيم الحمداني بأن عينه في وظيفة « أمير الامراء » ومنحه لقب ناصر الدولة . ثم منح الخليفة المتقي اخا ناصر الدولة الحمداني كذلك لقب سيف الدولة . على ان الاتراك استطاعوا بزعامه قائدهم توزون ان يطردوا الحمدانيين من بغداد وان يحملوهم على العودة الى الموصل سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ م .

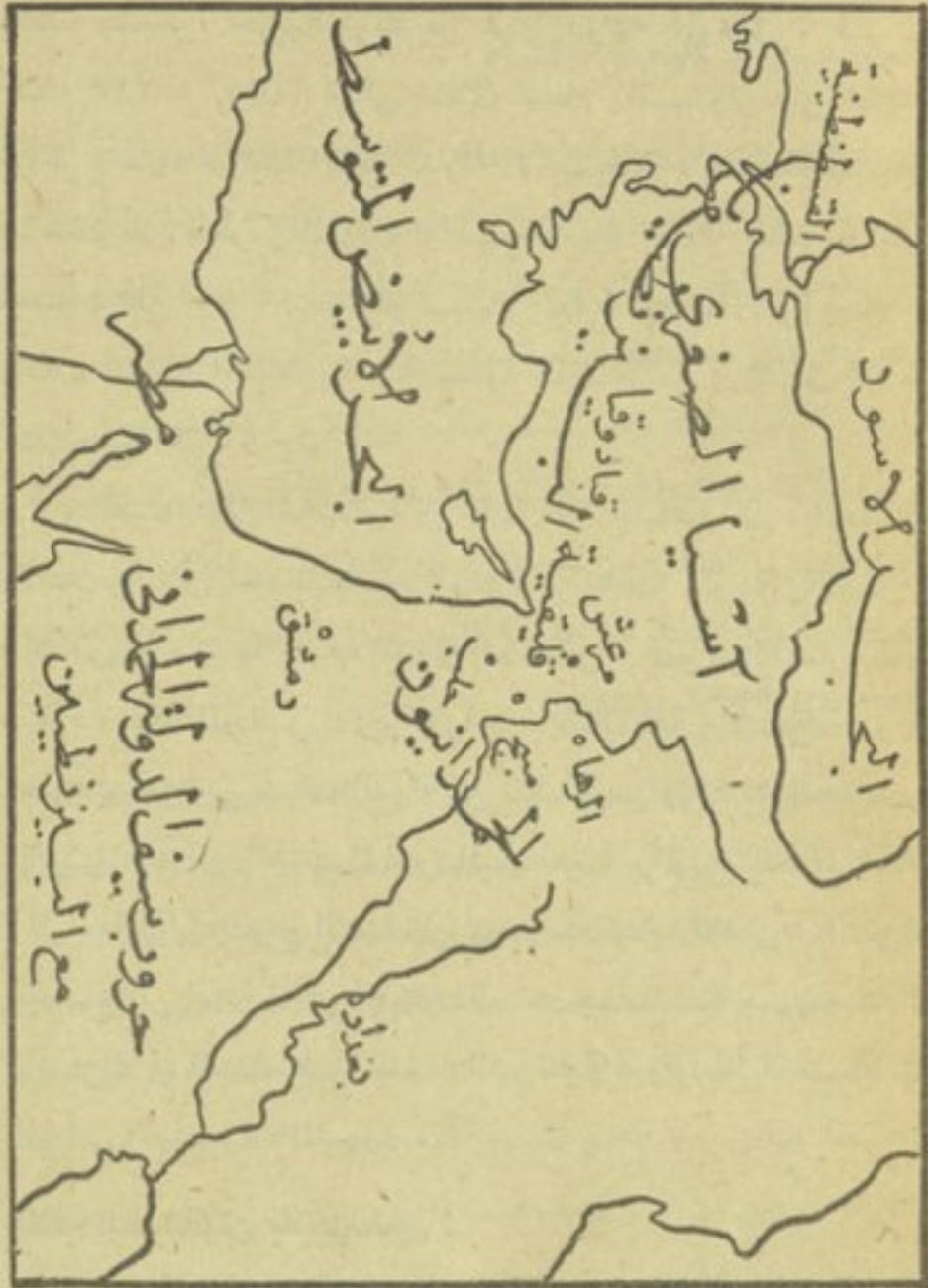


وتطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد الى القيام بمغامرة حربية تزيد من شان دولته بالموصل . فسار سنة ٢٢٣ هـ / ٩٤٤ م الى شمال الشام واستولى على حلب ، واخرج منها حاكمها التابع للدولة الاخشيدية ، صاحبة السيادة اذ ذاك على مصر والشام . واصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب ، على حين اصبح البويهيون وقتئذ اصحاب الامر في بغداد . وظلت الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب قائمة في شمال الشام حتى سنة ١٠٠٣ م .

وخلقت الدولة الحمدانية في حلب آثارا جليلة في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وفي مجد المسلمين ، رغم قصر مدتها . ويعزى الفضل في ذلك الى مؤسسها سيف الدولة الحمداني ، فهو من انصار العلم ، شغوف بعقد المجالس الادبية الزاخرة بالفلاسفة والشعراء . والذا اجتذبت مجالس سيف الدولة من المشهورين في تاريخ الحضارة الاسلامية ابو الطيب المتنبي الشاعر ، والمؤرخ العظيم للأدب والموسيقى ابو الفرج الاصفهاني ، صاحب كتاب الاغانى ، والخطيب الفصيح ابن نباتة الذى الهبت عطاته حماسة مستمعها الى الاشتراك في الجهاد ضد الدولة البيزنطية ، وهذا فضلا عن الفارابي الفيلسوف المشهور .

#### علاقة الحمدانيين بالبيزنطيين :

واتسعت دولة الحمدانيين سواء في الموصل او في حلب على طول منطقة الاطراف الاسلامية المتاخمة لاراضي الدولة البيزنطية



حروب سيف الله الجباري  
مع الكبيزانيين

في جنوب آسيا الصغرى . وتكونت منطقة الأطراف بين الحمدانيين والبيزنطيين من سلسلتى جبال طوروس بمعانقها وحصونها ذات المكانة الحربية الاستراتيجية . وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة لمساعدة جيوشهم على الهجوم أو الدفاع . واشتهرت هذه السلسلة من الحصون منذ ايام الخليفة هارون الرشيد باسم اقليم العواصم والثغور .

وانقسم هذا الاقليم الى قسمين : احدهما في الشمال الشرقى واسمه ثغور الجزيرة للدفاع عن شمال العراق ، والآخر في الجنوب الغربى واسمه ثغور الشام . وظلت الاغارات سنويا بين المسلمين والبيزنطيين في هذه المنطقة الهامة ، فلما ضعفت الخلافة العباسية طمع اباطرة الدولة البيزنطية في الاستيلاء على اقليم الثغور ، والهجوم منه على سائر اراضى المسلمين . ومن ثم غدا قيام الدولة الحمدانية في شمال العراق والشام حاجزا شدا هجمات البيزنطيين في وقت اضحت الدولة الاسلامية فيه نهبا للفوضى والقلال الداخلية ، وليست لديها قوة حربية كافية .

وخلد سيف الدولة الحمدانى اسمه في حروبه المتكررة ضد البيزنطيين والتصدى لاعمالهم العدائية على ارض المسلمين . فبدأ سيف اغاراته على آسيا الصغرى سنة ٩٤٧ م دون ان يهمل سنة واحدة في تجهيز حملة حربية لذلك الغرض ، وبدا

استولى على كثير من الحصون البيزنطية مثل مرعش وغيرها من مدن الحدود. وعاصرت حركات سيف الدولة قيام اعظم امبراطورين عسكريين عرفتهما الدولة البيزنطية ، وهما نقفور فوقاس وحناء شمشق . وبلغت الدولة البيزنطية على عهد هذين الامبراطورين اقصى قوتها الحربية . ذلك ان نقفور فوقاس استطاع ان يستولى على حلب نفسها عاصمة سيف الدولة سنة ٣٥١ هـ / ١٦١ م . غير ان القوات البيزنطية انسحبت منها بعد ثمانية ايام بسبب المقاومة الحمدانية . اما الامبراطور حناء شمشق فاتجه الى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتوغل كثيرا في اراضي الشام . ولكنه عاد سريعاً من اغارته الخاطفة بفضل مقاومة الحمدانيين في حلب ومقاومة الفاطميين في سائر الشام . وتولى شؤون الدولة الحمدانية اذ ذلك سعد الدولة بن سيف الدولة ( ٩٦٧ - ٩٩١ م ) .

لكن الدولة الحمدانية دخلت بعد ذلك في مرحلة اسيفة من النزاع الداخلى ، وانتهت هذه المرحلة بانهيار الدولة الحمدانية بعد ان قامت حارسة على اطراف الدولة الاسلامية في وقت لم يدرك الخلفاء العباسيون في بغداد قيمة الدفاع عنها . ولجأ بعض المتنازعين على السلطة من الحمدانيين الى الخلافة الفاطمية القائمة في مصر والشام وقتذاك ، على حين ظلت الخلافة العباسية غارقة في الضعف والفوضى .

## الاسلام في الهند

### الفتوح الاسلامية في الهند :

امتدت الفتوح الاسلامية الاولى في الهند زمن الامويين الى مدينة الملتان باقليم السند ، ثم توقفت بعد ذلك حتى قيام الخلافة العباسية ، ووصلت الحملات الاسلامية على عهد الحليفة المأمون واخيه المعتصم الى منطقة كشمير .

### فتوح محمود الغزنوى :

على ان المرحلة الهامة في فتح الهند على عهد العباسيين قامت على ايدى الغزنويين ، الذين استقلوا بشؤونهم عن الخلافة العباسية في بغداد ( من ٩٦٢ - ١١٨٦ م ) ، واتخذ الغزنويون عاصمة لهم في مدينة غزنة ببلاد الافغان ، الواقعة على هضبة مرتفعة مشرفة على السهول الشمالية للهند عن طريق ممر كابل .

واستغل محمود بن سبكتكين الغزنوى ( ٩٩٦ - ١٠٣٠ م ) هذا الموقع الجغرافي لعاصمته وعمد الى توسيع رقعة دولته في الهند . وخاض في المدة ما بين سنتي ٣٩٢ ، ٤١٥ هـ ( ١٠٠١ - ١٠٢٤ م ) غمار مالايقل عن سبع عشرة حملة على الهند ، وبذا تم الاستيلاء على سائر اقليم البنجاب ووطد نفوذ المسلمين في ارض السند وبلاد كشمير .

واستهل محمود بن سبكتكين انتصاراته بهزيمة جييال ملك  
البنجاب ، ثم قضى فيما بعد على حركات المقاومة التي أضطلع  
بها ابن الملك جييال . وعاد محمود الغزنوى من غزواته محملا  
بالفنائم التي جلبها من المعابد الوثنية . ونال شهرة عالية  
حسده عليها المعاصرون له ، لنجاحه في نشر الاسلام في بقاع  
جديدة . فأطلق المعاصرون عليه لقب ( الغازى ) ، وغدا هذا  
الاسم بعده علما للقائمين بنشر الاسلام . وأصبح محمود  
الغزنوى مؤسس دولة واسعة ضمت رقعة كبيرة من ارض  
الهند ، ومهد لحكم المسلمين الفعلى في تلك البلاد الجديدة .  
ويوافق هذا مدة قيام السلاجقة في فارس والعراق والشام  
وآسيا الصغرى .

غير أن بلاد الهند تعرضت بعد موت محمود بن سبكتكين لما  
تعرضت له سائر بلاد الدول الاسلامية المستندة الى شخصيات  
مؤسسيها . فنشأت دويلات اسلامية مستقلة بأرض الهند ،  
واقسمت هذه الدويلات خلفاء محمود الغزنوى . ولما زال سلطان  
الغزنويين نهائيا من شرق الافغان وذهبوا من غزنة سنة ١١٥٠ م ،  
اتجهت أسرة محمود الغزنوى الى مدينة لاهور بالهند وجعلتها  
عاصمة للبقية الباقية من مملكاتهم .

وتطلعت الدولة الغورية التي خلفت الغزنويين في بلاد الافغان  
الى بسط نفوذها على الهند ، فاستطاع ملوكها بعد سلسلة من  
الحروب ان يستولوا على مملكات الغزنويين سنة ٥٩٦ هـ /

١٢٠٢ م . لكن الهند دخلت بعد زوال سلطان الاسرة الفورية في دور جديد من حياتها ، قوامه استقلال بعض الحكام المسلمين بشؤونها ، واتخاذهم القاب ملوك الهند . ونال بعض اولئك الملوك وثائق تفويض بالحكم من الخليفة العباسي في بغداد ، ومن اولئك شمس الدين التماش الذي حكم الهند مستقلا مدة بلغت خمسة وعشرين عاما ( ١٢١١ - ١٢٣٥ م ) .

### المغل

#### قيام دولة المغل بالهند :

وتعرضت الدول الاسلامية التي قامت بالهند لهجمات تام بها المغل ، الذين يختلفون كل الاختلاف عن المغول ودولتهم التي اسسها جنكيزخان وخلفاؤه في جوف آسيا والصين وايران وشمالى بحر قزوين . ومؤسس دولة المغل بالهند هو بابر ظهير الدين حفيد ميران شاه بن تيمورلنك المشهور . وتولى بابر حكم فرغانة بعد وفاة ابيه سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٤ م . ثم اخذ يعمل على توسيع رقعة بلاده في الجهات المجاورة لدولته ، فاستولى على سمرقند سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٨ . ثم اضطر بابر ازاء هجمات اعدائه من المغول في تلك الجهات الى ترك الدولة التي ورثها عن ابيه . فعبر جبال هندكوش الى الهند ، تحذوه الامال لتأسيس دولة هناك ، تعوضه عما فقده من سلطان ، وزحف بما تبقى له من قوات على اقليم البنجاب

سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م ، واستولى على لاهور ، وانزل بالسلطان  
ابراهيم صاحب دهلي هزيمة فادحة ، ادت الى استيلاء بابر على  
دهلي نفسها واخضاع الاجزاء الشمالية من الهندستان  
لسلطانه

واتخذ بابل مدينة اجرا حاضرة لدولته ، واضطر الى محاربة  
زعماء الاقاليم المجاورة له ، وتوفي سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٢٠ م قبل  
ان يخضع مملكتى البنجاب وجوجارات .

وتابع همايون بن بابر حروب والده ، فعمد الى اخضاع  
مملكة جوجارات غير ان ملك البنجاب حمله على التقهقر نحو  
الغرب حتى اضطر همايون الى الهرب الى السند ، والتجأ الى  
فارس .

واخذ همايون يستعيد سلطانه في الهند ، فاستولى على دهلي  
سنة ١٥٥٥ م حيث توفي هناك في يناير سنة ١٥٥٦ م . وترك  
هو همايون لابنه «اكبار» البالغ من العمر وقتذاك اربعة عشر عاما اتمام  
استرداد ممتلكات ابيه في الهند . وفي سنة ١٥٥٦ م استرد السلطان  
اكبار سيادته على معظم الهندستان ، وتابع بعد ذلك اخضاع المدن  
الكبرى حتى استولى على كشمير كلها سنة ١٥٨٧ م .

وعمد السلطان اكبار الى تأمين حدود بلاده من الجنوب  
فاستولى على اطراف هضبة الدكن سنة ١٦٠١ م ، دون ان  
يتوغل داخل هذا الاقليم . واتجه اكبار بعد ذلك الى اصلاح



دولته داخليا ، واشتهر باصلاحاته المالية ، ومال الى جماعة الهندوس ، وعاملهم معاملة طيبة ، واهتم بدراسة الفرق الاسلامية ونظرياتها ، ولكن سرعان ماسئم جدلها وانصرف الى ترجمة بعض الكتب الهندوسية المقدسة .

وبلغت دولة المغل الاسلامية في الهند اوج عظمتها على عهد جهان كير وشاه جهان ، فازدهرت بها فنون البناء والمعمار ، وآية ذلك القصر المعروف باسم تاج محل ، والمسجد الكبير في مدينة اجرا ، فضلا عن القصور المرمرية في دلهي . وفي سنة ١٦١٥ م ارسل جيمس الاول ملك انجلترا سير توماس راو الى بلاط السلطان جهان كير ليطلب منح انجلترا حقوقا تجارية في الهند ، فاعتذر جهان كير وقتذاك خوفا من سيطرة الهولنديين على البحار في المحيط الهندي . ثم حدث بعد ذلك ان استجاب جهان كير لالاحاح الانجليز ، بعد ان شهد بنفسه صعوبة منع السفن الانجليزية عن سواحل الهند للتجارة والاستعمار ، وهذا هو بداية دخول شركة الهند الشرقية الانجليزية في ميدان التجارة بالهند والشرق الاقصى ، بعد ان حصلت من حكومتها على امتياز بذلك .

وظلت رقعة دولة المغل تنمو وتتسع على عهد سلاطينها حتى ايام اورنجزيب (١٦٥٩ - ١٧٠٧ م) اذ اتجهت انظار هذا السلطان الى هضبة الدكن ، فقام بعدد من الحملات واحرز انتصارات باهرة على امرائها المسلمين ، لكنه رغما عن هذه الانتصارات ظلت معاقل

الدكن وجبالها الداخلية مستعصية على اورنجزيب . على ان دولة  
المغل بلغت عند وفاة اورنجزيب اقصى اتساعها اذ امتدت من  
كابل الى مصبات نهر الكنج ، ومن سورأت عبر حيدرآباد الى مدراس ،  
وبدت الهند جميعها عدا راس هضبة الدكن خاضعة اسميا للمغل .  
ثم بدأت دولة المغل فى الانحلال بعد وفاة اورنجزيب ، اذ  
خلفه سلسلة من الباطرة الضعاف الفاسدين . وثار القوي  
الخاضعة للمغل وأعلنت عليهم العصيان ، مثل الراجبوتيين ،  
وابت الاعتراف بسلطانهم . واستقلت هذه القوي بالبلاد  
التابعة لها ، ومهدت الاحوال فى مقاطعات  
كلكتا وبومباى ومدراس لاستقرار النفوذ الاوربى الذى مثلت  
طلائعه هناك شركة الهند « الانجليزية » . وفى سنة ١٧٥٧ م .  
وقعت وقعة بلاسى ، وكذلك وقعة بوكارسنة ١٧٦٤ م ، اللتان  
وضعتا حدا لشبح سلطنة المغل ، وبانت هذه السلطنة ظللا لاقيمة له .  
وخضع اخر السلاطين الثلاثة فى دولة المغل لنفوذ شركة الهند الشرقية  
البريطانية ، ونالوا منها العطاءات والاموال . وتوفى اخر اولئك  
السلاطين وهو بهادر الثانى فى المنفى سنة ١٨٦٢ م ، بعد ان فقد  
عرشه فى ثورة اشعلها ضد المستعمرين البريطانيين .

## الفصل الرابع

# العالم الاسلامى بين الصليبيين والمغول

### اهمية العالم الاسلامى

#### الموقع:

بتضح مما تقدم هنا بشأن الدولة السلجوقية الكبرى ان قيام هذه الدولة فى القرن الحادى عشر الميلادى اعاد الى المسلمين بعض الهيبة التى بددتها مظاهر الضعف فى الخلافة العباسية . وبفضل السلاطين السلاجقة غدت دار الاسلام - وهو ماجرى عليه المصطلح عند الفقهاء فى تسمية الدولة الاسلامية - قبة انظار العالم مرة اخرى . فالناظر الى خريطة العالم الاسلامى على عهد السلطان السلجوقى ملكشاه ( ٤٦٦ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م ) يرى ارتباط اواسط آسيا حتى تركستان مع الجزء الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وانفراد هذه الرقعة الجغرافية بعودة الروح الاسلامية الاولى سواء من ناحية التوسع الحربى ، او من ناحية النشاط العلمى .

وجاورت هذه الدولة السلجوقية السنية غربا دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، التى سيطرت على جهات من العالم الاسلامى

لا تقل أهمية عن ممتلكات السلاجقة . فامتد سلطان الفاطميين على مصر وجنوب الشام حيث يلتقى اعظم بحرين في العالم القديم ، وهما البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر . وعلى الرغم من العداء الذى استحكم بين السلاجقة والفاطميين لاختلافهما حول المذهب السنى والشيعى ، لم تستطع احدى الدولتين ان تقضى على جارتها مع كثرة الحروب بينهما ، ولذا بدت كل منهما ذات مكانة هامة في العالم الاسلامى ، فضلا عن الدولة الاموية بالاندلس ، وهى دولة عظيمة الهيبة والمدنية في الجزء الجنوبي الغربى من اوربا . وهكذا بدا العالم الاسلامى في نظر العالم الاوروبى المسيحى على الاقل ، يقبض بطرفيه على اوربا من الشرق والغرب .

اما اهم دول اوربا وقتذاك ، فاولهما الامبراطورية الغربية الالمانية ، التى اشتملت على المانيا الحالية وايطاليا واجزاء من بلجيكا وهولندا والنمسا والمجر ، وهى التى صار اسمها الرسمى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وامبراطورها وقتذاك هنرى الرابع ( ١٠٥٦ - ١١٠٦ م ) . وقامت في فرنسا مملكة قوية تولى عرشها ملوك من اسرة هيوكاييه ، التى اشتهر منها وقتذاك الملك فيليب الاول ( ١٠٦٠ - ١١٠٨ ) . وفى انجلترا اسس النورمانيون مملكة قوية تولى عرشها اذ ذاك الملك وليم الثانى ( ١٠٨٧ - ١١٠٠ م ) . وفى اسبانيا المسيحية قامت ممالك نافار

وارجونة وقشتالة ، وهى الممالك التى نهضت لحرب المسلمين  
بالاندلس اجيالا عديدة .

وفى اقصى الشرق الاوربى قامت الدولة البيزنطية ، التى هزم  
السلجقة امبراطورها رومانوس ديوجينيس فى وقعة منزكرت سنة  
١٠٧١ م . وتولى عرش الدولة البيزنطية بعد هذه الوقعة الفاصلة  
الامبراطور ميخائيل السابع ( ١٠٧١ - ١٠٧٨ م ) . وهو الذى  
ارسل استغاثة للبابا جريجورى السابع لصد الزحف السلجوقى ،  
وعبا الشعور فى غرب اوروبا للحروب الصليبية .

### طرق التجارة :

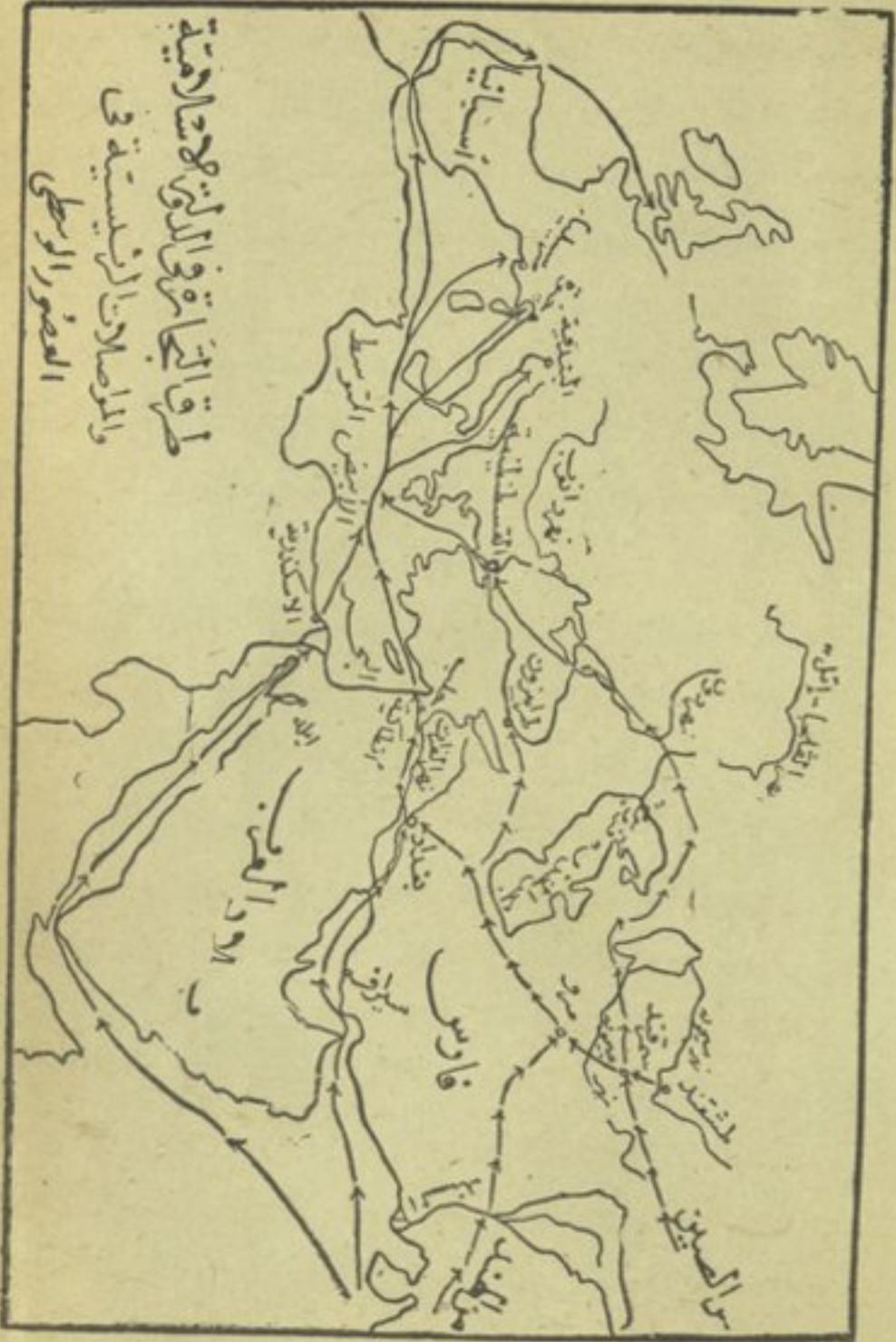
ومما زاد فى هيبة العالم الاسلامى وقتذاك سيطرة المسلمين  
على الميزان التجارى بين الشرق والغرب ، اذ كفل الموقع الجغرافى  
للمسلمين اشرافا على حركة التبادل التجارى الدولى رغم تعدد  
القوى السياسية التى تولت امورهم . ذلك ان التيار التجارى  
الرئيسى فى العالم تدفق فى العصور الوسطى من الشرق الاقصى  
والهند الى البحر الابيض المتوسط ، حيث هيمنت مصر والشام  
وآسيا الصغرى وايطاليا على جميع الطرق التجارية ، واجاد  
التجار المسلمون معرفة المسالك البرية والبحرية الاتية من هذه  
البلاد ، وظهرت الكتب الواصفة للمحطات والمدن الهامة القائمة عبر  
هذه الطرق ، واتخذت هذه التجارة الشرقية اربعة طرق رئيسية  
للوصل الى القسم الشرقى من البحر الابيض المتوسط ( انظر

الخريطة ص ٢٤٣ ) . وجاء احد هذه الطرق من شرق آسيا مارا بتركستان ثم بحر قزوين ( بحر الخزر ) حيث تفرع الى فرعين ؛ اتجه اولهما شمالا الى نهر الفلجا ( نهر اتل ) ، ومنه الى البحر الاسود ، ثم انتهى الى القسطنطينية ، اما الفرع الاخر فسار جنوبا ، مخترقا شمال فارس ، ومر بارمنية الى طرايزون على البحر الاسود ومن هذين الفرعين انتقلت التجارة من موانئ البحر الاسود عبر البسفور والدردينيل الى البحر الابيض المتوسط .

اما الطريق الثانى فجاء كذلك من آسيا ، مارا بالهند وافغانستان واواسط فارس الى بغداد ونصيبين ودمشق . وبدا الطريق الثالث من الخليج الفارسى ، ثم اتبع طريق الفرات ، حيث تشعب شعبتين ، اخترقت احدهما سوريا والاخرى آسيا الصغرى .

اما الطريق الرابع والاخير ، فكان بحريا من اوله الى آخره ، اى من الخليج الفارسى فى ايران الى البحر الاحمر فى مصر .

واشرف المسلمون على هذه الطرق الواقعة كلها فى ارضهم ، عند اجزاء من الطريق الاول . وغدت هذه الطرق متصلة ميسورة سواء فى غرب آسيا او مصر وشمال افريقية ، اذ اهتم السلطان السلجوقى ملكشاه بتعبيد الطرق وتأمينها ، واقامة الفنادق لراحة المسافرين فيها ، كما اهتمت الدولة الفاطمية بمختلف الطرق المؤدية الى مصر ، حتى اصبح التاجر يستطيع الانتقال من اطراف الصين الى الشام دون حراسة بفضل نفوذ السلاطين المسلمين وسطورتهم .



طرق التجارة في الدلتا والامم  
والمرصحات الرئيسية في  
المصر والوسطى

وجاءت السفن الأوربية الى موانئ المسلمين بشواطئ البحر الأبيض المتوسط - اى الاسكندرية ودمياط وطرابلس الشام - للحصول على منتجات الشرق الاقصى وغيرها مما تحتاج اليه من منتجات البلاد الاسلامية . وقامت الامبراطورية البيزنطية بدور العميل الاول مع الدولة الاسلامية ، تستورد منها المتاجر وتتولى تصريفها الى سائر بلدان أوروبا الغربية ، وتحمل من منتجات أوروبا الى المسلمين وقتذاك كميات كبيرة من الفراء والعسل والجلود والاسلحة . وحرصت الامبراطورية البيزنطية على استمرار سيطرتها التجارية على دول غرب أوروبا باحتكار الصناعات المعتمدة على الواردات الشرقية ، مثل صناعة الحرير وصقل المجوهرات والنقش على العاج . واشرف التجار اليهود على ما تبقى بعد ذلك من تجارة دول أوروبا الغربية سواء مع المسلمين او البيزنطيين . فذكر احد الجغرافيين المسلمين ، وهو ابن حرداذبة ان التجار اليهود جاءوا من اقليم بروفانس فى بلاد الفرنجة ( فرنسا ) ، ومعهم الجوارى والفلمان والفراء والسيوف وسافروا بها بحرا الى الفرما فى مصر ثم نقلوها على ظهور الدواب الى القلزم ( السويس ) ، ومن هناك استأنفوا رحلتهم بحرا الى الهند والصين . وعاد اولئك التجار بمنتجات الشرق الاقصى الى الفرما مرة اخرى ، ومنها ركبوا البحر الى بلاد الفرنجة او الى القسطنطينية .

ثم تطورت وسائل اتصال أوروبا بالبلاد الاسلامية والشرق



الاقصى منذ بداية القرن العاشر الميلادى ، اى منذ اخذت المدن الايطالية التابعة اسميا للدولة البيزنطية ، تسعى للاستقلال بشؤونها التجارية ، وتعمل للاتصال مباشرة بالدول الاسلامية . ولم يات القرن الحادى عشر حتى تخلصت المدن الايطالية تماما من سيطرة البيزنطيين على تجارة الشرق ، وحلت هذه المدن ولا سيما البندقية محل القسطنطينية فى المركز الرئيسى للتبادل التجارى مع العالم الاسلامى . وساعد هذا الانقلاب التجارى فى بلاد اوروبا على توسيع الحروب الصليبية المعروفة واطالتها ، لان الاطماع التجارية التى استولت على مدن اوروبا اختلطت بالحماسة الدينية التى اشعلت هذه الحروب الصليبية ، لتخليص الاراضى المسيحية المقدسة بفلسطين من ايدى المسلمين .

#### الاماكن المقدسة :

واصل هذه الحروب الصليبية انه منذ استولى المسلمون على فلسطين ، فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، اشرفت الخلافة الاسلامية على الاماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصره والجليل . واثارت هذه السيادة الاسلامية غضب الحجاج الاوروبيين ، منذ كثرت اعداد الوافدين منهم على بيت المقدس . على ان الحج فتح باب علاقات سياسية بين الدولة الاسلامية وبعض الدول المسيحية الكبرى فى اوربامثل دولة الفرنجة الكارولنجية اذ حرصت هذه الدولة على تدعيم صلاتها بالاماكن المقدسة ، لتستمد

منها مركز الزعامة في العالم المسيحي . فبعث شرلمان امبراطور الفرنجة ( ٨٠٠ م ) ، ومنافس الامبراطورية البيزنطية ، سفارة الى الخليفة العباسي هارون الرشيد لتسهيل زيارة الحجاج الفرنجة لبيت المقدس . وارسل هارون الرشيد سفارة اسلامية الى شرلمان ، وبعث معها مفاتيح كنيسة بيت المقدس ، مفضلا اياه على قسطنطين السادس امبراطور البيزنطيين واصبح شرلمان في نظر المعاصرين حامى المسيحيين الداهيين الى الاماكن المقدسة .

ولقيت الاماكن المقدسة وحجاجها الوافدون اليها من المسيحيين عناية كبيرة من السلطات الاسلامية الممثلة للخلافة العباسية . ولما استولى الفاطميون الشيعة على اقليم الشام سنة ٦٩٦م حفظوا سياسة الخلافة العباسية في العناية باماكن الحج المسيحية وظل الحجاج المسيحيون يلقون معاملة حسنة واطلهم السلاجقة كذلك بالعناية بعد امتداد الدولة السلجوقية على بلاد الشام سنة ١٠٧١م واستيلائها على بلاد المقدس . لكن تفكك الدولة السلجوقية وكثرة حروبها الداخلية ، وقلّة الامن فيها بسبب هذه الحروب ، حرم الحجاج المسيحيين من الاطمئنان على انفسهم واموالهم . فعادوا الى بلادهم ووصفوا المتاعب التي يلقونها في كثير من المبالغة ، وقادوا بتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين . وغدت الروايات المختلفة عاملا من العوامل التي اثارَت الناس في أوروبا نحو الحروب الصليبية .

## العروب الصليبية

المدعوة اليها في أوروبا

الكنيسة :

منذ صارت بيت المقدس في ايلاي السلاجقة ، احست اوروبا  
المسيحية بان الاماكن المقدسة انتقلت الى يد دولة اسلامية  
عسكرية صارمة . وفي اثناء تفكك الدولة السلجوقية وحروبها  
وسوء معاملة الحجاج بعد ذلك اخذت بعض السلطات الاوروبية ،  
ومنها البابا جريجورى السابع ( ١٠٧٣ - ١٠٨٦ م ) تروج اخبار  
هذه المعاملة السيئة . ووصلت بعض هذه الاخبار من ناحية  
الامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع سنة ١٠٧٣ م اذ استفث  
بالبابا ، لصد تيار السلاجقة الذى تدفق على آسيا الصغرى بعد  
انتصارهم في وقعة منزكرت .

ورأى البابا في هذه الاخبار وسيلة لاعلاء شأن الكنيسة ،  
واعادة وحدتها بين الشرق والغرب ، لان الكنيسة الشرقية في  
القسطنطينية انفصلت عن كنيسة روما منذ ثمانية عشر عاما  
قبل وقعة منزكرت . وشجعه على مشروع اعادة هذه الوحدة  
بين الكنائس المسيحية ان بعض البطارقة البيزنطيين نادى بان  
للكرسي البابوى في روما مركز الصدارة ، وان البابا هو الحكم  
والفيصل فيما ينشب بين الكنائس المسيحية من خلاف ، مع  
انهم لا يرضون بما ادعته روما لنفسها من السيادة عليهم

والسلطان المطلق . لذا بدأ الطريق ممهدا لتأكيد الزعامة التي فقدتها البابوية بسبب الانفصال السابق عندما استغاث الامبراطور البيزنطى بالبابا جريجورى السابع .

غير ان البابا جريجورى السابع نادى وقتذاك بنظرية سمو البابوى ، اذ رأى ان الكنيسة هي القوة العليا ، يستمد منها الاباطرة والملوك وسائر الحكام السلطة والنفوذ . وفكر في الدعوة الى اعداد حملة صليبية من دول غرب اوروبا لتحقيق مآرب شتى ، وهي طرد السلاجقة من آسيا الصغرى ، واعادة البيزنطيين الى ممتلكاتهم بها مقابل عودة الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية . لكن سمو البابوى ادى الى وقوع خلاف شديد بين البابا جريجورى وامبراطور المانيا هنرى الرابع ، ونشبت بينهما مشكلة التقليد العلمانى (١) حول تمسك كل منهما بحق تقليد الاساقفة لوظائف الاسقفية . فقامت بينهما حروب ، ذهبت في اثنائها استغاثة الدولة البيزنطية هباء .

على ان صيحات الحجاج المسيحيين ايقظت الشعور فى غرب

---

( ١ ) العلمانى نسبة الى العلم ، والمقصود بذلك موظفو الدولة من غير رجال الدين . أما سبب مشكلة التقليد العلمانى فهو استخدام امبراطور المانيا للاساقفة فى وظائف الدولة ، فأراد البابا ان يكون تقليد الاساقفة مسألة دينية لانهم تابعون له ، على حين اراد الامبراطور ان يكون تقليدهم لمناصبه الدينية من قبله باعتبار انهم يتولون وظائفهم فى دولته .

اوروبا لمحاربة المسلمين . وجدد الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥ م الاستغاثة مرة اخرى بالبابا اربان الثانى ، بعد ان وضع له ان الامبراطورية لا تستطيع ان تعيش بدون اقاليم آسيا الصغرى التى باتت فى ايدى السلاجقة ، فمن تلك الاقاليم الاسيوية جندت الامبراطورية خيرة جنودها ، فضلا عن ان سواحلها زودت الاسطول البيزنطى بعدد كبير من السفن والبحارة . ونجح اربان الثانى فيما عجز جريجورى السابع عن تحقيقه ، اذ اختمرت فى راسه وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م - لتسوية بعض المسائل الخاصة بالملكية الفرنسية - ان يدعو لاعداد حملة تستهدف طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الاراضى المقدسة كذلك من ايدى المسلمين . واستطاعت البابوية بذلك ان تصبح القوة الاولى ، والعامل الفعال ، الذى حول استغاثة الامبراطور البيزنطى لحماية الدولة البيزنطية فقط ، الى حرب صليبية عامة مقدسة .

### الاقطاع :

ولبى الامراء الاوربيون دعوة البابوية ، وهم الطبقة الحربية العسكرية ؛ واصحاب الاقطاعات الكثيرة من الارض والنفوذ السياسى الكبير . ويرجع نفوذ هؤلاء الامراء الى ما هو معروف فى غرب اوربا بالنظام الاقطاعى ، الذى جعل المجتمع الاوروبى ثلاث طبقات وهى طبقة رجال الدين ؛ وطبقة المحاربين ؛ وطبقة الفلاحين . فرجال الدين هم المشرفون على الكنيسة والعبادة

والمحافظة على الدين ، والمحاربون وظيفتهم الحرب وما تستلزمه من اقتناء الجيوش والصرف عليها واعدادها للقتال ، والفلاحون هم الذين يعملون في ارض اصحاب الاقطاع من الامراء واتباعهم من الفرسان .

وسرى اسم الفرسان على طبقة المحاربين عموما لاعتمادهم في ذلك العصر على الخيل في القتال ، ولبس الفارس الزرود الثقيلة والخوذات ، وغيرها من الملابس المصنوعة من الحديد . ولا يدخل الواحد في طبقة الفروسية الا بعد اجتياز شعائر خاصة تتولاها الكنيسة والسيد الاقطاعي الذي سوف يصبح الفارس من اتباعه . فالشخص الذي يتم تدريبه الحربى ويصبح مرشحا للفروسية ، يحضر حفلا تحت اشراف الكنيسة للاعتراف باهليته للالتحاق بطبقة الفرسان ، وقبل الحفل يفتسل المرشح بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحيى ليلته بالصلاة ، حتى اذا اقبل الصبح قصد الى الكنيسة حيث يعترف بما سلف من ذنوبه وخطايا ، ويتلو عليه القس واجبات طبقتة ، واهمها الدفاع عن الدين ، وايواء الارامل واليتيم فضلا عن الخدمة العسكرية في حروب السيد الاقطاعي ، ولو جاءت هذه الحروب ضد ملك البلاد . وبذلك يصبح الفارس جنديا من جنود الله . والفرسان الذين اشتركوا في الحروب الصليبية ضد المسلمين من هذه الطبقة الاقطاعية المحاربة .

واذ انتشرت الحروب الاقليمية بين السادة الاقطاعيين وملوكهم في غرب اوربا ، فان الكنيسة رأت في الدعوة الى

الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة واتباعها من الفرسان عن الشحناء الى خدمة الدين . وراى اصحاب الاطماع الواسعة من السادة الاقطاعيين وفرسانهم فى نداء الكنيسة فرصة للذهاب الى الشرق ووسيلة لتأسيس امارات او اقطاعات لهم هناك ، والتخلص بذلك من المتاعب الاقتصادية التى نتجت عن المزاومة الاقطاعية فى مختلف الممالك الاوربية . وذهب مع اولئك السادة وفرسانهم الى الحروب الصليبية كثير من الناس فرارا من البؤس والفقر ، او حبا فى خدمة المسيحية .

#### الامارات البحرية الايطالية :

ولقى الصليبيون من المدن البحرية الايطالية مساعدة كبيرة فى تموينهم وحملهم على ظهور السفن الى الشام . ولم تستهدف مدن ايطاليا ان تخدم الدين فحسب ، بل أسهمت فى اعداد الحملات الصليبية لتحقيق اغراضها التجارية كذلك ، مثلما تجلّى فى مطامع البندقية وجنوة وبيزا واما لى . ثم اشتدت المنافسة بين المدن الايطالية ابان الحروب الصليبية ، اذ جهدت كل منها فى توسيع سلطانها وتدعيم نفوذها التجارى فى بلاد الشرق الاسلامى والمسيحى ، واستطاعت البندقية بفضل موقعها الجغرافى على راس البحر الادرياتي ان تتوغل تجارتها فى قارة اوربا ، وبذا اجتذبت اليها متاجر البلاد المحيطة بها . وسارت اساطيل البندقية الى مصر والشام ، واستبدلت بمنتجات اوربا حاصلات الشرق من التوابل والعطور وغيرها . ويرجع

هذا النشاط التجاري في البندقية الى ما قبل زمن الحروب الصليبية ، ومن دلائل ذلك معاهدة الامبراطور البيزنطى الكيوس الاول مع البندقية سنة ١٠٨٢ م على منح التجار البنادقة حرية التنقل للتجارة بين انحاء امبراطوريته دون دفع جمارك او مكوس ، مقابل مساعدة البندقية للامبراطورية في حربها ضد النورمانيين - حكام جنوب ايطاليا وقتذاك . اما زمن الحروب الصليبية فعملت البندقية وكذلك جنوة وبيزا وامالفي على الاتصال مباشرة بالشرق الاسلامى ومتاجره . ولذا قدمت اساطيلها لمساعدة الجيوش الصليبية في استيلائها على مدن الشام ، ونقل الحجاج مقابل الحصول على امتيازات تجارية في الامارات الصليبية في الشام . واصبح لكل من هذه المدن اجزاء خاصة بتجارها في مختلف المدن والموانى الشامية ، وبدا غدا العامل التجارى سببا من الاسباب الكبيرة التى ادت الى استمرار الحروب الصليبية .

### تكوين الامارات اللاتينية في الشرق

اما الصليبيون الذين اجتمعوا من مختلف البلاد الاوربية لتخليص الاراضى المقدسة بالشام ، فجعلوا مدينة القسطنطينية نقطة لالتقاء جيوشهم قبل العبور الى آسيا الصغرى والشام . وقبل وصول هذه الجيوش الصليبية اجتمع بالقسطنطينية سنة ١٠٩٦ م اعداد شتى من الرجال والنساء في غير نظام او خبرة بالقتال ، وعبرت الى الشاطيء الاسيوى بزعماء رجل اسمه



بقرس الناسك . قباد معظم اولئك الناس ، ماعدا بطرس نفسه ،  
على ايدى السلاجقة المسلمين . ثم وصلت الجيوش الصليبية  
الى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ م بقيادة زعمائها ، وهم جودفري دى  
بويون دوق لورين ، واخيه بلدوين ، وروبرت كونت فلاندرز ،  
وريموند التولوزى ، وبوهمند النورمانى . فاخذ الامبراطور  
الكسيوس كومنين على امرائها قسما تعهدوا فيه بان يسلموا  
اليه البلاد البيزنطية التى يستردونها من السلاجقة فى آسيا  
الصغرى وبدا سهل لهم عبور البوسفور فى مايو سنة ١٠٩٧ م ،  
بعد ان امدهم بالمؤنة والعتاد والمعلومات الجغرافية اللازمة .  
وعجل الامبراطور باقضاء جيوش الصليبيين عن القسطنطينية ،  
بسبب عبثهم بالمدينة ، فضلا عن عبثهم بالبلاد البيزنطية فى  
البلقان قبل وصولهم الى القسطنطينية .

وبدا الزحف الصليبي على آسيا الصغرى والشام فى وقت  
ليست فيه قوة اسلامية تستطيع الوقوف فى وجه الجيوش الصليبية ،  
فالدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة  
١٠٩٢ م دويلات متناثرة لارابطة بينها سوى الحروب المستمرة .  
ففى دولة السلاجقة الروم - اى آسيا الصغرى - حكم السلطان  
قلج ارسلان الصغير السن ، وهو اول من لقى ضربات الصليبيين  
سنة ١٠٩٧ م . وفى الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ  
واسع ، بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعة من  
الانابكة المتنازعين ، وهم الموظفون الذين قاموا على تربية ابناء

السلطين وتعينوا الى جانبهم في ولاياتهم ، فلما تفككت الدولة السلجوقية الكبرى صار اولئك الاتابكة اصحاب الدويلات في مدن الشام والعراق .

اما الخلافة العباسية في بغداد فلم يكن لها حول ولا قوة ، وضاعت صرخات المسلمين لاستنهاض الخليفة العباسي المستظهر بالله ( ١٠٩٤ م / ٤٨٧ هـ ) . وكذلك لم يكن باستطاعة الخلافة الفاطمية وهي صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام ، ان تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين . اذ عاش الخليفة الفاطمي بالقاهرة مسلوب السلطان ، بسبب الحزبية العسكرية وتنازع المصالح والاطماع بين الوزراء الفاطميين . ومن الواضح ان هذه العوامل الكثيرة سهلت على الصليبيين هزيمة المسلمين كما سهلت عليهم تأسيس امارات صليبية .

#### امارة الرها :

وعندما اخذت الجيوش الصليبية تسير من آسيا الصغرى الى الشام ، تفرعت عنها فرقة بقيادة بلدوين واغارت على مدينة الرها . وفي اوائل سنة ١٠٩٨ م احتل بلدوين هذه المدينة الهامة واسس بها اول امارة لاتينية - اى صليبية - في الشرق . وتولى بلدوين شئون هذه الامارة التي ظل بها مدة ، على حين استمرت الجيوش الصليبية في زحفها الرئيسى على الشام .

#### امارة انطاكية :

ثم حاصر الصليبيون مدينة انطاكية في شمال الشام واستطاع

بوهيموند النورمانى فى يونيو سنة ١٠٩٨ م أن يقتحم هذه المدينة العظيمة بسبب خيانة احد حراس أبراجها من الجند الأرمن ، اذ ادلى الحبال ليلا من اعلى الاسوار ، وسهل للصليبيين دخولها بعد حصارها الطويل . وتولى بوهيموند النورمانى تأسيس الامارة اللاتينية الصليبية الثانية فى هذه المدينة ، وسارت القوات الصليبية الرئيسية جنوبا الى بيت المقدس « اورشليم » بقيادة جود فرى دى بويون .

#### الاستيلاء على بيت المقدس :

ومن انطاكية سار جود فرى لتحقيق الهدف الاول للصليبيين وهو الاستيلاء على بيت المقدس . فوجد مدينة الرملة الواقعة فى طريقه خالية من الجند الفاطمى . فاستمر فى زحفه حتى بلغ ابواب بيت المقدس ( اورشليم ) ، ( وفى يونيو سنة ١٠٩٩ م ) . وسارت جموع الصليبيين حفاة الاقدام حول اسوار المدينة ، امعانا فى اظهار التقوى ، ونفخوا الابواق لابقاع الرعب فى الحامية الفاطمية المصرية المرابطة بها . وفى اليوم الخامس عشر من يوليو دخل الصليبيون مدينة بيت المقدس ، بعد ان وعدوا اهلها بالامان وحفظ الارواح . ولكنهم نكثوا بوعودهم وانزلوا بسكانها مذبحه كبرى ، دون رعاية لعهد الامان .

ولم يرض رجال الدين من الصليبيين ان تقوم فى بيت المقدس مملكة ، وهى البلد الذى قام فيه المسيح داعيا الى الابتعاد عن

زخرف الحياة ، فاستقر الراى على ان يكون جودفرى رئيسا  
وحاميا لبيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، لا ملكا فى الدولة الصليبية  
هناك .

### مملكة بيت المقدس :

ولما مات جودفرى جاء اخوه بلدوين أمير الرها ، ونودى به  
ملكاً على بيت المقدس يوم عيد الميلاد ، فى سنة ١١٠٠ م ، بعد  
ان تغير موقف رجال الدين من نظام الحكم فى المملكة الصليبية ،  
ولذا فالملك بولدوين الاول هو المؤسس الحقيقى لمملكة بيت  
المقدس . وبدا بولدوين عهده باخضاع المدن الساحلية لىضمن  
مواصلاته مع اوروبا ويمنع سفن الاسطول الفاطمى من استخدام  
هذه الموانى . ولقى بلدوين ، كما لقى اخوه جودفرى قبله ،  
مساعدات كبيرة من المدن الايطالية البحرية ، مثل بيزا وجنوة  
والبندقية . فاستولى بمساعدة اسطول جنوة على ارسوف  
وقبصرية الشام سنة ١١٠١ م ، على حين سقطت فى يده عكا  
المنيعه بعد ذلك بثلاثة اعوام ، بفضل مساعدة اساطيل البندقية  
وجنوة . ثم استطاع بلدوين ان يحاصر بيروت برا وبحرا سنة  
١١١٠ م ، وبعد حصار دام احد عشر اسبوعا دخل بلدوين هذه  
المدينة وذبح كثيرا من اهلها .

ووسع بلدوين مملكته جنوبا للحصول على ميناء على البحر  
الاحمر ابتغاء الاستيلاء على جزء من التجارة مع الهند . فبنى

الى الجنوب من البحر الميت سنة ١١١٥ م حصن الشوبك ،  
ليتحكم اولاً في طريق القوافل من دمشق الى مصر والحجاز .  
ثم حاول بلدوين غزو مصر اكثر من مرة ، اولاً عن طريق الطور ،  
وثانياً عن طريق العريش . ومات سنة ١١١٨ م اثناء محاولته  
الثانية داخل الاراضي المصرية ، قرب مكان لا يزال يحمل اسمه  
محرفاً حتى العصر الحاضر ، وهو ساحة البردويل ، على البحر  
الابيض المتوسط شرقى بور سعيد الحالية . وبلغت مملكة بيت  
المقدس زمن بلدوين اقصى اتساعها الجغرافى فامتدت من العقبة  
على البحر الميت الى بيروت على نهر العاصى .

#### امارة طرابلس :

بينما تتحول امارة بيت المقدس الى مملكة بقيام بلدوين حاكماً ،  
تأسست دولة لاتينية رابعة في طرابلس الشام ، بلاضافة الى  
الرها وانطاكية وبيت المقدس . وتطلع الى ذلك المشروع الكونت  
ريموند التولوزى . وبدا هذا القائد حصار طرابلس سنة ١١٠١ م ،  
وعزلها عن المنطقة الاسلامية المحيطة بها بأن بنى حصناً على تل  
مجاور لها . وطال الحصار على هذه المدينة . وفى اثناء هذا  
الحصار الطويل استعان ريموند بأسطول مكون من اربعين سفينة  
من جنوا ، واستولى على ثغر جبيل سنة ١١٠٤ م جنوبى طرابلس  
غير أن ريموند مات سنة ١١٠٥ م ، قبل أن يحقق غرضه ، ولم  
تسقط طرابلس الا سنة ١١٠٩ م فى يد ابنه . وصارت امارات  
طرابلس الرها وانطاكية تابعة اسمياً لمملكة بيت المقدس .



### ادارة مملكة بيت المقدس والامارات اللاتينية الصليبية :

جاء الصليبيون من غرب أوروبا الى الشام بنظم اقطاعية  
أوروبية ، فطبقوا هذه النظم ما استطاعوا على الممتلكات التي  
صارت في أيديهم . ولم تتجاوز مساحة هذه الممتلكات جميعا  
الجزء الشمالي من الشام والسهل الساحلي الضيق ، ومن خلفها  
امتداد شاسع من الاراضي الاسلامية . ولم يفصل هذه الامارات  
اللاتينية عن أي بلد من بلاد المسلمين أكثر من مسيرة يوم واحد  
على ظهور الخيل . ولذا ادخل الصليبيون في ممتلكاتهم النظام  
الاقطاعي الأوروبي . فمنحوا أتباعهم أراضى واقطاعات تحولت  
بالتدريج الى ملكية دائمة . ولم تلبث المساوية الاقطاعية أن  
انتشرت في الامارات الجديدة ، فكثر النزاعات المحلية والمشاكل  
الداخلية بين الصليبيين أنفسهم بالشام ، وتحالف بعضهم مع  
المسلمين من جيرانهم ضد المنافسين لهم من الصليبيين . وزاد  
هذه المشاكل خطورة اشتداد الخلاف أحيانا بين الزعماء  
الصليبيين حول ولاية الحكم ، وانقسامهم احزابا تحارب بعضها  
بعضا .

### الجهاد الاسلامي

حركة الافاقة الاسلامية على عهد عماد الدين زنكي :

تطورت الحركة الاسلامية لطرد الصليبيين الى جهاد نهضت به

دول الاتابكة في شمال العراق والشام ، وظهر من امراء هذه الدول اتابك قوى ، هو عماد الدين زنكى امير الموصل ( ١١٢٧ - ١١٤٦ م ) . واستطاع زنكى بمواجهته ان يتولى اولا ادارة مدينة واسط ومدينة البصرة ، ثم استولى على امارة الموصل ، وبلغ بذلك رتبة الاتابكية .

ثم بسط زنكى سلطانه على حلب كذلك ، وغدا مؤسس دولة كبيرة تهدد ممتلكات الصليبيين في شمال العراق والشام . واستهل زنكى اعماله ضد الصليبيين بحصار مدينة الرها ، وهى المعقل الاول للصليبيين في شمال العراق ، والخطر الذى هدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وبعد حصار دام اربعة اسابيع استولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ م ، وسمى هذا الفوز « نصر الانصار » ، اذ ترتب على سقوط امارة الرها في يده ازالة الوند الصليبي الذى شق البلاد الاسلامية نصفين . ووضع زنكى حامية في الرها لتأمين فتوحاته في هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الاخرى المجاورة ، واعانه في معظم حروبه اخوان من اصل كردى في خدمته ، وهمانجم الدين ايوب ، واسد الدين شيركوه . على ان زنكى مات قتيلا سنة ١١٤٦ م على يد احد مماليكه ، بتحريض من بعض اعدائه المسلمين ، وهو يحاصر قلعة جعير . وترك لابنه نور الدين محمود اتمام الدور الاول من الجهاد ضد الصليبيين ، وخلف له سياسة مرسومة واضحة المعالم .



### نور الدين محمود بن زنكى :

جعل نور الدين عاصمته مدينة حلب ، وبلغت الدولة على ايامه اعظم مجدها واتساعها ، اذ استطاع عقب توليته الحكم ان يتخلص فى سرعة من الفتن الداخلية التى تلت مقتل والده . واصطدم نور الدين بمحاولة الصليبيين لاسترداد الرها ، اذ ادى استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام الى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ( ١١٤٧ - ١١٤٩ م ) . وتولى قيادة الجيوش الصليبية كنراد الثالث ملك المانيا ولويس السابع ملك فرنسا ، غير ان اختلاف المصالح الشخصية حول هذه الحملة الى حصار دمشق بدلا من استعادة الرها . وقاوم الاتابك طفتكين امير دمشق هذا الحصار الصليبي سنة ١١٤٨ م ، وظل الصليبيون امامها عاجزين عن اقتحامها رغم اشتراك فرسان الهيئين المسيحيين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وهما الداوية والاسبتارية . وارسل نور الدين زنكى قوات لنجدة طفتكين ، فاضطر الصليبيون الى رفع الحصار ، وعاد لويس وكنراد الى اوربا ، بعد فشل الصليبيين فى تحقيق شىء من اغراضهم فى دمشق والرها .

### التسابق بين نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر :

راى نور الدين بعد فشل هذه الحملة الصليبية ضرورة الاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لتوحيد الجبهة الاسلامية التى بداها ابوه ، ولا سيما بعد ان امتدت ممتلكات

الصليبيين الى مدينة عسقلان سنة ١١٥٣ م . وفي سنة ١١٥٤ م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقفت المدينة مستعدة للدخول في طاعته ، لان القائد العام لجيوشها وهو نجم الدين ايوب ، ابو صلاح الدين ، من رجال الاتابك زنكى ، ولان قائد جيش نور الدين هو شيركوه اخو نجم الدين ايوب . ولان قائد جيش نور الدين هو شيركوه اخو نجم الدين ايوب ابو صلاح الدين .

وادي هذا التغير في الموقف الحربى الى اتجاه انظار كل من نور الدين في حلب والصليبيين في بيت المقدس الى مصر . اذ رأى نور الدين ان استيلاء الصليبيين على عسقلان فتح الطريق امامهم الى مصر ، على حين وضع للصليبيين ان استيلاء نور الدين على دمشق اتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وانه سوف يتحول الى مصر لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت احوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملا ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، اذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليساعده ضد منافسه في الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصليبيين . وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس الى فوز القوات الثورية بالبقاء في مصر وغدت مصر محور الارتكاز ، الذى يوشك ان تدور عليه احداث المراحل المستقبلية من الجهاد ضد الصليبيين ، ولا سيما بعد ان زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ .

## صلاح الدين الايوبي

### الدور الثاني من الجهاد الاسلامي

#### توحيد الجبهة الاسلامية :

ترتب على ازالة الخلافة الفاطمية ان عادت مصر الى المذهب السني والتبعية الرسمية للخلافة العباسية في بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .  
غير ان نور الدين لم يلبث ان تشكك في مطامع صلاح الدين ونواياه ، وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة لخلعه من مصر .  
ثم توفي نور الدين سنة ١١٧٤ م قبل ان تتحرك هذه الحملة ، فترك سياسة توحيد القوي الاسلامية التي بداها لصلاح الدين ، واستطاع صلاح الدين ان ينهض بهذه السياسة على اتم وجه ، فأعلن استقلاله بمصر اولا غداة وفاة نور الدين ، واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعدة لضم صفوف المسلمين .

وبدا صلاح الدين خطواته لتوحيد القوي الاسلامية بازالة الشخصيات التي اعترضت سبيله في الشام ، وساعدته الاختلافات التي تلت وفاة نور الدين على تحقيق مهمته ، اذ استعان به الدمشقيون املا في ان تصبح دمشق عاصمة للدولة النورية بدلا من حلب ، وجاء صلاح الدين الى دمشق ، ودخلها ١١٧٤ م باسم الطفل اسماعيل بن نور الدين ، المقيم وقتذاك في حلب . غير ان

الامير غازى الزنكى صاحب الموصل، وهو من سلالة عماد الدين  
زنكى حقد على صلاح الدين ان يصبح حامى البيت الزنكى فى  
دمشق ، فحاربه صلاح الدين وانتصر عليه سنة ١١٧٥ م .  
وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية  
الكبرى فى العالم الاسلامى والشرق الادنى . فضرب النقود باسمه  
فى مصر والاسكندرية وحماه ، بعد ان كانت العملة تضرب من  
قبل باسم نور الدين . وبدا اعتبر صلاح الدين نفسه السلطان  
الواحد ، ولا سيما بعد ان اخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من  
امراء العراق حكاما تابعين له .  
وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين فى تطويق الفرنجة ،  
وجعلهم بين شقى الرحى ، بين الشام ومصر . واصبح الجو  
ممهدا امام صلاح الدين للجهاد ضد الصليبيين .

#### وقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصليبيين قبل سنة ١١٨٥ م فى  
معارك صغيرة ، بسبب حركات صليبية ضده ، واهمها حركات  
ارناط ، امير حصن الكرك ، التابع لمملكة بيت المقدس . ذلك ان  
هذا الامير الصليبي تحكم بحصنه فى طرق القوافل بين مصر  
والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التى عقدها صلاح الدين مع مملكة  
بيت المقدس . وعزم ارناط على الاستيلاء على مكة والمدينة  
والاثار النبوية بهما ، فاعد سنة ١١٨٣ م سفنا ، حمل اخشابها  
وقلاعها الى خليج العقبة ، حيث جهز منها اسطولا ، نقل جنود  
الصليبيين فى البحر الاحمر الى شاطئ الحجاز . وكان صلاح

الدين غائبا في العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه في مصر ، وهو أخوه العادل ، ولحق بالصليبيين عند مرفأ الحوراء شمالي ينبع ، واستطاع العادل القضاء على الصليبيين قبل تحقيق اهدافهم ، وحمل كثيرا منهم اسرى الى مصر .

ثم عاد ارناط الى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين برغم فشله السابق ، وتصدى في ربيع سنة ١١٨٦ م لاحدى القوافل الاسلامية المارة بحصنه ، واستولى على جميع متاعها ، واصر كل افرادها . فاعد صلاح الدين حملة ضد مملكة بيت المقدس ، التى لم تستطع ان توقف اعتداءات ارناط التابع لسلطانها .

وعسكر صلاح الدين بقواته عند مكان يسمى قصر السلامة ، قرب بصرى في مايو سنة ١١٨٧ م ، وقام هناك بغزو البلاد القريبة من حصن الكرك متحديا ارناط . غير ان هذا الامير الصليبي خاف الخروج لمواجهة القوات الاسلامية ، فتقدم صلاح الدين بعد ذلك على راس قواته في شهر يونيو واستولى على طبرية ، ثم زحف منها حتى بلغ مكانا يسمى حطين .

ورأى الصليبيون وقتذاك ، تحت تأثير ارناط ان يخرجوا لملاقاة صلاح الدين ، فوصلت قواتهم حطين في اول يوليو سنة ١١٨٧ م . وفي اليوم الرابع من يوليو ، اى وسط الصيف ، وقعت الواقعة ، ونزل بالصليبيين من الوان الهزائم مالم يعهدوه قبلا ، وزاد هذه الهزيمة ان النار اشتعلت في الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين ، فلم تبق على احد تقريبا . ثم امر صلاح الدين باحضار الاسرى الى مخيمه ، ومن بينهم ارناط امير الكرك،

وجاى لوزجنان ملك بيت المقدس . فقتل صلاح الدين بنفسه  
ارناط ، وبر بيمين سبق ان اقسامه بان يقتله اذا وقع فى يده ، لان  
هذا الامير الصليبي لم يعرف للمعاهدات حرمة او تقديرا . على  
ان صلاح الدين عامل الملك الصليبي معاملة ممتازة ، بل انه اطلق  
سراحه بعد ان وعد بالا يقدم على حرب ضد المسلمين .

### بعد حطين :

جاءت وقعة حطين معركة فاصلة ، حتى وصفها بعض  
المعاصرين من مؤرخى الحروب الصليبية الاوروبية بانها بداية  
النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية . ولم يكن فى هذا القول شئ  
من المبالغة ، اذ حشد الصليبيون زهرة جندهم فى حطين ، ولم  
يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التى رسمها صلاح الدين  
لنفسه بعد حطين حتى سلمت له مدينة بيت المقدس فى اكتوبر  
سنة ١١٨٧ م ، بعد حصار دام اسبوعا واحدا . ثم استمر صلاح  
الدين فى هجومه على مدن الصليبيين فى الشام وفلسطين ، فبلغ  
مدينة اللاذقية شمالا ، وحصن الكرك جنوبا ، ولم تأت سنة  
١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التى هددت المسلمين ،  
وبدا كان الصليبيين سيخرجون جميعا من الشام ، لانه لم يبق  
فى حيازتهم سوى انطاكية وطرابلس وصور ، وبعض المدن الساحلية  
الصغيرة ، واهمها صور .

### حصار عكا :

افزع سقوط مدينة بيت المقدس ملوك أوروبا وامرائها ، ماعدا

الامبراطورية البيزنطية واهلها الذين لم يروا خيرا لهم في الحملات الصليبية ، بل عقدوا تحالفات مع صلاح الدين . وادى فزع أوروبا الى تجهيز الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة التي تزعمها اكبر ملوك أوروبا وقتذاك ، وهم فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، ورتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا ، وفيليب اجطس ملك فرنسا . وتسمية الحروب الصليبية بألقاب عديدة لا يعدو ان يكون تسمية اصطلاحية ، باعتبارها فصولا ، يبدأ كل منها بحادثة كبرى في تاريخ الحروب الصليبية . على أن الحملات الصليبية تزيد عن العدد المعروف لها ، وبعضها لم يكن له علاقة بأحداث الحروب ضد المسلمين .

وامتلأت هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بالأخبار والقصص عن صلاح الدين ورتشارد قلب الاسد ، لأن الامبراطور فردريك بربروسا مات في الطريق قبل ان يصل الى الشام ، ولأن فيليب اجطس ملك فرنسا لم يتصل كثيرا بصلاح الدين . أما رتشارد فأبحر الى قبرص ، واستولى عليها في طريقه ، ليجعل منها قاعدة حربية يستمد منها المعونة في حملته بفلسطين . ثم وجد رتشارد أن الصليبيين بالشام يحاصرون ميناء عكا ، بقيادة جاي لوزجنان ملك بيت المقدس الذي أطلق صلاح الدين سراحه بعد أن أقسم له ألا يقوم بعمل عدائي ضده مدة حياته . ولذا انضمت السفن والجيوش الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية حول عكا سنة ١١٨٩ م ، وشددوا عليها الحصار حتى

سقطت في ايديهم بعد سنتين من حصارها ، وجعلوا منها قاعدة  
رمزية لمملكة بيت المقدس ، بعد ان ذهبت مدينة بيت المقدس نفسها  
الى المسلمين .

رحل ملك فرنسا بعد سقوط عكا ، على حين بقى رتشارد ملك  
انجلترا سنة كاملة في الشام . فحارب رتشارد صلاح الدين  
مرة اخرى ، وهزم جيوش المسلمين في ارسوف ، وامتلك ياقا  
وحصنها . غير ان اعمال ملك انجلترا لم تغير مجرى الحوادث ،  
لان ما احده صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهودا لا تستطيع  
حملة اوروبية واحدة ان تمحوه في بضع سنين . والدليل على  
ذلك ان ملك انجلترا عمد الى فكرة المفاوضات والمصالحة ، ليصل  
الى تسوية مرضية تكفل بقاء الدولة الصليبية بالشام الى جانب  
دولة صلاح الدين . وتخلل المفاوضات اقتراح قدمه ملك انجلترا  
خلاصته ان يتزوج العادل اخو صلاح الدين من الاميرة جوانا  
أخت رتشارد ، مقابل ان يكون لملك انجلترا بيت المقدس والثغور  
البحرية المجاورة له . غير ان هذا الاقتراح لم يلق قبولا ، وانتهت  
المفاوضات الجارية بعقد صلح الرملة في ديسمبر سنة ١١٩٢ م ،  
اتفق فيه الطرفان على ان تبقى البلاد الداخلية للمسلمين ، وان تبقى  
المدن الساحلية للصليبيين ، على ان يسمح لفئات صغيرة من  
الصليبيين بزيارة بيت المقدس من قاعدتهم الكبرى في عكا . وتوفي  
صلاح الدين بدمشق بعد ذلك بقليل سنة ١١٩٣ م ، وهو في  
الخامسة والخمسين من عمره ، وقبره على مقربة من الجامع  
الاموي بالعاصمة السورية .



### العلبييون ومصر بعد صلاح الدين :

توفى صلاح الدين دون أن يضع نظاما خاصا لولاية العهد ،  
ونجم عن ذلك قيام النزاع بين أولاده واحفاده واخوته واقاربه .  
ثم استطاع العادل اخو صلاح الدين ان يضم اليه الشطر الاكبر  
من الدولة الأيوبية بسبب استماتته للجيش ، وغدا سلطانا  
بمفرده على مصر ومعظم اجزاء الشام سنة ١٢٠٠ م . واحتفظ  
العادل مدة حكمه بالعلاقات الودية مع الصليبيين ، وعمد الى  
ترويج التجارة مع الامارات اللاتينية بالشام ، والمدن الإيطالية  
ذوات التجارة الواسعة في الشرق ، مثل البندقية وجنوا وبيزا .

وادی هذا الانقلاب في السياسة العامة الى تعديل الخطط التي  
وضعها صلاح الدين ، اذ فضل السلطان العادل وخلفاؤه من  
بعده ، مسألة الصليبيين بأى ثمن ، حفظا لمصر من الهجمات  
الصليبية . على ان هذه السياسة أدت الى عكس المطلوب ، اذ  
ادرك الصليبيون منذ ايام انتصارات صلاح الدين أن سر هذه  
الانتصارات يرجع الى امداد الجيوش الأيوبية بالسلاح والمال  
من مصر ، ولذا ينبغي ان يكون الهدف الحقيقي لمجهوداتهم مصر  
لا الشام .

### الاستيلاء على دمياط :

وشجعت المدن البحرية الإيطالية على تنفيذ هذه السياسة



الإمارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين

الصليبية الجديدة . ودفعتها اطماعها التجارية على فتح مصر  
لتستطيع السفن الإيطالية أن تصل الى البحر الاحمر ومراكز  
التجارة الشرقية مباشرة . واتفق هذا الانقلاب في خطط  
الصليبيين مع دعوة البابا انوسنت الثالث سنة ١١١٦ م لاعداد  
حملة صليبية ، هي المعروفة بالخامسة في التقسيمات الصليبية .  
دخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة  
١٢١٨ م . واسرع السلطان العادل من شمال الشام الى مصر  
لدفع هذه الحملة ، ولكنه توفى في الطريق بالقرب من دمشق .  
واعقب وفاة العادل تقسيم الدولة الايوبية مرة اخرى ، فخص  
انباء الاجزاء الكبرى ، وتولى مصر مثلاً ابنه محمد الملقب بالملك  
الكامل ، ووقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذ  
السياسة التي اتبعها ابوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاء  
على دمياط في هذه الحملة . ومع هذا اظهر الملك الكامل روح  
المسألة التي اتبعها ابوه العادل اذ اقترح عليهم تسليم بيت  
المقدس ، وارجاع المملكة الصليبية الى معظم مساحتها الاولى قبل  
فتوح صلاح الدين ، ما عدا بضعة بلاد صغيرة ، مقابل الجلاء  
عن دمياط والشواطئ المصرية . ورفض الصليبيون هذا  
العرض السخى لاعتقادهم في سهولة الاستيلاء على البلاد  
المصرية . ثم اخذ الصليبيون في الزحف جنوبا في الدلتا ،  
والفيضان بالغ اقصاه اذ ذاك . ولم يدركوا صعوبة السير في  
الأراضي المصرية وقتذاك ، لجهلهم بالجغرافيا واحوال النيل

وكثرة الترع . ثم ان المسلمين فتحوا الجسور والسدود واغرقوا الاراضي ، ولم يلبث الصليبيون ان وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التمهقر ولقوا هزيمة فادحة على يد المسلمين . عند ذلك رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الاراضي المصرية سنة ١٢٢١ م بلا قيد ولا شرط .

### السلطان الكامل والصليبيون بعد هزيمتهم في دمياط :

وسخر ملوك أوروبا لما حدث ، بسبب تفضيل الصليبيين مدينة دمياط على مدينة بيت المقدس ، ولا سيما فردريك الثانى امبراطور الدولة الغربية الالمانية . وراى هذا الامبراطور تحقيق الفكرة التى نارت فى راس رتشارد ملك انجلترا وصلاح الدين قبلا ، وهى فكرة التسوية السلمية بين الصليبيين والمسلمين ، ودارت بينه وبين السلطان الكامل من اجل ذلك مباحثات ، وجاء فردريك الى الشام على راس حملة قليلة العدد والعدة سنة ١٢٢٩ م وعقد مع نواب السلطان معاهدة ، بدت فى زمنها من اعجب المعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين والمسيحيين عامة فى العصور الوسطى . ذلك ان شروط المعاهدة نصت على تسليم السلطان الكامل بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتباره ملك الدولة الصليبية ، وان يسلم له كذلك بيت لحم والناصره ، وطريق الحج من بيت المقدس الى يافا وعكا ، على ان يبقى للمسلمين منطقة المسجد الاقصى ، فضلا عن بعض المدن . وتعهد الامبراطور مقابل ذلك بان يكون

حليفا للسلطان ضد جميع أعدائه ، وان يعمل على منع الامداد الصليبية عن الامارات اللاتينية بانطاكية وطرابلس وغيرها ، وان يخبر السلطان الكامل بكل ما يصل الى علمه من حركات صليبية في أوروبا .

واغضبت هذه المعاهدة المسلمين والمسيحيين . فقال المسلمون انها جاءت بالهوان والاستسلام ، على حين قال المسيحيون ان الامبراطور فردريك نزل الى درجة المفاوضة مع المسلمين بدلا من حربهم لتخليص الاراضي المقدسة من ايديهم .

#### حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر :

ثم حدث اثناء سلطنة الصالح ايوب بن الملك الكامل ان استولت طائفة من الخوارزمية المسلمين على بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ م ، فانهدم بذلك الشرط الاول من شروط المعاهدة الكاملة الفردريكية . وفزعت أوروبا ، وثار اشهر ملوكها وقتذاك لويس التاسع ملك فرنسا ، المعروف في التاريخ الفرنسى بالقديس لويس . واعد هذا الملك حملة صليبية معظمها من الفرنسيين ، وأبحر بها سنة ١٢٤٨ م الى قبرص لقضاء فصل الشتاء هناك . ثم اتجهت الحملة من قبرص الى مصر ، مما يبرهن على أن الفكرة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادى تاكدت من وجوب الاستيلاء على هذه البلاد ، لانها غدت منبع المقاومة ضد جميع المشاريع الصليبية .

ونزلت الحملة الصليبية على مقربة من دمياط ، ثم استولت

عليها دون مقاومة في يونيو سنة ١٢٤٩ م . واسرع السلطان الصالح ايوب من دمشق الى مصر حين بلغه نبا استيلاء الصليبيين على دمياط ، ولكنه توفي دون ان يقوم بعمل دفاعى لصد الصليبيين . وبسبب هذه الوفاة الفجائية في ساعة الحرج والصليبيون على دمياط ؛ اخفت شجر الدر نبا وفاة زوجها السلطان الصالح ايوب ، حتى يحضر الوريث الشرعى للبلاد ، وهو توران شاه . وتمت على يد السلطان الجديد هزيمة الصليبيين ، لان القديس لويس وقع في نفس الغلطة التى تورطت فيها الحملة الصليبية السابقة على دمياط ، بتاجيل الزحف حتى اشهر الفيضان وامتلاء القنوات والترع بمياه النيل . ولما تعثرت جيوش الحملة في طريقها حتى تجمع الجيش الايوبى ومعظمه من الممالك البحرية عند المنصورة الحالية ، وهناك حاقت الهزيمة بالصليبيين كما حاقت بهم مرة اخرى عند فارسكور وهم يحاولون العودة الى قاعدتهم الحربية فى دمياط . ووقع القديس لويس اسيرا فى ايدى القوات المصرية ، ولم يطلق سراحه الا سنة ١٢٥٠ م بعد ان دفع فدية كبيرة قامت زوجته بجمع نصفها بسرعة ، وتعهد هو بتأدية النصف الثانى بعد مدة قصيرة من اطلاق سراحه .

## المماليك والصليبيون

### الدور الاخير من ادوار الكفاح ضد الصليبيين

يرجع الفضل في انتصار المنصورة وجملاء الصليبيين عن دمياط الى البسالة الحربية التي ابدتها الجند المملوكي في القتال . وذاق المماليك طعم السلطة والحكم في المدة الواقعة بين وفاة الصالح ايوب وحضور ابنه السلطان توران شاه . ثم احس هذا السلطان الجديد بأن اولئك المماليك وعلى رأسهم شجر الدر زوجة ابيه التي تولت شؤون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعونه من السلطنة . فاخذ يأمر بهم ، كما اخذوا هم يأتمرون به ، وأغرت شجر الدر أخيراً أمراء المماليك بالتخلص من توران شاه سنة ١٢٥٠ م ، وانتهى بذلك حكم الايوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

### السلطان بيبرس والصليبيون :

وتحولت السلطنة المملوكية الى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس ، الذي امتدت سلطنته من سنة ١٢٦٠ الى ١٢٧٧ م . وتجلت مواهب بيبرس الحربية سابقاً في انتصارات المنصورة وعين جالوت . وقام ضد الصليبيين بجهود مكمله لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولاً لحرب أمانة انطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الاخبار بأن هذه الإمارة تعمل على محالفة المغول الذين غدوا أصحاب دولة في فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم انه حلا للسلطان بيبرس ان يقوم بدور صلاح الدين ، وان يصبغ جميع اعماله ضد الصليبيين بصيغة الجهاد . وعمل بيبرس منذ اوائل عهده على مخالفة بعض الدول الاوربية لابعادها عن المعترك الصليبي ، كما عمل على ايقاع الفرقة بين القوى الصليبية نفسها بالشام ، فضلا عن مخالفة الدولة المغولية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهي الدولة التي اعتنقت الاسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراي بركة على نهر الفلجا مركزا لسط سلطاتها على اجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولذا استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ١٢٦٣ م ، وقيسارية سنة ١٢٦٥ ، وكذلك ارسوف وصفد التابعتين للفرسان الداوية في نفس السنة . ثم سقطت يافا في يده سنة ١٢٦٧ م . واستطاع بيبرس اخيرا ان يستولى سنة ١٢٦٨ م على انطاكية ، وساق كثيرا من الاسرى الصليبيين الى مصر . واختتم بيبرس هذه الاعمال الحربية الكبيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١ م على حصن الاكراد التابع للاسبتارية ، ومهد للاستيلاء على بلدتي انطرسوس والمرقب ، املا في الاستيلاء نهائيا على طرابلس ، وهي المدينة الكبيرة التي بقيت حتى وقتذاك في ايدي الصليبيين . وفي اثناء هذه الاعمال الحربية الكثيرة ، استطاع بيبرس ان يصد الجيوش المغولية الزاحفة من ايلخانية فارس والعراق عن اطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ورجع السر في هذه الانتصارات الى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والادارة المصرية .



### السلطان قلاوون والصليبيون :

وقام السلطان قلاوون ( ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م ) بعهد بيبرس بمواصلة الحرب ضد الصليبيين ، وسار على طريقة سلفه من مخالفة بعض الدول الاوروبية ، وايقاع الفرقة بين الصليبيين . واثبت قلاوون في ساحة الحرب انه جدير بلقب « السلطان المنصور » ، الذي اقترن باسمه دائما ، فاستولى على حصن المرقب التابع للاسيطارية سنة ١٢٨٥ م . ثم زحف نحو مدينة طرابلس ودمرها تدميرا موحشا سنة ١٢٨٩ م ، وشهد المؤرخ ابو الفدا هذه الواقعة ، وسجل تفصيلاتها في كتابه الذي عنوانه « المختصر في تاريخ البشر » .

### الاستيلاء على عكا :

لم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا . وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبدا ترك لابنه السلطان خليل ( ١٢٩٠ - ١٢٩٢ م ) جميع ما اعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصارا استمر اكثر من شهر ، وهدم معاقلها بمجانيقه ، ثم استولى عليها سنة ١٢٩١ م وهرب كثير من الصليبيين الى جزيرة قبرص ، التي اصبحت منذئذ مجمع بقايا الصليبيين بالشرق .

وادي سقوط عكا الى تسليم المدن الصليبية الباقية في الشام ، ومنها صور وبيروت . وبدا انسدل الستار على اهم فصول

الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق ، ما عدا جزيرة قبرص ، التي غدت مركز المملكة الصليبية وملوكها من اسرة لوزجنان ، وجزيرة رودس التي تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكة ارمنيا الصغرى في قليقيا بأقصى الطرف الشرقي من الساحل الشامي .

### أثر الحروب الصليبية في الحضارة الاوروبية :

لم تقتصر الحروب الصليبية على المعارك الدامية ، والعداوات المتصلة ، بل شهد رجالها من المسلمين والمسيحيين اتصالات حضارية بعيدة المدى في التجارة والصناعة والثقافة . ومن المعروف ان الشرق الاسلامي سبق اوروبا المسيحية في هذه النواحي جميعا في تلك العصور . فاخذت اوروبا تتطور بفضل ما جاءت به الحروب الصليبية من الشرق الاسلامي . مثال ذلك ان معرفة الصليبيين بزراعات الشرق ادت الى انتشار كثير من النباتات والحاصلات الشرقية في اوروبا ، ومنها السمس والخروب والذرة والارز والليمون والشمش والثوم . وقامت في اوروبا صناعات جديدة على نسق السلع الشرقية ، مثل صناعة العقاقير والبسط والاقمشة . وشاعت في ملابس الاوروبيين رسوم اقمشة الموصل ودمشق والفسطاط ودمياط وديبقي ، ولا تزال أسماء هذه الاقمشة مستعملة في اللغات الاوروبية . وانتشرت في اوروبا كذلك ادوات الزينة الشرقية

من الدهون والاشنان والمساحيق والملابس الخاصة بالسيدات ،  
ولا تزال الاسماء العربية لادوات الزينة وغيرها مبعثرة في اللغات  
الاوروبية الحديثة .»

وعرفت اوربا علوم الشرق الاسلامى وفلسفته عندما استقر  
الصليبيون في ممالكهم بالشام ، فاقبل رجال العلم الاوربيون على  
حضارة مدن الشام ومصر ، ونقل الكتب المفيدة منها الى بلادهم  
وترجمت الى اللاتينية منذ ايام الحروب الصليبية كثير من  
المؤلفات العربية في الفلك والهندسة والجبر ، وبعض مؤلفات  
ارسطو التى سبق للعرب ان ترجموها الى العربية .»

ثم ان وفاة كثير من زعماء الصليبيين بالشرق اثناء الحملات  
الصليبية ، ادى بدوره الى ضعف البيوت الاقطاعية الاوروبية  
التى جاءوا منها ، وافسح المجال لتكوين الطبقة الوسطى المستقلة  
بالتجارة ، وهى الطبقة التى اعتمد عليها الملوك بمختلف الدول  
الاوروبية لتحل في وظائف الدولة محل ابناء البيوت الاقطاعية ،  
وساعد ذلك كله على ظهور الدولة الحديثة في اوربا .»

### آثر الحروب الصليبية في الشرق الاسلامى :

وتأثر المسلمون بالحروب الصليبية ، اذ احسوا لأول مرة  
بالخطر الاوروبى المشترك ، وعملوا على تكوين جبهة اسلامية  
متحدة مثلما حدث ايام صلاح الدين . وغذى هذا الاحساس طائفة

من الشعراء والفقهاء والعلماء ، فظهرت القصائد والخطب  
والمواعظ التي تحض على القتال في سبيل الوطن الاسلامى .  
وظهرت كذلك الكتب التي تناولت الجهاد والفروسية والسير  
التاريخية التي تشجع المسلمين على التفانى في الدفاع عن البلاد  
والدين .

على ان المسلمين تأثروا ببعض المظاهر المادية ، فعرفوا  
استخدام القلاع في الدفاع عن المدن ، وتحصين المواقع الحربية  
ذات المراكز الاستراتيجية . وانتقلت بعض المصطلحات الخاصة  
والنظام الاقطاعى الاوروبى الى الاقطاع الاسلامى . ودخلت بعض  
المفردات اللغوية الاوروبية الى اللغة العربية العامية مثل كلمة  
( برنس ) اى امير ، ( امبرور ) اى امبراطور . واخيرا تأثرت  
البلاد الاسلامية بالمظاهر التي تصطبغ الحروب عادة من حيث  
التطورات التي تصيب النظم الاجتماعية ، اذ كثر الاشخاص  
الذين اصابوا حظا وافرا من المال بالتجارة بالسلع التي تروج  
زمن الحروب ، وغدوا طبقة اجتماعية جديدة اشبه بما يعرف  
اليوم باسم اثرياء الحرب .

## اغارات المغول

### موطن المغول :

عاش المغول في الهضبة الآسيوية الشاسعة ، التي تمتد من اطراف الصين الى اواسط اسيا . وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وانواع المناخ والتضاريس ، وتغلب عليها الصفة السهوية ذات المراعى المتغيرة . ومن ثم احترف المغول الرعى ، والانتقال في سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حريبا سريعا . ولم تحترم قبائل المغول الاستقرار او تبنى المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة ، بل اخذت هذه الجموع تضرب في الارض بين اطراف الصين ومنشوريا الى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الاسلامية .

### جنكيز خان :

ثم استطاع احد زعماء المغول واسمه جنكيزخان ، ومعناه حاكم الحكام ، ان يجعل من الكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة رهيبة ، لها عاصمة في مدينة قره قورم . ووضع جنكيزخان دستورا عاما لهذه الدولة واسمه ( اليساق ) . وفي الاجتماع المغولي السنوى العام ، وهو المعروف في اللغة المغولية بلفظ ( قورتيلاي ) اعلن جنكيزخان هذا الدستور الذي نص فيه على ضرورة الخضوع التام لادارته ، والانضواء الى رايته ،

والذهاب معه في جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة فردية او قبلية . واستطاع جنكيزخان ان ينظم بذلك اداة حربية ضخمة ، اساسها الطاعة العمياء ، والاحترام لقرارات الخان الاعظم .

### فتوحات المغول شرقا وغربا :

#### فتح الصين :

اخذ جنكيزخان بعد تتويجه امبراطورا على المغول سنة ١٢٠٦ م ، يعمل على فتح الاقاليم المجاورة له من امبراطورية الصين ، وحكم الصين وقتذاك ملوك اسرة ( كين ) وعاصمتها مدينة بكين . وفي سنة ١٢١١ م ، استهل جنكيزخان حروبه ، فظن امبراطور الصين ان باستطاعته ايقاف السيل المغولي الداهم بترضية شخصية ، فأرسل الى جنكيزخان زوجة صينية ، وهدايا نفيسة من تحف الصين . غير ان حركات الجيوش المغولية ما لبثت ان اضطرت امبراطور الصين الى الرحيل عن عاصمته . وترتب على ذلك اضطراب داخلي ، استغله جنكيزخان في الاستيلاء على معظم اجزاء الامبراطورية الصينية المتداعية سنة ١٢١٥ م . وتابع جنكيزخان حروبه المخربة حتى بلغت جيوشه نهو هوانج هو . واكتفى جنكيزخان بهذا القدر من الفتوحات في الصين ، وعاد الى عاصمته قره قورم ، بعد ان خلف في الصين نائبا عنه .

### هجوم المغول على الدولة الاسلامية :

تحول جنكيزخان بعد ذلك الى اخضاع القبائل المغولية التي فرت من قبضته ابان عملية الاخضاع التي قام بها سابقا لتوحيد دولة المغول ، وتعقب هذه القبائل الى بلاد الدولة الخوارزمية في تركستان ، والى الاطراف الشرقية من ايران ، وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه

واتبع جنكيزخان وسائل وحشية مغولية في حروبه في بلاد خوارزم . فتولى بنفسه تدمير بلاد ماوراء النهر ، على حين انفذ فرقا اخرى من جيشه للاستيلاء على اقاليم الخوارزميين في خراسان والعراق الفارسي . ولذا لقيت معظم المدن الاسلامية الزاهرة التي وقعت في طريق المغول تخريبا تقشع له الابدان وتحولت قصورها وشوارعها وفنادقها الى مراع مترامية لخيول جنكيزخان والقبائل المغولية . وجرى سيل من الدماء في هذا التدمير ، وسرى الرعب في القريب والبعيد من الناس . فلم يبق من اهالي هرات البالغ عددهم ١٠٠٠٠٠ غير ٤٠٠٠٠ نسمة ، بعد سبعة ايام حسوما من القتل .

ولقيت بخارى من التدمير مثلما لقي غيرها من المراكز الاسلامية في بلاد ما وراء النهر ، اذ اتخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيولهم ، ووصف جنكيزخان نفسه بعد استيلائه على هذه المدينة بأنه عذاب من الله ارسله الى الناس عقابا لهم على خطاياهم وترددت في مهاوى المصير سمرقند وبلخ وغيرهما من امهات مدن

آسيا الوسطى . وفر علاء الدين خوارزم شاه الى احدى جزر بحر قزوين ، وتوفى سنة ١٢٢٠ م كندا ، لما حل ببلاد المسلمين من كوارث فادحة .

وعاد جنكيزخان الى بلاده بعد ما انزل ببلاد المسلمين وغير المسلمين انواع الدمار ، من تركستان وخراسان وافغانستان في الجنوب ، واذربيجان وجورجيا وروسيا في الشمال . وروى المؤرخ ابن الاثير حادثة دالة على مبلغ ما نزل بالناس من الرعب والانهيار امام الجيوش المغولية ، وهي ان المغولى يدخل القرية من القرى وبها جمع كثير من الناس ، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد ، لا يتجاسر احد ان يمد يده الى ذلك الفارس . « وان انسانا منهم اخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له ضع راسك على الارض ولا تبرح . فوضع راسه على الارض ومضى التترى فاحضر سيفا وقتله به » . ومات جنكيزخان سنة ١٢٢٧ م ، وهو في سن الرابعة والستين .

### سقوط بغداد :

وزحف المغول نحو ايران بعد اجتياحهم خوارزم ، وذلك في عهدمانجوخان ، حفيدجنكيزخان ، وهو الذى صار الخان العظيم ( الخاقان ) للمغول ، سنة ١٢٥١ م . وجهاز مانجوخان لهذه العملية المغولية الثانية ضد المسلمين اخاه هولاكو ، وذلك لاتمام فتح ايران والاستيلاء على بغداد . فاوغل هولاكو فى ايران ،



حيث قضي اولا على قلاع طائفة الاسماعيلية ومدنهم ، مثل قلعة الموت . ولم يكن بايران سوى مقاومة اولئك الاسماعيلية ، وبدا تفرغ هولاء للزحف على بغداد .

وارسل هولاء سنة ١٢٥٧ م الى الخليفة العباسي المستعصم يدعوه الى التسليم قبل فوات الاوان ، كما ارسل الى وزيره ابن العلقمي ليجعل منه طابورا خامسا . واعقب هولاء تهديده بحصار بغداد ، واعتمد على ما احدثه ابن العلقمي من اهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفرع واشاعة القول بان المغول قوم لا ينهزمون ، وان المصلحة في الخضوع لهم . وظلت مجانينق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة اربعين يوما ، حتى احدثت فجوة في اسوارها . وعندئذ اذعن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولاء ومعه اقاربه ، وسلمه مدينة بغداد .

واضمر هولاء الغدر للخليفة ومدينته ، فامر باخراج الجند الخلفي خارج بغداد بحجة احصاء عددهم ، ثم انزل بهم القتل جميعا وفي صباح اليوم التالي اباح هولاء بغداد لجنوده ، فانتشر المغول في احيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الاطفال ، ويستحيون النساء وظلت هذه الوحشية اربعة ايام بلياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالاسلاب والانهاب والمغانم من الذهب والفضة والنساء ، فضلا عن رؤوس القتلى التي عمد الجند الى اللهب بها على شواطئ دجلة . واخيرا امر هولاء بقتل الخليفة المستعصم ،

وزالت الخلافة العباسية بذلك ، لكن الى حين ، ودخلت العراق  
الاسلامية في التبعية للمغول سنة ١٢٥٨ م ( ٦٥٦ هـ ) .

### جهود مصر في صد المغول - وقعة عين جالوت :

حزم هولاءكو امره بعد ذلك على السير نحو الشام ، فزحف  
شمالا ، واعمل السيف في سكان الموصل وحران الرها . والقصة  
التي رواها ابن الاثير عن مبلغ الفزع والرعب الذي استولى على  
الناس ، خاصة بهولاءكو وجنوده قرب الموصل . ثم ارسل  
هولاءكو الى ملوك الايوبيين بالشام يتوعددهم ويهددهم بالفناء التام ،  
اذا هم لم يمهدوا لرحفه ، بالاسراع الى طاعته . وانتشر الدعر  
بالبلاد الشامية والمصرية كذلك . وجاء هولاءكو فاستولى على  
حلب ثم دمشق وغيرهما من البلاد الشامية الواقعة بينهما وبعث  
الى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتطلب الطاعة  
المطلقة . واجاب قطز ، الخوارزمي الاصل ، اجابة جريئة غير منتظرة ،  
اذ قتل السفراء المغول ، انتقاما يائسا لما احدثه جنكيزخان بالدولة  
الخوارزمية .

غير ان هولاءكو لم يستطع ان يظل بالشام لاتمام ما حزم امره عليه ،  
اذ توفي اخوه الخاقان مانجوخان ، وتطلب ذلك رحيله من الشام  
للاشتراك في اقامة الخاقان الجديد . وتولى ابغا قيادة السوش  
المغولية المحتلة بلاد الشام . اما السلطان قطز فلم يهمل استعداداته  
الحربية ، بل ارسل ثلاثه من القاهرة بقيادة الامير بيبرس

البندقدارى على أن يزحف هو بالجيش الرئيسى ، واستطاع  
بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزة ، مما  
يدل على أن الخطير المغولى أضحى قريبا جدا من مصر .  
ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، واخذ فى مفاوضة الصليبيين  
ليسمحوا له باختراق اراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك ان  
يبغت المغول من ناحية غير منتظرة . ونجحت المفاوضات برغم  
تفضيل بعض الصليبيين مخالفة المغول ضد سلطنة المماليك ،  
وبذا استطاع قطز أن يصل الى مدينة بيسان فى سهولة وسرعة ،  
وان يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ١٢٦٠ م .  
وانتصر قطز انتصارا كبيرا على ابغا بعد أن كادت الكثرة  
المغولية تغلب حيلة المماليك . وفى اثناء هذه الواقعة الدامية سقط  
ابغا قتيلًا ، وتقهر المغول الى دمشق وحلب فتعقبتهم الفرق  
المملوكية حتى اخرجتهم من الاراضى الشامية .

وانتصر المماليك على المغول فى عين جالوت وقعة فاصلة فى  
التاريخ كله ، سواء من ناحية تاريخ مصر فى العصور الوسطى او  
تاريخ العصور الوسطى الأوروبية . اذ جاء الانتصار بعد أن عجزت  
الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول او مدافعتهم ،  
وبعد ان انهارت القوى المسيحية امام الزحف المغولى على اجزاء  
من روسيا وبولندا والمجر الحالية . ثم ان وقعة عين جالوت اول  
صدمة فى الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون  
أنهم قوم لا يهزمون . فجاءت هذه الصدمة بمثابة المعجزة الدالة

على انه في الامكان الحاق الهزيمة بالمغول . ومما جعل وقعة عين جالوت من الواقع الحاسمة في التاريخ الاوروبى ان خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب ، وانما هدد المغول أوروبا ، واستولت جيوشهم على « كيف » وغيرها من البلاد الاوروبية . ومما لاشك فيه ان المغول لو تقدموا في اوربا ، واستقروا فيها بمدنيتهم السهوية القلقة لكان تأثيرهم سيئا بوجه عام . ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التى سادت الناس جميعا عن خطورة المغول ، وفتحت عيونهم في كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت اعدادها . وكسبت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين ، كما استقامت لمصر زعامة جديدة في العالم الاسلامى .

### الدول المغولية :

امتد سلطان المغول على عهد الخاقان قوبيلاي خان ( ١٢٥٩ - ١٢٩٥ م ) ، اخو هولوكو ، من النهر الاصفر بالصين الى نهر دانوب بأوروبا ، وبلغت قوتهم اوجها في الشرق والغرب . فحكم المغول من مدينة بكين شمال الصين وكوريا ومنغوليا ومنشوريا والتبت ، وحكم فرع منهم تركستان وافغانستان ، واستقر الفرع المغولى المعروف بالقبيلة الذهبية في القفجاق شمالى بحر قزوين ، وبسط نفوذه على جزء كبير من روسيا الحالية . أما الفرع المغولى الذى هبط به هولوكو وجنوده على ايران والعراق ، فاستقر بها ، الى

جانب أرمينيا وجزء من آسيا الصغرى ، بعد أن جعل عاصمته بغداد .

وبعد وفاة قوبيلاي خان، انتشر الخلاف بين خانات المغول حول الزعامة والسلطان ، فتحولت قروع امبراطورية المغول الى اربع دول مستقلة بعضها عن بعض ، وهى الصين ، وتركستان ، وروسيا ، وايران . وانفرد مغول روسيا بالسبق الى اعتناق الاسلام على المذهب السنى ثم انتشر الاسلام بعد ذلك بين مغول ايران على المذهب الشيعى .

واتخذ مغول الصين من مدينة بكين عاصمة لهم سنة ١٢٦٤ م ، وهى المعروفة باسم بيجنج فى العصر الحاضر . ووفد الرحالة الاوروبيون على البلاط المغولى فى الصين ، وترك احدهم وهو ماركوبولو ، من اهالى البندقية ، وصفا طويلا لهذا البلاط ، اذ دخل خدمة خاقان الصين وتنقل فى انحاء البلاد ولمس بنفسه قوة هذه الدولة .

#### مغول تركستان :

اما مغول تركستان فاستقلوا باواسط آسيا ، واشتهر خانات هذه الدولة المغولية التركستانية بعدائهم للاسلام ، واولهم جغتاي ثانى ابنى جنكيز خان ، وهو الذى فرض قوانين صارمة تحرم على المسلمين فى دولته ان يذبحوا الحيوانات للطعام ، او ان يقيموا فرائض الوضوء وشعائر الصلاة .

ثم اخذ الإسلام ينتشر في هذه الدولة المغولية بآسيا الوسطى  
تدرجاً على يد الخانات الذين أسلموا ، مثل براق خان وطفلق  
خان في القرن الرابع عشر الميلادي .

### ايلخانية فارس :

وسارت دولة المغول في فارس ، التي أسسها  
هولاكو بعد عودته من الشام سنة ١٢٥٩م على نهج دولة مغول  
تركستان . فظل هولاكو وبعض خلفائه أعداء للمسلمين ، ولم  
تغب عن ذاكرتهم الهزيمة التي أنزلها بهم المماليك في عين جالوت .  
ولذلك دابت ايلخانية فارس المغولية على مخالفة القوى الصليبية  
بالشام ضد الدولة المملوكية بمصر ، وراسل اباقا خان ابن هولاكو  
القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، وارسل اليه سفارة مغولية  
حضرت احد المجامع المسيحية في مدينة ليون بفرنسا سنة  
١٢٧٤م . لكن الخان تكودار اعتنق الاسلام عندما تولى عرش  
ايلخانية فارس سنة ١٢٨٢م ، وصار اسمه احمد تكودار . وبعث  
الخان الجديد نبياً اسلامه الى السلطان قلاوون في مصر ، واصبح  
الاسلام الدين الرسمي ، على مذهب الشيعة : لهذه الدولة المغولية  
التي ظلت متمسكة حتى عصر ايلخان ابو سعيد .

### المغول القفجاق :

يرجع استقرار هذا الفرع المغولي المعروف  
باسم القبيلة الذهبية في بلاد القفجاق شمال بحر قزوين الى  
باطو حفيد جنكيزخان . ثم اعتنق بركة خان الاسلام سنة

١٢٥٦ م ، وهو حفيد آخر من أحفاد جنكيز خان ، وحالف  
الظاهر بيبرس سلطان مصر ضد هولاكو مؤسس ايلخانية  
المغول في فارس . واتخذ مغول القفجاق مدينة سراي عاصمة  
لهم ، وهى على نهر الفلجا ، وموقعها قرب ستانجراد الحالية ،  
وبذا اصبح الاسلام اخيرا دين فروع مغولية كثيرة بعد ان انزلت  
جيوشهم بالدولة الاسلامية اشد الوان الدمار والخراب .

## الفصل الخامس

### الدولة العثمانية

#### الأتراك والإسلام

الترك ومواطنهم الاولى :

يرجع اتصال الأتراك بالدولة الإسلامية الى أيام الخلافة الأموية ، حين دخل القائد الأموي ، قتيبة بن مسلم بلاد ماوراء نهر جيحون سنة ٧٠٥ م . وفي تلك البلاد قامت منذ القرن السادس الميلادي دويلات قبلية ، أسسها الأتراك ، الذين هاجروا من مواطنهم الأصلية بأواسط آسيا . فاستولى قتيبة على طخارستان الجنوبية وعاصمتها بلخ ، وفتح بخارى في إقليم الصفد ، وماجاورها من البلاد فيما بين سنتي ٧٠٦ ، ٧٠٩ م ، واخضع سمرقند وخوارزم سنة . ثم عبر قتيبة نهر سيحون ، وفتح فرغانة ، أعظم بلاد الترك ، الواقعة شرقي هذا النهر . وعاد قتيبة بعد ذلك الى مرو عاصمة خراسان ، التي غدت منذئذ عاصمة هذه الأقاليم الترككية الداخلة في الدولة الإسلامية .

واخذ الإسلام ينتشر في بطن بين الأتراك في بلاد ما وراء النهر ، ويحل تدريجيا محل ديانتهم الشامانية الوثنية المستندة الى مظاهر الطبيعة وعبادة الأصنام . ثم حدث في عهد الخليفة الأموي



هشام بن عبد الملك أن تولى نصر بن سيار ولاية بلاد ما وراء النهر . وامن هذا الحاكم الاموى فى نشر الاسلام بين الاتراك ، واتسعت ولايته بذلك فى اقصى اواسط آسيا حتى بلغت اقليم الشاس ( تاشقند الحالية ) الى الشمال الشرقى من سمرقند . وبدا تقدم الاسلام خطوة اخرى بين الاتراك .

### مجىء الاتراك الى بلاد الدولة الاسلامية :

ولما صار المعتصم العباسى خليفة سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م ، بدأ مجىء الاتراك فى كثرة من بلادهم الاصلية الى العراق ، لان ام هذا الخليفة تركية . ومال الخليفة المعتصم الى الاتراك ، وعمد الى تكوين حرسه الخاص منهم ، لاجبابه بجمال منظرهم وشجاعتهم ، وداب على شراء المماليك الاتراك من سمرقند وفرغانة ، وجلبهم الى بغداد . وفى العاصمة تلقن اولئك المماليك الاتراك اللغة العربية وآدابها . ودخل الفرد منهم بعد اتمام تعليمه الدينى فى حرس الخليفة الخاص . ثم صار هذا الحرس التركى منبعا للاضطراب فى بغداد ، وساءت علاقات افراده بالبغداديين من العرب والفرس ، فاضطر الخليفة الى الانتقال بحرسه وبحكومته كذلك الى سامرا .

وادى هذا التطور فى احوال الاتراك فى الخلافة العباسية الى انتشار الاسلام بينهم فى القرن العاشر الميلادى ( الرابع الهجرى ) ، اذ اعتنق الدين الاسلامى شيوخ القبائل التركية ، وتبعهم سائى

افراد القبائل باعدادهم الكبيرة . وحمل خانات القبائل وشيوخها تعاليم دينهم الجديد الى مضارب الاتراك الوثنيين الذين لم يصلهم الاسلام . ففي سنة ٣٤٩ هـ ( ٩٦٠ م ) اسلم كثير من شيوخ القبائل التركية على يد والى كشغر ، وبلغ عدد الاتراك الذين اسلموا في تلك السنة نحو مائتى الف خيمة ، اى مائتى الف اسرة . ثم صار الاتراك قوة هائلة في بغداد ، فغدت الخلافة العباسية وولاياتها في ايديهم ، حتى حل محلهم البويهيون ، الى ان عادوا الى قوتهم الاولى حين نجح السلاجقة الاتراك في الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥ م بموافقة الخليفة القائم بامر الله العباسي .

واجتذب السلاجقة كثيرا من القبائل التركية من بلاد ماوراء النهر نحو العراق وغيرها من البلاد الاسلامية في غرب آسيا .

### تأسيس الامارة العثمانية

استقرار الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى :

وفي اثناء الحروب بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى قامت مجموعات قبلية تركية مختلفة بغزوات مستقلة خدمة للدين ، وطلباً للاستقرار في جزء من اجزاء الدولة البيزنطية . ومن هذه المجموعات قبائل صاروخان وحميدو وارطغرل ، وايدىن وقرمان . ثم استقلت دولة السلاجقة بالروم عن الدولة السلجوقية الكبرى بعد وفاة السلطان ملكشاه

سنة ١٠٩٢ م ، فعلت هذه المجموعات الضاربة في مختلف  
الاطراف البيزنطية تحت لوائها . ثم دهمت جيوش الايلخانية  
المغولية الفارسية هذه الدولة السلجوقية الفرعية بآسيا  
الصفرى ، وجعلتها بذلك تابعة للمغول . غير ان القبائل التركية  
المتقدمة لم تخضع لهذه التبعية ، بل استقل زعمائها بما تحت  
أيديهم من الاقاليم ، وبدا تفككت هذه الدولة السلجوقية  
واستحالت اجزاء ، واستقر بجزء منها ارطغرل ، وهو ابو عثمان  
مؤسس الامارة العثمانية . وهذا الجزء هو الاقليم المعروف  
باسم سكود بالجنوب الغربى من آسيا الصفرى قرب اقليم  
بيشنيا التابع للبيزنطيين ، وقال ارطغرل بك اقليم اسكود سابقا  
مكافاة له على خدماته للسلطان السلجوقى علاء الدين كيقباد  
الثانى ضد البيزنطيين ، كما نال اقليم اسكى شهر مكافاة له على  
دفاعه ضد هجمات المغول المتكررة .

#### امارة سلطمونى :

واطلق السلطان السلجوقى على البلاد التى استقر بها ارطغرل  
اسم امارة سلطمونى او مقدمة السلطان . وظل ارطغرل حاكما  
لهذا الاقليم حتى توفى سنة ١٢٨٨ م ، ودفن بالقرب من سكود .

#### الامارة العثمانية :

وخلف ارطغرل سنة ١٢٨٨ م ابنه عثمان ، الذى بلغت سنه  
وقتذاك اربعة وعشرين عاما ، وهو الذى انتسبت اليه الدولة  
العثمانية ، لانه اول حاكم مستقل لامارة سلطمونى ، ولانه

كذلك صاحب الفضل في توسيع مساحتها حتى شملت الاقليم المعروف باسم فيرجيا في التاريخ القديم . ثم توفى السلطان السلجوقي علاء الدين كيقيباد الثالث سنة ١٣٠٧ م ، فأعلن عثمان استقلاله التام بامارته ، وبدأ يوطد سلطانه في الجهات المجاورة لها . واستهل عثمان حركاته التوسعية بالاغارة على مقاطعة بيثينيا البيزنطية ، اذ اغرته اطرافها الخالية من وسائل الدفاع بالتوغل في هذه المقاطعة حتى استولى على جزء كبير منها . وتطلع عثمان بعد ذلك الى الاستيلاء على مدن البيزنطيين الهامة بآسيا الصغرى ، فأنفذ الجيوش بقيادة ابنه أورخان لذلك الغرض ، وتوفى عثمان سنة ١٣٢٦ م ، في الوقت الذي بلغت فيه قوات ابنه أورخان مدينة بورصة . وسقطت هذه المدينة في ايدي أورخان ، ودفن بها عثمان . ومن ثم غدت بورصة ، كما غدت سكود من قبل مزارا للعثمانيين ، واصبحت بورصة العاصمة الجديدة للمملكة التي آلت الى أورخان .

## اتساع الامارة العثمانية وفتوحها في أوروبا

### فتوح أورخان وتنظيم الامارة العثمانية :

اتم أورخان مابده ابوه من الاستيلاء على بيثينيا، وطرده البيزنطيين منها . فاستولى على نيقية ( اسك الحالية ) سنة ١٣٢٩ م ، ونيقوميديا ( ازميت الحالية ) سنة ١٣٣٧ م ، بعد حرب لينة ضد جيوش الامبراطورية البيزنطية ، التي نخرت في شجاعتها السنون .

ويستطيع الزائر لاحدى هاتين المدينتين ان يرى القسطنطينية ،  
عاصمة البيزنطيين راي العين . وادرك اورخان ان باستطاعته ان  
يمد سلطانه على ارض الدولة البيزنطية في اوروبا بالتدخل في  
شئون هذه الامبراطورية بمختلف الوسائل ، غير ان اورخان لم  
يكن قائدا عسكريا فحسب ، بل رجلا اداريا من الطراز الاول .  
فراى ان يصرف السنوات التى اعقبت استيلاءه على نيقية  
ونيقوميديا في تنظيم دولته الاسيوية . وقضى في تنظيمها عشرين  
سنة ، هى اعظم مرحلة في تاريخ الدولة العثمانية .

وانصرفت همهة اورخان الى بناء المساجد والمدارس ، والمشاقق  
للمرضى ، والفنادق للتجار . وضرب النقود باسمه ، على احد  
وجهيها شهادة ان لا اله الا الله ، وعلى وجهها الآخر اسم اورخان .  
واختار اورخان كذلك الزى القومى للرأس ، وهى طاقية من جوخ  
ابيض . على ان اهم اعمال اورخان تنظيم الجيش ، وانشاء الفيالق  
العسكرية ، التى جعلت الاتراك العثمانيين مصدر الرعب في العالم  
لعدة قرون ، وهذه الفيالق هى فيالق الايكنجية ، اى فرق  
المناوشة الخفيفة ، وفيالق الفرسان الاقطاعيين ، وفيالق الحرس  
السلطاني ، وفيالق المشاة ذات الشهرة الهائلة ، وهى الينى شرية ،  
التى دابت الكتب على تسميتها باسم الانكشارية .

#### الينى شرية :

ومعنى الينى شرية الجنود الجدد ، وهم جميعا اطفال مسيحيون  
جمعهم العثمانيون جزية من مختلف البلاد المسيحية التى خضعت

لحكمهم ، ثم علموهم الاسلام تعليما كفيلا بنسيانهم المسيحية .  
وخصص العثمانيون بعض اليني شرية لوظائف الفلمان بالقصر  
السلطاني ، على حين عينت الدولة بعضا اخر منهم لوظائف الحكم  
والادارة المدنية . اما الجزء الاكبر من اليني شرية فاضحي فيالق  
المشاة ، التي اشتهرت بالاستماتة في القتال . ومرجع ذلك الى  
صرامة النظام الذي نشأ فيه الفرد منهم . ذلك ان الجندي من  
اليني شرية تعلم ان ينسى اباه وامه واخوته واقاربه ، وان يعيش  
دون امل في زوج وبنات وبنين ، فالتكنة العسكرية مأواه ، والحرب  
مهنته ، والقرآن عقيدته ، وما عليه الا ان يمضي في قتال اعداء  
السلطان بروح ملؤها حماسة متأججة .

ويرجع الاقتراح بتكوين اليني شرية على هذا النحو الى هاييل  
الاسود ، وزير اورخان . اما تسميتهم فمرجعها الى الحاج بكتاش  
مؤسس طائفة الدراويش البكتاشية التي ظلت قائمة في الدولة  
العثمانية حتى اوائل القرن العشرين . ذلك ان اورخان سار  
بالدفة الاولى من جنوده الى هذا الدراويش ، وطلب منه ان يباركهم  
ويطلق عليهم اسما ، فغطى بكتاش رأس فرد من الجند بكفه وقال  
ليكن اسم الجندي يني شرية - الجندي الجدد - ، وليكن طالعهم في  
الحرب ميمونا ، ونهاية قتالهم النصر على الاعداء .

### انتقال الأتراك العثمانيين الى أوروبا :

ورحب اورخان بالخلاف الناشب في القسطنطينية بين المتنافسين  
على العرش البيزنطي ، وعبرت جنود تركية عثمانية وغير عثمانية

اقليم تراقيا ، على الشاطئ الاوربي ، بناء على طلب هذا اوزاك من المتنافسين لمساعدته ضد غريمه . واخيرا بعث اورخان سنة ١٢٥٦ م ابنه الاكبر واسمه سليمان للاستيلاء على تراقيا . وعبر سليمان مضيق الدردنيل في ليلة مقمرة من ليالى الخريف ، ونزل شبه جزيرة جاليبولي ، واقام هناك اول جالية تركية عثمانية عدتها ثلاثون الفا من العثمانيين . ثم تبعه اخوه مراد بجيوش عثمانية استولت على بضع مدن بيزنطية ، ومنها ادرنة سنة ١٢٥٧ م . وذات يوم ، بعد ذلك بقليل ، خرج سليمان ليلهو بصقورة في مرج قريب من بلدة بولير ، فكبا به فرسه كبوة اردته صريعا ، ودفن حيث لقي حتفه . ويعتبر سليمان المؤسس الثاني للامبراطورية العثمانية ، فهو واضع الحجر الاساسي في بناء امبراطورية العثمانيين باوروبا ، والامير العثماني الاول الذي ضمت رفاقته ارض اوروبية .

### وقعة قوصوه الاولى :

والت السلطنة بسبب وفاة سليمان الى اخيه مراد الاول بعد وفاة ابيهما اورخان سنة ١٢٥٩ م . ولم تلبث اوروبا ان ادركت ضخامة القوة العثمانية التي تأسست على عهد اورخان ، لان مراد جعل غايته تكميل فتوحه في اوروبا ، فتدخل في النزاع المستمر بين الاباطرة البيزنطيين ، واستولى على سالونيك وغانبولي ، ودخل ادرنة للمرة الثانية . ودل مراد على بصيرة وجرأة ، كابيه اورخان ، فاخذ في تدعيم فتوحه الجديدة

- وتنظيمها ، وجعل من ادرنة البيزنطية عاصمة عثمانية اسلامية .
- وبدا نقل محور القوة العثمانية الى اوروبا .

وبينما يقضى مراد وقته في تدعيم ممتلكاته ، عقد لازارس ملك الدولة الصربية في الشمال الغربى من البلقان حلفا من الدول المسيحية المجاورة سنة ١٢٨٧ م لتحطيم العثمانيين . وامتلات معسكرات هذا الحلف بجند من الصربيين والبلغاريين والبولنديين والمجريين . ولكن جيشا مرتجلا ، يرطن كل جزء من اجزائه بلسان خاص ، لن يستطيع مهما بلغت شجاعته ان يقف لجيش تركى جعله التنظيم الصارم وحدة عسكرية هائلة . وفي شهر يونيو سنة ١٢٨٩ م التقى الفريقان في ميدان قوصوه . وقاد السلطان مراد الاول جيوش العثمانيين بنفسه واشتدت المعركة ، وحق بالمتحاريين خسائر فادحة ، وقتل مراد في هذه الواقعة غيلة بضربة جندى صربى .

على ان العثمانيين مالبثوا ان اسروا الملك لازارس ، وقطعوا راسه ، واتم ولى العهد بايزيد بن مراد هذه الواقعة بهزيمة القوات الصربية ، بعد ان فقدت ملكها . وسار العثمانيون بقيادة بايزيد الاول بعد هذه الواقعة من نصر الى نصر في البلقان . ونهض سجموند ، ملك المجر ، لوقف ذلك السيل العثماني ، واستنجد بملوك اوروبا شرقا وغربا ، واجتمعت لديه جيوش عديدة . لكن السلطان بايزيد الاول هزمها عند



نيقوبوليس سنة ١٣٤٦ م . وغدت اطراف الدولة العثمانية بعد هذه الواقعة واصلة من اطراف آسيا الصغرى جنوبا الى اطراف البلقان شمالا .

### تيمورلنك والدولة العثمانية :

وبينما يزهو بايزيد بانتصاراته ، وينشر سلطانه على ممتلكاته الواسعة من عاصمته ادرنة ، نزلت بدولته ضربة قاصمة جعلت مجهودات العثمانيين تذهب مع الريح . ومصدر هذه الكارثة هبوط الصاعقة تيمور من موطنه تركستان على رأس جحافل من الخيالة الى غرب آسيا ، واقترابه من تخوم الاراضي العثمانية . وتيمور هو الاثيب الاعرج المعروف لهذا النقص الجسمي باسم تيمورلنك ، وهو الذي استحق لقب الاستاذية في التخريب والقدرة على التدمير مثل جنكزخان دون ان تجمع بينهما صلة من القرابة او النسب . وبدا تيمورلنك حروبه عند ما استولى على دولة المغول في تركستان ، واتخذ من سمرقند عاصمة له ، فوسع سلطانه بالحروب والفتوح الدامية حتى دانت له دلهي بالهند وبغداد بالعراق ودمشق بالشام .

واستجلب بايزيد العثماني على نفسه غضب تيمورلنك عندما أعلن عزمه على الاشتراك مع سلطنة المماليك في مصر وغيرها من الدول في الوقوف في وجه التوسع التيموري في غرب آسيا .

واصطدمت قوات بايزيد بقوات تيمورلنك عند مدينة سيواس في شرق آسيا الصغرى سنة ١٤٠٠ م ، فاطاح هذا القائد الاعرج بقوة الاتراك العثمانيين ؛ وقتل ارطغرل اكبر ابناء بايزيد ؛ ثم اعقب ذلك بالتوغل في آسيا الصغرى . وفي سهل انقره ( يوليو سنة ١٤٠٢ م ) وقع الجيش العثماني ذو الانتصارات الكثيرة في فخ هائل من الخيالة التيمورية الكاسحة ، وذهب معظم الجيش العثماني بين قتيل وجريح واسير ، ووقع بايزيد نفسه اسيرا في يد تيمورلنك . واوغلت فرقة من القوات التيمورية في آسيا الصغرى وخربت مدينة بروصة ، وغيرها من ممتلكات العثمانيين حتى سواحل الدردنيل . ثم عاد تيمورلنك ومعه بايزيد محمولا في قفص من حديد الى سمرقند .

وبات العثمانيون بعد وقعة انقره في حال بائسة . فضاعت جميع ممتلكاتهم في آسيا ، وغدا سلطاتهم اسيرا ، ونشب الخلاف بين ابناء بايزيد من اجل السلطنة . ولكن ادرنة التي اصبحت مدينة اسلامية منذ ايام مراد الاول اشتملت بفضل تنظيمات العثمانيين السابقين على جميع المقومات اللازمة لنهضة الدولة العثمانية مرة اخرى ، اذ استطاع السلطان محمد الاول ان يتغلب على اخوته من ابناء بايزيد ، وان يصبح حاكما بمفرده ( ١٤١٣ - ١٤٢١ م ) . وبدا السلطان الجديد يرعى نواة الحكومة العثمانية الجديدة في ادرنة ، دون ان تدممه اخطار خارجية ، لان الدول الاوروبية لم تستطع الافادة من كارثة

العثمانيين ، وضاعت عليهم فرصتهم عندما أمست الدولة العثمانية بغير جيش او حكومة مستقرة .

ولما توفي محمد الاول سنة ١٤٢١ م خلفه ابنه مراد الثانى ، الذى اتم احياء الامبراطورية العثمانية ، فأعاد مراد الثانى تنظيم الينى شرية ، واعدها لما اعتزمه من حروب توسعية فى البلقان .

### حروب مراد الثانى فى البلقان :

خشى المجرىون احياء سلطان الأتراك العثمانيين ، لأن بلادهم تعرضت لحملاات من جانب مراد الثانى للحصول على ابناء المسيحيين اللازمين للتجنيد ، فدعا المجرىون بلاد أوروبا الى تكوين حلف مسيحي جديد يصد هجمات العثمانيين على منطقة ترانسلفانيا المجرية . وظهرت براءة حنا هنيادى القائد المجرى اثناء الاغارات العثمانية الاولى على ترانسلفانيا ، حتى صار هذا القائد بطل الدول الأوروبية ضد العثمانيين . وضم هذا الحلف ، الى جانب بلاد البلقان ، دوقية برجنديا وجنوة والبندقية والبابوية والامبراطورية البيزنطية .

وزحف هنيادى على رأس جيوش الحلفاء ، وعبر نهر دانوب ، وطرد العثمانيين من بلاد الصرب . ثم اوقع بالعثمانيين هزيمتين فادحتين شمالى نهر هايموس وجنوبيه ، حتى اضطرهم لأول مرة فى تاريخهم الى طلب الصلح . وتم ذلك الصلح فى يونيو سنة ١٤٤٤ م وهو صلح سيزجدين الذى تعهد فيه مراد الثانى

ولادسلاس ملك المجر وحلفاؤه على أن يكون نهر دانوب حدا  
فاصلا ، لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشر سنين . واقسم  
مراد الثانى على القرآن ، كما اقسام لادسلاس على الانجيل  
لاحترام هذا الشرط ، وتخلى مراد الثانى بعد ذلك عن السلطنة  
وتولى ابنه محمد الثانى .

واتاح صلح سيزجدن للعثمانيين فرصة لتنظيم جيوشهم  
وشئونهم الداخلية على عهد سلطانهم الجديد ، غير أن لادسلاس  
ملك المجر عزم على نقض الصلح ، وهجمت جيوش مجرية  
برغم الهدنة على اراضى العثمانيين جنوب نهر دانوب  
وعند مدينة فارنا لقيت جيوش حنا هنيادى قوات العثمانيين ،  
التي تولى قيادتها مراد الثانى مرة اخرى ليقتص لنفسه من  
اصحاب القسم على الانجيل ، وانزل مراد الثانى بحنا هنيادى  
هزيمة فادحة أوائل نوفمبر سنة ١٤٤١ م وتخلى مراد الثانى  
مرة اخرى عن السلطنة لابنه محمد الثانى .

#### وقعة قوصوه الثانية :

لم يهدأ حنا هنيادى برغم اندحار جيشه ، ومصرع ملكه  
لادسلاس فى فارنا ، بل ظهر مرة اخرى فى الميدان على رأس  
جيش صغير من خيرة جند المجريين ، وظهر مراد الثانى مرة  
اخرى بناء على طلب ابنه محمد الثانى . وعند قوصوه التقى  
العثمانيون بجيش هنيادى ، ودارت رحى معركة حامية مدى  
ثلاثة ايام ، انتهت بانهزام المجريين هزيمة شنيعة سنة ١٤٤٨ م .

وعجزت المجر بعد هذه الواقعة عن القيام بأى مجهود حربي  
لعدة سنين . اذ فقدت آلافا من زهرة فرسانها ، وشلت ادراتها  
الحربية . وظل مراد الثاني في السلطنة حتى توفي  
سنة ١٤٥١ م .

### سقوط القسطنطينية :

تولى السلطان محمد الثاني نهائيا عرش العثمانيين عقب وفاة  
ابيه . وقبل ذلك بثلاث سنوات ، توج قسطنطين الحادي عشر  
امبراطورا في الدولة البيزنطية ، التي لم تعد مساحتها اسوار  
القسطنطينية واقليما صغيرا مجاورا لها . وتطلع العثمانيون الى  
هذه العاصمة ، وصمموا على الاستيلاء عليها ليأمنوا سلامة  
المواصلات بين املاكهم في اوروبا وآسيا ، وليؤسسوا بها عاصمة  
جديدة لدولتهم ، فضلا عن أنها نهاية الشوط الحربي الذي بدأه  
عثمان من جوف آسيا الصغرى . واخذ محمد الثاني يعد العدة  
العسكرية الضخمة علنا في غير خشية من الامبراطور ، بعد ان حصل  
من المجر والبوسنة والبندقية على وعد بوقوف كل منها على  
الحياد التام . ثم اعلن محمد الثاني الحرب على الامبراطور في  
خريف ١٤٥٢ م ، واخذ في حصار القسطنطينية .

اما اهل القسطنطينية فاعتقدوا ان مدينتهم لن تسقط في يد  
فاتح مهما اوتى من مهارة وجسارة وبأس ، فكثرا ما طمع  
الفاتحون في الاستيلاء عليها ، وارتدوا جميعا عنها خاسرين .  
واهتم اهل القسطنطينية بالجدل الديني حول الاتحاد الذي تم

اواخر تلك السنة بين كنيستهم الارثوذكسية والكنيسة البابوية الكاثوليكية ، اكثر من اهتمامهم باعلان محمد الثانى الحرب . اذ استنجد الامبراطور بالبابا فى روما عندما علم باستعدادات العثمانيين الحربية ، ووقع اتفاقية الاتحاد بين الكنيستين لقاء ارسال المساعدة . ثم انفجرت الثورة فى القسطنطينية والعثمانيون على ابوابها ، وذلك عندما اقام الامبراطور بكنيسة ابا صوفيا صلاة مؤذنة بالاتحاد البغيض بين الارثوذكسية والكاثوليكية ، واعلن احد الزعماء البيزنطيين انه يفضل ان يرى عمائم العثمانيين عن ان يرى قلانس رجال الدين الكاثوليكين بالقسطنطينية .

وتخلت المدن الايطالية صاحبة الامتيازات التجارية فى القسطنطينية عن مساعدة الامبراطور ، بل اسرعت راجوزة وجنوة والبندقية للتقرب من الدولة العثمانية الفتية ، اذ رات فى فوزها على البيزنطيين فرصة لتدعيم تجارتها الواسعة . ولذا لم يات لنجدة العاصمة البيزنطية من عند جيرانها المسيحيين سوى مائتين من الجنود البابوية ، وعدد من السفن الايطالية ، وعجزت قوات الامبراطور عن حماية الاسوار لقلة عددهم ، ولم يستطيعوا المقاومة اكثر من شهرين . وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ، اقتحم العثمانيون الاسوار بعد تخريبها ، ولقى الامبراطور البيزنطى مصرعه فى القتال الذى امتد الى شوارع القسطنطينية . وفى منتصف النهار دخل السلطان محمد الثانى العاصمة البيزنطية دخول الفاتح ، وامر جيشه بالكف عن القتال ، ثم دخل كنيسة

ايا صوفيا ، وحولها الى مسجد جامع . وأمر السلطان محمد الفاتح - وهذا هو لقبه في التاريخ - بترميم ما أحدث الحصار بأسوار القسطنطينية من الدمار ، وجعل من المدينة البيزنطية عاصمة له ، وبدا انتهت امبراطورية البيزنطيين .

## امتداد الدولة العثمانية الى البلاد العربية

### الصفويون في ايران :

بينما تمتد الفتوحات العثمانية في أوروبا من اقليم الى آخر ، في البلقان وأوروبا الوسطى وشمالى نهر دانوب ، اتجهت ابصار العثمانيين كذلك نحو البلاد الاسلامية المتاخمة لهم في آسيا الصغرى ، واخذوا يحلمون بالسيادة العليا في العالم الاسلامى . وانتشرت في الدولة العثمانية منذ اواخر القرن الخامس عشر الميلادى حماسة دينية ، توجهت اولاً للحرب الصفويين في ايران . واشتد العداء في ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوى والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثانى الفاتح . ذلك ان الشاه انتهز النزاع الذى نشب حول السلطنة بين ابناء البيت العثمانى ، وحرص الشيعة بآسيا الصغرى على الثورة ضد العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية . واحتضن الشاه اسماعيل ابناء البيت العثمانى الذين اضطروا الى الفرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الاول عرش الدولة العثمانية ( ١٥١٢ م ) . ولذا

بدا السلطان سليم سلطنته باخماد ثورة الشيعة في آسيا الصغرى ، وانزل باتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد . فهجم الشاه اسماعيل على آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة ، واصبح العداء سافرا بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ اعاد السلطان سليم جيشا كبيرا سنة ١٥١٤ م ( ٩٢٠ هـ ) للقضاء على الشيعة ودولتهم في ايران ، وقاد هذا الجيش بنفسه ، فاستولى على ديار بكر وكرديستان ، ثم توغل شرقا في ايران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل اخيرا عند تشالديران بالقرب من تبريز في ٢٣ اغسطس من تلك السنة ، ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل . وعاد السلطان سليم الى بلاده ، بعد ان ادخل ديار بكر وكرديستان في املاك دولته .

## فتح الشام ومصر

وقعة مرج دابق بالشام :

ادى استيلاء السلطان سليم الاول على اجزاء من ايران الى امتداد املاك الدولة العثمانية الى منطقة الاطراف التابعة للدولة المملوكية المصرية ، وهي المنطقة الممتدة من وادي طوروس في الشمال الغربى من الشام الى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخضعت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دلفادر المشمول بحماية السلطنة المملوكية ، ولذا وقف من الجيش العثمانى المتوجه لحرب الصفويين موقف الحياد المسلح ، فاتهمه السلطان سليم الاول



بالعداء للعثمانيين ، وقتله واستولى على بلاده سنة ١٥١٥ م  
وبذلك اضحى العثمانيون على مقربة من الاراضى المملوكية من  
ناحية الشام ، فضلا عن استيلائهم على بلاد الأطراف التى تدين  
بشيء من التبعية لسلاطين المماليك .

واحس السلطان الغورى فى القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك  
بعد هذه الاعتداءات . فعمد الى عقد حلف مع الشاه اسماعيل  
الصفوى فى ايران لوقف التقدم العثمانى . وازداد البغض بين  
الغورى وسليم الاول ، عندما فر احد اولاد الامير احمد اخى  
السلطان سليم الى حلب ، فرارا من بطش عمه . ومن ثم اخذ  
العداء يستحكم بين السلطانين ، ويتربص كل منها بالآخر الدوائر  
فقتصوه الغورى يحقد على سليم استخفافه بحماية المماليك  
على امانة دلفادر وضمها الى املاكه دون مجاملة ، وسليم  
الاول يسيء الظن بالمماليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل ،  
وايوئهم اميرا عثمانيا يهدد العرش العثمانى .

وفى اوائل سنة ١٥١٦ م جاءت الأخبار الى القاهرة باستعداد  
العثمانيين فى القسطنطينية ( استانبول ) للحرب . وادرك الغورى  
ان الدولة المملوكية هى المقصودة بهذا الاستعداد ، واعد جيوشه  
وخرج بها الى حلب بالشام فى يوليو سنة ١٥١٦ م . ثم بعث  
رسولا الى سليم الاول يؤكد رغبته فى الصلح وعدم الحرب ،  
فرفض سليم الحديث فى الصلح وقال للرسول : « قل لاستاذك  
يلاقينا على مرج دابق » اى داخل الاراضى الشامية المملوكية

وهي عبارة تدل - أن صحت - على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التي هزمت جيوش العثمانيين داخل الاراضي العثمانية زمن السلطان قايتباي .

وسار الغورى من حلب شمالا الى عينتاب وشهد قوات العثمانيين تقترب من الاراضي المملوكية ، والتقى الجيشان في معركة حامية عند مرج دابق ( ٢٤ اغسطس سنة ١٥١٦ م ) . فعند اول اصطدام بين الفريقين فر الامير خاير بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الايسر في جيش الغورى وانضم الى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان الغورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته . واسفرت واقعة مرج دابق اخيرا عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل اسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للمماليك ان تمسكهم بالشجاعة والمهارة في الرمي بالقوس والنشاب والمزراق لا يجدى شيئا . ففرت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الاول مدينة حلب ، وقوبل بالترحاب من اهله . وفي شهر اكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها ، وبدا خضع اقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

### فتح مصر :

هزت اخبار انتصارات سليم الاول القاهرة ، حيث اقام طومانباي نائبا عن السلطان فنصوة الغورى . وراى طومانباي بعد سلطنته ان يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام ،

قبل ان يصلوا الى الاطراف المصرية ، فأرسل حملة على رأسها  
الامير جان بردى الغزالي في ديسمبر سنة ١٥١٦م للوقوف في  
وجه العثمانيين شمالي غزة ، وهو احد الامراء الذين فروا من  
مرج دابق . وخان هذا الامير ، على نحو ما فعل خاير بك ،  
فعرض جنده للهزيمة دون ان يقاتل العثمانيين قتالا جديا ،  
وبذا وصلت جنود العثمانيين الى غزة في طريقها الى مصر .  
واعد طومانباي جيشه على عجل ، وخرج الى الريدانية  
وهي الاطراف الممتدة من العباسية الى مصر الجديدة الحالية ،  
وعزم على السير من الريدانية الى الصالحية بمديرية الشرقية  
الحالية ليلتقى بالعثمانيين بعيدا عن القاهرة . غير ان امراء  
جيشه اشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية ، والترصد هناك  
للعثمانيين ، وغلبوه على امره . وفي ١٦ يناير سنة ١٥١٧م جاء  
الخبر الى الريدانية بان العثمانيين وصلوا الى العريش ، واستولوا  
عليها ، وهي اول البلاد المصرية . وتتابعت الانباء بزحفهم دون  
مقاومة حتى وصلوا الى الصالحية . عند ذلك قرر طومانباي  
السير الى الصالحية املا في مفاجاة العثمانيين قبل ان يذهب  
عنهم تعب الزحف عبر الصحراء . لكن امراء المماليك تغلبوا  
على طومانباي مرة ثانية ، وآثروا البقاء في الريدانية .

وفي ٢٢ يناير سنة ١٥١٧م نشبت المعركة بين طومانباي  
والسلطان سليم ، وحمى القتال حتى ثار الغبار وعميت الابصار .  
غير ان المعركة انتهت باندحار المماليك ، وفر طومانباي بعد ان

بقي في ميدان القتال حتى النهاية . ولم يكن ثمة مناص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخونة ، وافشاء الخطة المملوكية الى العثمانيين .

وفي ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانية الى جهة بولاق ، وجعل مقر قيادته الموضع الذي تقوم عليه المطبعة الاميرية في الوقت الحاضر . ثم دخل سليم القاهرة في اليوم التالي من باب النصر . غير ان طومانباي بغت المعسكر العثماني ذات ليلة مظلمة ، تمهيدا لمعركة اعد لها ما استطاع ان يجد من بقايا المقاومة المملوكية . لكن سليما افسد عليه خطته ، وانزل به هزيمة ، فر بعدها طومانباي الى الصعيد ، ثم اختفى عند احد شيوخ البدو بمديرية البحيرة الحالية ، وخاف هذا الشيخ مغبة اخفاء طومانباي وسلمه للعثمانيين . وفي ٢٣ ابريل سنة ١٥١٧ . اعدم العثمانيون طومانباي ، وعلقت جثته على باب زويلة .

وغدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية ، وانتقلت بذلك سيادة ملاطين المماليك على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة الى التبعية للسلطان العثماني ، واصبح الخطباء في المساجد يدعون للسلطان سليم باعتباره « مالك البرين ، وخاقان البحرين » وقاهر الجيشين وملك العراقيين وخادم الحرمين » . وللمؤرخ المعاصر ابن اياس الذي شهد هذه الحوادث عبارة تبين مدى الانقلاب الذي اصاب مصر ، وانها صارت ولاية تابعة ، بعد ان

كان سلطانها على قوله « اعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ،  
لانه خادم الحرمين الشريفين ، وحامي ملك مصر الذي افتخر به  
فرعون » .

## بعض نتائج الفتح العثماني لمصر

### انتقال الخلافة الى القسطنطينية :

ادى سقوط مصر في ايدي السلطان سليم الى انتقال الخلافة  
العباسية من القاهرة الى القسطنطينية ، عاصمة الدولة  
العثمانية . ذلك ان آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة ، وهو  
المتوكل ، انضم الى جانب السلطان سليم عقب انتصاره في وقعة  
مرج دابق ، وموت السلطان المملوكي قنصوه الغوري . ورحب  
السلطان سليم اول الامر بالخليفة ، واصطحبه معه في هجومه  
على مصر ، ليستفيد من مكانته في اكتساب المصريين . على ان  
الفرور داخل الخليفة ، واستعمل السلطات التي نالها من  
السلطان العثماني اسوا استعمال ، فأرسله السلطان سليم منفيا  
الى القسطنطينية في يونيو ١٥١٧ م .

والتواتر ان الخليفة العباسي تنازل عن منصبه للسلطان سليم ،  
واعطاه شارات الخلافة ، وهي البردة النبوية التي لبسها الخلفاء  
العباسيون في بغداد ، وبضع شعرات من لحية النبي ، وسيف  
الخليفة عمر بن الخطاب . على ان اقتران كلمة خليفة باسم  
السلطان العثماني لم تظهر رسميا في المكاتبات الرسمية للدولة

الافى القرن الثامن عشر الميلادى . واستغل السلطان عبد الحميد الاول لقب الخلافة وماله من اجلال فى العالم الاسلامى ، ليقوى مركز دولته امام القوى المسيحية الاوروبية الطامعة فى الممتلكات العثمانية .

وفى معاهدة كجق كينارجى التى أبرمت بين كترين الثانية ملكة روسيا والسلطان عبد الحميد الاول سنة ١٧٧٤ م ، اقترن اسم هذا السلطان بكلمة خليفة ، ونال حق الاشراف على شئون المسلمين فى شبه جزيرة القرم .

ثم اصبح لقب خليفة ركنا اساسيا فى الدستور العثمانى على عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى القرن التاسع عشر الميلادى . فجاء فى الفقرة الثالثة من دستور مدحت باشا الصادر فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٦ م ، أن السلطنة العثمانية هى وريشة الخلافة الاسلامية ، وانها تؤول وراثيا الى اكبر ابنا البيت المالك . ونصت الفقرة الرابعة من هذا الدستور أيضا على أن الباب العالى هو حامى حمى الدين ، باعتباره خليفة المسلمين .

سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن :

ومن النتائج الهامة التى تربت على فتح مصر أيضا اقتران اسم السلطان العثمانى بلقب « خادم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حمله من قبل سلاطين المماليك فى مصر . واعتز سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة واركانها .

ومن ثم اهتم العثمانيون بالحجاز لانها موطن الاماكن المقدسة في مكة والمدينة ، وعمدوا الى بسط سلطانهم عليها .  
ومهدت انتصارات العثمانيين السبيل لتحقيق امانهم في الاستيلاء على الحجاز . اذ ارسل شريف مكة الى السلطان سليم عقب انتصاره في مصر يعلن تبعيته له ، وسلمه مفاتيح الحرم المقدس . وصار الحجاز كذلك ولاية تابعة للسلطان العثماني .  
على ان الشريف امير مكة ظل محتفظا بمكانته الدينية ، وتمتع بحق تكوين قوات محلية من البدو وتخضع لامره .

وتابع العثمانيون بسط سيادتهم على سائر شبه جزيرة العرب ، اذ خشوا ما تعرضت له السواحل العربية من اغارات البرتغاليين الاوروبيين بعد ان هددت السفن البرتغالية بلاد اليمن وسواحل البحرين ، وبعث مشايخ العرب برسلمهم الى القسطنطينية يطلبون النجدة لوقف هذه الاغارات البحرية .

وبعث السلطان سليمان سنة ١٥٣٨ م حملة بحرية ، خرجت من موانئ مصر في البحر الاحمر ، واستولى العثمانيون على عدن ومسقط ، وحاصروا كثيرا من الجزر والموانئ التي احتلها البرتغاليون بسواحل بلاد العرب . على ان مجهودات العثمانيين البحرية عجزت عن صد البرتغاليين تماما ، ولقى اسطولهم هزيمة بحرية سنة ١٥٣٨ م . وبنا قصر العثمانيون جهودهم على اتمام فتح اليمن ، التي صارت منذئذ ولاية عثمانية .

## سيادة العثمانيين على بلاد المغرب

### اسرة برباروسا :

وبعد ان تم للسلفطان سليم فتح مصر امتد نفوذ العثمانيين الى تونس والجزائر بفضل اخوين من اسرة بحرية مشهورة يونانية الاصل . ونشأ عروج بن يعقوب مؤسس هذه الاسرة في جزيرة لسبوس اليونانية ، والتحق بالبحرية العثمانية . ولم يلبث ان تركها ، واحترف القرصنة الشائعة وقتذاك في البحر الابيض المتوسط ، واشتهر باسم برباروسا ، اى صاحب اللحية الحمراء ، واشترك مع برباروسا في اغاراته البحرية على السفن احوه خير الدين ، الذى اشتهر فيما بعد باسم برباروسا الثانى .

وامتد نشاط هذين الاخوين الى تونس والجزائر لان سلطان تونس محمد السادس الحفصى استدعى برباروسا الاول ، وعهد اليه بحكم جزيرة جربة ليجعل منها قاعدة بحرية تمنع اغارات السفن الاسانية على السواحل التونسية ، بعد ان تكررت هذه الاغارات في جرة متزايدة . واستنجدت بلاد الجزائر ببرباروسا كذلك ، ليدفع عنها اذى الاسانيين الذين استولوا على احدى الجزر الجبلية الواقعة امام مدينة الجزائر نفسها ، دون ان تتحرك اندولة المراكشية صاحبة السيادة على البلاد . فاستطاع برباروسا ان يمنع اغارات الاسبانيين على شواطئ الجزائر وبسط نفوذه على بلاد الجزائر .



### دخول اسرة برباروسا في خدمة السلطان العثماني :

وفي سنة ١٥١٨ م عين برباروسا الاول اخاه خير الدين على الجزائر ، ثم خرج هو ليمد نفوذه على منطقة تلمسان ، التي عمل الاسبانيون على احتلالها ، ولكنه قتل في احدى المعارك ، فتولى خير الدين البلاد التي خضعت لآخيه ، وعمل على اتمام رسالته في بلاد المغرب . غير ان نواب الدولة المراكشية ببلاد الجزائر ثاروا عليه ، وهددوه من كل ناحية ، فاستنجد بالسلطان سليم الذي انتهى وقتذاك من فتح مصر . واستجاب السلطان سليم لهذا النداء ، وادخل خير الدين في خدمته ، ومنحه لقب بكرك بك ، اى امير الامراء ، ثم امده بالفى جندى تركى مع مدفيعتهم ، واربعة الاف من الجند المتطوعة . وفي سنة ١٥١٩ م وطد خير الدين سلطانه في الجزائر ، وطرده الاسبانيين من معاقلهم القريبة من هذه البلاد . وفي سنة ١٥٢٤ م احتل تونس نفسها كذلك ، وادخل بلاد المغرب في التبعية للدولة العثمانية .

### فتح العراق

وفي الوقت الذى عاد فيه السلطان سليم الى بلاده بعد اتمام فتح مصر وادخال بلاد المغرب في نفوذه ، عمده الشاه اسماعيل الصفوى الى الهجوم على العراق متحديا بذلك امتداد سلطان العثمانيين الى الاطراف العراقية من ناحية الشام . فاستولى اسماعيل على بغداد ، وزار مشهد الحسين في كربلاء ، ثم عين

حاكما فارسيا اسمه ابراهيم خان على بغداد ، وعاد الى بلاده .  
وعلا شأن الايرانيين ونفوذهم في العراق ، اذ لقوا تعصيда من  
الشيعة اصحاب الكلمة العليا بين القبائل العراقية الجنوبية ،  
وجاء التجار الايرانيون الى بغداد ، مما جعل الرخاء يسود  
العراق . على ان العثمانيين خشوا ازدياد نفوذ الايرانيين  
الشيعة في العراق ، واستنكروا الاضطهاد الذي نزل باهل'  
السنة من سكان بغداد . ومن ثم اخذ السلطان سليمان العثماني  
( ١٥٢٠ م - ١٥٦٦ م ) بعد العدة للقضاء على الصفويين  
الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائيا من العراق ويؤمن اطراف  
دولته هناك .

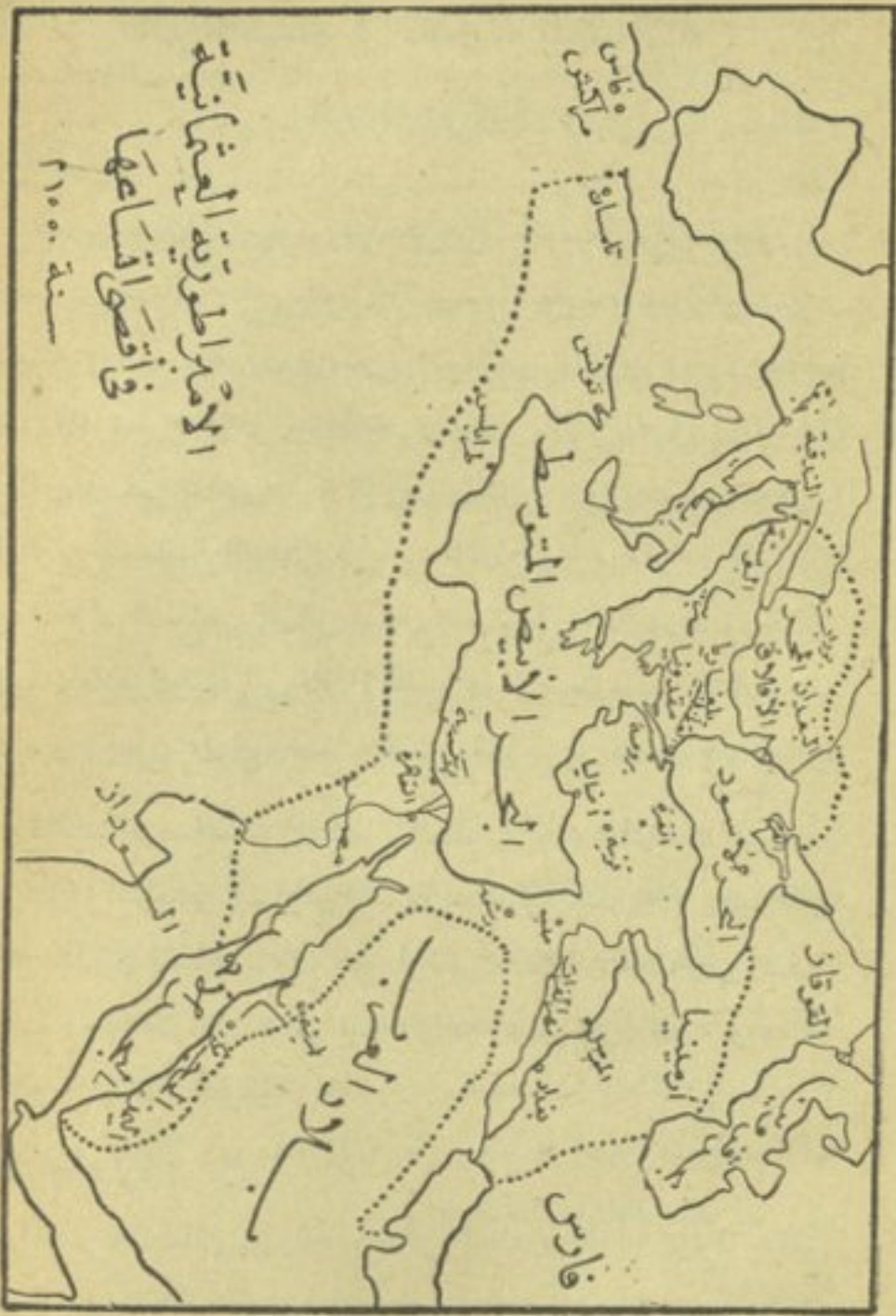
وجمع السلطان سليمان قواته في شمال ايران واعدها  
للزحف على العراق . ثم سار جنوبا عبر كردستان ليلحق  
بوزيره ابراهيم باشا الذي سبق السلطان في الاغارة على منطقة  
الموصل . ولقى السلطان سليمان متاعب جمّة في زحفه بسبب  
شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والانهاك من جنده . وبعد  
مشقة استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهول العراق ،  
ومعه فرق المدفعية العثمانية ذات الشهرة الفائقة في القرن  
السادس عشر الميلادي . ودخل سليمان بغداد دون أن يلقى  
عليها حصارا او يلقى مقاومة من اهلها . واتبع السلطان سياسة  
حكيدة ليعيد الهدوء والطمأنينة الى بغداد . فشجع كبار  
رجال المدينة على الاجتماع به ، وزار اماكن الشيعة المقدسة

في حى الكاظمية ، ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني ، واعاد  
بناء مسجد الامام ابي حنيفة الذي سبق للايرانيين ان خربوه ،  
وزخرفه بالحلى ، واصلح الجسور والقنوات لتحسين الزراعة  
والتجارة . ثم عاد السلطان سليمان الى القسطنطينية بعد ان  
ترك في بغداد حكومة عثمانية ، وغدت العراق ولاية عثمانية  
خاضعة للسلطة المركزية في القسطنطينية ، عدا سنوات قليلة  
عاد الصفويون فيها الى مدينة بغداد . ذلك ان الشاه عباس  
انتهاز اضطراب الادارة العثمانية في بغداد ، وانتشار المجاعات  
في المدينة بسبب الجفاف وسوء المحاصيل واستولى عليها  
دون عناء سنة ١٦٢١ م ، وتجد بذلك النزاع مرة اخرى بين  
الايرانيين والعثمانيين حول العراق .

ولم يستطع ولاة العثمانيين في شمال العراق استعادة  
بغداد ، فاضطر السلطان العثماني مراد الرابع ان يتولى بنفسه  
قيادة حملة الى العراق سنة ١٦٢٨ م ، وسار الى حلب على  
حين بعث المدافع على ظهور السفن في نهر دجلة . وفي طريقه  
عبر السلطان مراد نهر الزاب الاكبر ونهر الزاب الاصغر وهما  
من فروع دجلة ثم اجتاز كركوك ، وعسكر اخيرا امام  
بغداد وحاصرها حصارا شديدا وانزلت المدفعية العثمانية  
باسوار بغداد تخريبا موحشا ، ودخلت القوات العثمانية  
المدينة ، حتى لا يستطيع الايرانيون الاستيلاء عليها مرة اخرى ،  
السلطان مراد الرابع بناء مزارات السنة ، وحصن اسوار

المدينة حتى لا يستطيع الايرانيون الاستيلاء عليها مرة اخرى .  
وأصلح السلطان كذلك اسواق المدينة وحدائقها ، ونظم  
موارد تغذية اهليها .

وعين السلطان مراد الرابع على حكومة العراق حسن باشا  
احد ضباط البنى شرية ، وترك معه فرقة من الجيش . وبعد  
جولة في مدينة بغداد عاد السلطان الى القسطنطينية ، وظل  
العراق منذئذ ولاية خاضعة للسلطة العثمانية المركزية ، يديرها  
سلسلة من الباشوات الاتراك حتى ايام الحرب العالمية الاولى .



## نظم الحكم في الدولة العثمانية

### السلطة المركزية

#### السلطان :

هيمن السلطان على ممتلكاته الشاسعة وفق النظم التي اتبعتها سائر حكام الدول الاسلامية ، فهو مقيد في سلطاته بحدود القرآن والشرع الاسلامي والاجماع ، وفيما عدا ذلك فهو مصدر السلطات جميعها . وله الحق في اصدار القوانين في غير ما نص عليه القرآن والشرع ، واشتهرت مجموعة القوانين العثمانية السلطانية باسم القانونامه . و ارادة السلطان هي المحرك الاساسي لسائر اعمال الحكومة ، فالوزراء ورجال المالية وقادة الجيش وولاة الاقاليم يتولون مناصبهم بتفويض منه ، ويذهبون عنها - مهما عظمت مكانتهم - بكلمة واحدة منه .

وفاتت اختصاصات السلطان العثماني حدود الخلفاء المسلمين من قبل ، اذ اعتبر السلطان الدولة العثمانية ملكا له ، وهو الذي يتولى شئون رعيته . ولم يكن لموظفي السلطان مهمة غير تنفيذ اوامره دون اعتراض ، فلم يعد الواحد سوى كلار ، ومعناها الخادم في اللغة التركية .

#### الحكم والادارة :

واختار السلطان وزراءه وسائر الموظفين الذين تولوا مرافق الدولة وفق نظام دقيق املته طبيعة العثمانيين الحربية ، فلم يعرف آل عثمان من المؤهلات لوظائف الدولة سوى المقدرة

الشخصية والقوة الجسمية والطلعة الحسنة . ودأب العثمانيون على جميع ابناء المسيحيين من رعاياهم كل اربع سنوات ، وبعثوا الموظفين المكلفين بذلك ، وهم المعروفون باسم دوشرمة ، الى بلاد البلقان والمجرو وسواحل آسيا الصغرى الغربية وسواحل البحر الاسود الجنوبية والشرقية ، فيجمع اولئك الموظفون اقوياء الاطفال واحسنهم طلعة ، فيما بين العاشرة والعشرين . ثم يقسم اولئك الصغار الى قسمين ، فيدخل واحد من كل عشرة تقريبا في القسم الاول ، المعروف باسم غلمان الخاصة « انشى اوغلان » ، بعد اختبار في الجسم والذكاء والطلعة ، وتدخل البقية في المجموعة المعروفة باسم الغلمان الاجانب « آجم اوغلان » ، وهم الذين يصبحتون فرقة الينى شرية من الجيش العثماني

ويذهب افراد القسم الاول الى قصور السلطان او بيوت الحكام الكبار ، حيث يتعلمون الدين الاسلامى واللغة التركية وفنون الفروسية واللغة العربية كذلك . وفي سن الخامسة والعشرين يتلقى اولئك الشبان التدريب العسكرى ، ويلحقون بعد ذلك بالوظائف المختلفة . وبسبب عدم الفصل بين السلطات المدنية والحربية تدرج اولئك الشبان بين مراتب الادارة والجيش لا فرق في ذلك بين صغارهم وكبارهم . وهكذا وجد السلطان اداة مدربة ، معدة لتنفيذ اوامره في الشؤون المدنية والحربية على يد هذه الطائفة المختارة .

### الوزراء :

واستعان السلطان العثماني في تصريف شئون الدولة

بمجموعة من الوزراء . اذ تولى اولئك الوزراء تزويد السلطان  
بالارشادات والآراء زمن الحرب والسلم ، فضلا عن الادارة  
وشئون الحكم . وانعم السلطان على كل من الوزراء بلقب  
باشا ، وزاد عليهم رئيس الوزراء بلقب الصدر الاعظم . وتحمل رئيس  
الوزراء اعباء الدولة نيابة عن السلطان ، فهو يمثل السلطان في  
ادارة الشؤون الحربية والمدنية ، وفي الفصل في المنازعات ، وهو  
الذى يعين كبار الموظفين في الدولة كذلك .

وحمل الصدر الاعظم خاتم الدولة ، واشرف على العاصمة  
العثمانية واسواقها ، وامتاز عن سائر الوزراء بالخروج في موكب  
من حرس السلطان الخاص عند ذهابه الى الديوان . على ان  
منصب الصدر الاعظم رغم علو شأنه لم يعط صاحبه حقوقا  
تجعله بئامن من العزل ، فللسلطان الحق في عزله في اى وقت ،  
وذلك باسترداد خاتم الدولة منه . ثم لم يلبث هذا المنصب  
ان ازداد قوة وخطورة ، بسبب ضعف السلاطين ، فاتخذ  
الصدر الاعظم مقرا خاصا به ، بعد ان جرى العرف مدة على  
ذهابه الى قصر السلطان لسماع الأوامر السلطانية . واستقر  
ذلك التطور سنة ١٦٥٤ م حين أصدر السلطان محمد الرابع  
امرا سلطانيا باطلاق اسم باب الباشا على مقر الصدر الاعظم .  
ولم يكن هذا المقر العظيم سكنا خاصا فحسب ، بل اصبح دارا  
ياتى اليها موظفو الدولة لتصرف اعمالهم .

وجرى المصطلح في الدولة العثمانية على تسمية الوزراء باسم



وزراء القبة نسبة الى طوب قبو سراى ، وهو أحد قصور الباب العالى ، لانهم عقدوا اجتماعاتهم فى غرفة ذات قبة بذلك القصر . واختلف عدد الوزراء كثرة وقلة حسب مهام الدولة ، وتولى اولئك الوزراء احيانا الحملات الحربية ، واطلق على من تولى منهم حملة صغيرة اسم سردار . وعندما خرج الصدر الاعظم فى حملة حربية او غاب عن البلاد ، حل احد اولئك الوزراء محله ، ويعرف باسم قائم مقام . ثم لم يلبث اسم قائم مقام للصدر الاعظم ان اصبح منصبا دائما فى الدولة زمن السلم والحرب على السواء .

#### رئيس الكتاب والدفتردار :

وساعد الصدر الاعظم والوزراء فى الادارة فئة من الموظفين الاداريين على راسهم رئيس الكتاب ، وفئة من الموظفين الماليين على راسهم الدفتردار . وتولى رئيس الكتاب تنظيم علاقة الدولة بجيرانها من الدول الاخرى ، واعداد التقارير التى يرفعها الصدر الاعظم للسلطان . واصدار الفرمانات الى الولايات العثمانية . وفى هذه دلالة على ان رئيس الكتاب قام بما تقوم به وزارتا الخارجية والداخلية فى الدولة الحديثة .

وتولى الدفتردار الاشراف على مالية الدولة ، وهو يلى الصدر الاعظم فى الرتبة ، ويقف من رئيس الكتاب على قدم المساواة . وله الحق فى مقابلة السلطان مباشرة لعرض المسائل الخاصة بالميزانية . واشتملت الدفترخاناه على خمس وعشرين قسما او قلما منها :

١ - قلم بويوق روزمانه ، وهو قلم الادارة المركزية التي تانى اليها التقارير من الأقسام الأخرى ، وعليه اعداد ميزانية الدولة سنويا او كل سنتين .

٢ - قلم الباشمحاب ، وهو رئيس الادارة التي تعد التقارير الخاصة بالضرائب المطلوبة من الولايات ، ويتولى القلم تسجيل العقود التي تخص الصالح العام للدولة .

### الديوان :

واشتمل هذا الديوان على جميع وزراء القبة وغيرهم من كبار موظفي الدولة ، عند طلب المشورة في شئون البلاد العامة . ومنذ عهد السلطان محمد الثانى ( سنة ١٤٥١ م ) تولى الصدر الاعظم رئاسة جلسات الديوان . وحضر هذه الجلسات الدفتردار وقاضى العسكر واغا البنى شرية وامير البحر .

وعقد الديوان اجتماعاته اربع مرات فى الاسبوع ، أيام السبت والاحد والاثنين والثلاثاء . واعتادت هذه الجلسات أن تتعقد فى الصباح ولا تنتهى الا فى ساعة متأخرة من الليل . وعند انتهاء الاجتماعات الاسبوعية يستقبل السلطان الأعضاء ليعرف آراءهم وما اتخذوه من قرارات .

### الجيش :

بدأت الدولة العثمانية دولة عسكرية هدفها الأول التوسع والفتح ، ولا هم للسلطة المركزية الا تأمين البلاد داخليا ليتفرغ الجيش للقتال . واستمدت الدولة اهم فرقها الحربية من المنبع الذى استمدت منه حكام الادارات والولايات .

فبعد تقسيم الاطفال المسيحيين واختيار احسنهم بنية ،  
يبدأ الباكون المعروفون باسم « آجم أوغلان » أو الفلمان الاجانب  
التدريب الخاص باعدادهم لتكوين فرق الجيش ، وهى الفرق  
الحربية التى اطلق عليها اسم الينى شرية .

ولقى هذا النظام الحربى عناية فائقة من السلطة المركزية منذ عهد  
السلطان اورخان ، المؤسس الاول للينى شرية . وبدأت قوة هذه الفرق  
تعلو منذ عهد السلطان سليم الاول ، وتدخل فى تولى الوزراء وعزلهم  
وحوالى نهاية القرن السادس عشر سمحت الدولة لافراد الينى  
شرية بالزواج ، فكثر اعدادهم ؛ وبدأ الوهن يمتد الى صفوفهم ؛  
حتى أصبح الابناء يرثون مراكز آبائهم وامنياراتهم دون القيام  
بالخدمات المطلوبة .

### السباهى :

وتأتى فرق الخيالة المعروفة باسم السباهى فى المرتبة التالية  
للينى شرية ، ونظم العثمانيون هذه الفرق على اسس اقطاعية .  
فمنحوا الجنود الممتازين من العثمانيين وغيرهم اقطاعات من  
الارض مقابل تأديتهم الخدمات الحربية . والتعهد بامداد الجيش  
كذلك بعدد من الفرسان بكامل عتادهم . وتفاوتت الاقطاعات  
والتزاماتها ، فالاقطاع الصغير يطلق عليه اسم « تيمار » والكبير  
يعرف باسم « زعامت » . واستطاعت الدولة العثمانية أن تستمد  
من هذه الاقطاعات فرقا كبيرة من الجيش . فجاء من اقطاعات  
العثمانيين فى اوروبا على عهد سليمان الاول ثمانين الف فارس ،  
ومن آسيا خمسين الفا .

وتولى قادة فرق السباهى بعض ادارات الدولة وولاياتها .  
ونظم السلطان سليمان القانونى شئون هذه الاقطاعات بعد  
ان تفشت بين اصحابها روح التهرب من اداء الالتزامات الحربية  
والاستقلال بامورهم . فحرم على اصحاب الاقطاعات التصرف  
فى اراضيهم او السماح لابنائهم بأن يرثوا الاقطاعات دون موافقة  
السلطان ، وجعل الوفاء بالالتزامات الحربية الشرط الاساسى  
لاحتفاظ الملاك بأراضيهم .

#### الأسطول :

واهتم العثمانيون بانشاء أسطول يؤازر حركات جيوشهم .  
فاكثر السلطان سليم من بناء السفن حتى اضحى للدولة العثمانية  
اسطول حربى كبير . واستمد العثمانيون الاخشاب اللازمة  
لبناء السفن من اراضى الغابات الواقعة حول شواطئ البحر  
الاسود ، على حين زودت مناجم البغدان والانلاق وآسيا  
الصفرى مصانع الدولة بما احتاجته من المعادن اللازمة لبناء  
السفن .

وملأت الدولة العثمانية اساطيلها فى بادىء الامر بالجند  
المرتزقة من الايطاليين واليونانيين ، الذين دخلوا فى خدمتها جريا  
وراء المغانم ، وعملوا احيانا على استمرار هذه الحروب طمعا فى  
بقاء خدمتهم . ثم قسم العثمانيون دولتهم الى مناطق . لكل  
منها نصيب معين فى تزويد السفن بالبحارة . لكن لم يبلغ  
الاسطول العثمانى درجة القوة التى بلغها الجيش ، اذ سرعان

ماترك الناس خدمة الاسطول ، وفضلوا نظام « البديل » ودفع المال ليحصلوا على الاعفاء من الخدمة البحرية ، لان الدولة ظلت برية لا بحرية . على ان قائد الاسطول تمتع بسلطات واسعة في الادارة المركزية ، فاشترك في جلسات الديوان ، وفي توجيه سياسة الدولة .

### القضاء ورجال الدين :

وساعد السلطان في شئون الحكم والادارة بالعاصمة العثمانية شيخ الاسلام ، الذي يعينه السلطان من طبقة العلماء . وحرص السلاطين على كسب تأييد شيخ الاسلام في جميع الاعمال المدنية والحربية ، فمهمة شيخ الاسلام مراعاة اتفاق اعمال الحكومة ومشروعاتها مع نصوص القرآن واحكامه ، ولم تقض الحكومة في اى عمل من الاعمال الكبرى ، او تبرم معاهدة او تعلن حربا الا بعد الحصول على موافقة شيخ الاسلام . وخضعت الهيئات القضائية كذلك لاشراف شيخ الاسلام . وقضاة العاصمة والاقاليم يتلقون منه الفتاوى والتعليمات ، فيما ليس منصوصا عليه في القرآن والسنة واجماع الفقهاء . ولا يجرؤ قاض مهما علت منزلته في مراتب القضاء على ان يعصى اوامر شيخ الاسلام .

### الحكم العثماني في الولايات

#### نظام تقسيم الدولة العثمانية :

قسم العثمانيون دولتهم الواسعة الى مناطق ادارية ليسهل الاشراف عليها وحكمها ، وتطور هذا التقسيم مع نمو الدولة

وفتوحاتها . فانقسمت ممتلكات العثمانيين اول الامر الى مناطق اطلق عليها اسم صنجقيات او لواءات للتمييز بين عمالها وعمال الحكومة المركزية ، فتولى كل منطقة حاكم يعرف باسم صنجق بيك ، او مير لواء . واشرف على بكوات هذه الصناجق حاکمان يعرف كل منهما باسم « بکلربک » ، أحدهما لمقاطعات الاناضول ، والآخر لمقاطعات أوروبا ، وذلك قبل أن يمتد حكم العثمانيين الى الشرق الأوسط العربي . وحمل كل من هذين الحاكمين كذلك لقب باشا ، الذي يبدو انه مشتق من كلمة بادشاه الفارسية ، ومعناها خادم السلطان .

غير أن اتساع الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر الميلادي أدى الى ضم بعض الصناجق ، وخلق ولايات جديدة يتولى ادارتها باشوات من وزراء السلطان غالبا . وسارت ادارة هذه الولايات وفق نظم الحكومة المركزية ، لكل هيئة منها اختصاصها وسلطانها . وغدت الادارة المحلية على النحو الآتي :

### الباشا :

① وهو نائب السلطان ، ورأس الادارة العثمانية المحلية . ووظيفته تطبيق قواعد الحكم العثماني ، فيتلقي أوامر السلطان ، ويرسل الى الخزانة المال السنوي المفروض على الولاية ، دون تدخل الحكومة المركزية في طرق جبايتها . ويتولى الباشا كذلك رئاسة ديوان الولاية ، الذي يساعده في الحكم . وهو يعين

الصناجق ويعزلهم بعد اخذ رأى الديوان وموافقة السلطان .  
ويساعد الباشا وكيل يعرف باسم « الكتخدا » ، يتغير مع  
تغير الباشا . ومهمة الكتخدا التوقيع نيابة عن الباشا اثناء  
غيبابه ، وتصريف بعض شئون الولاية . وتراوحت مدة حكم  
الباشا بين سنة وثلاث سنوات . ورمى السلطان الى عدم اطالة  
بقاء الولاة ، للقضاء على الحركات الانفصالية ، التى يحتمل ان تجيش  
بنفوس الولاة ، والعمل على الاستقلال بالبلاد التى يتولون ادارتها .

#### ديوان الباشا :

وحكم الباشا فى ولايته عن طريق مجلس يعرف بالديوان .  
ويضم هذا الديوان كبار موظفى الولاية من مدنيين وعسكريين  
وكذلك القضاة والصناجق ، وهم حكام الاقاليم ، اى ان  
هذا الديوان انشبه ما يكون بالديوان العظام فى  
القسطنطينية . ويدعو الباشا هذا الديوان الى الاجتماع اربع  
مرات فى الاسبوع غالبا ، ومهمته النظر فى الشئون المالية للولاية ،  
مثل فرض الضرائب ، وبحث الشكاوى القضائية او الادارية ،  
ولم يستطع الباشا تنفيذ اى عمل من الاعمال الهامة دون  
استشارة الديوان والحصول على موافقته .

#### الصناجق والكشاف :

وتولى اقسام الولاية - اى الصنجقيات - حكام برتبة  
بك او مير لواء . وجاء بعض هؤلاء الحكام من اهل الولاية ،  
وذلك لتسهيل الادارة ومراقبة الباشا ايضا حتى لا يستقل

بشؤون البلاد . وساعد الصناجق في أعمالهم طقة الكشاف ،  
ومهمتهم ادارة المقاطعات في غياب الصناجق ، والمحافظة على الامن  
فيها وجمع الاموال الاميرية .

#### الحامية العثمانية :

واستقرت في كل ولاية حامية من الجيش العثماني ، مهمتها  
مساعدة الباشا والصناجق في توطيد الحكم العثماني . واسمهم  
قادة الحاميات العثمانية في مساعدة الباشا في تنفيذ الاوامر  
الصادرة اليه من القسطنطينية ، وفي جمع الاموال الاميرية .  
واشتملت الحامية غالبا على فرق اسمها الاوجاقات ، لكل منها  
اختصاصها الحربى في الدفاع عن البلاد ، والمساعدة في تصريف  
الشؤون المدنية كذلك .

#### ديوان الدفتردار في الولايات العثمانية :

وتولى الدفتردار الادارة المالية في الولاية . وتمتع باختصاصات  
واسعة ، منها جمع المال المطلوب من الولاية ، وارساله الى  
القسطنطينية ، ومراقبة الاقطاعات التي تمنح للجند ، ومحاسبة  
الباشا في آخر مدة ولايته . وساعد الدفتردار في اعماله ديوان  
الروزنامه الخاص بتسجيل الحسابات في الدفاتر الرسمية .  
وانقسم ديوان الروزنامه في الولاية الى عدة اقسام ، يرأس كل منها  
موظف يحمل لقب افندى . فتولى واحد منها تسجيل الفلالم  
المطلوبة من البلاد ، وتولى قلم آخر تدوين المقررات اللازمة للجند من



الاغذية والمرتببات الى غير ذلك من النواحي التي تطلبها المسائل المالية .

### القضاء :

وتولى قاضي العسكر في الولاية تنفيذ القانون ، ومراقبة العمال كذلك . وترجع هذه التسمية الى اتخاذ السلطان قاض معه في حروبه ليفصل في المنازعات التي تنشأ بين الجند . ثم دأبت السلطات المركزية على تعيين قاض في كل ولاية ، للاشراف على المسائل القضائية الخاصة بالجند . ولكن سلطة قاضي العسكر لم تلبث ان تناولت المسائل الجنائية والمدنية لاهالي الولاية انفسهم ، فاصبح قاضي العسكر يعين القضاة في سائر الولاية ، وينظر في المسائل التي تستعصى عليهم . واشترك قاضي العسكر كذلك في حضور جلسات ديوان الباشا ، ومراقبة العمال في الولاية ومدى التزامهم لاحكام الشريعة في اعمالهم . وانطبقت هذه النظم عموما على مصر وغيرها من الولايات التزامهم لاحكام الشريعة في اعمالهم .

## الحركات القومية قبل القرن التاسع عشر

### انحلال الادارة الحكومية في الدولة العثمانية :

احتفظت الدولة العثمانية بممتلكاتها الواسعة في البلقان والاناضول ومصر والشام والعراق ، وظلت سيادتها ماثلة واضحة في شبه جزيرة العرب وشمال افريقيا ، حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي . لكن الحكومة المركزية في استانبول بدأت تهمل

ادارة هذه البلاد الشاسعة ، بسبب الضعف الذى طرا على سلسلة من السلاطين الذين تولوا عرش الدولة ، وانتشار الفساد بين فرق الينى شرية والسباهية من الجيش . ذلك ان العرش العثمانى اعتراه عدد من السلاطين لم يكن لهم عمل غير الانغماس فى حياة القصور من الحريم والجوارى والدسائس ، مما ادى الى ترك شئون الدولة للوزراء فى العاصمة ، وللولاة فى الاقاليم . ثم ان جند الينى شرية اخذوا يتخلون عن تقاليدهم الحربية بانصرافهم الى الزواج ، وجمع المال ، وغدت فرقهم فى الولايات نموذجا سيئا للجشع والتدهور الخلقى .

لذا اصبح القرن الثامن عشر فى تاريخ الدولة العثمانية نقطة التحول . اذ توقفت عمليات الفتح والتوسع ، وتحولت الدولة من حالة الهجوم المتصل فى مختلف الجهات الى الدفاع عن كيانها واملاكها . ومن طلائع ذلك ما قامت به روسيا التى ادعت لنفسها مركز الصدارة فى عالم المسيحية بشرق اوروبا ، منذ استيلاء العثمانيين المسلمين على القسطنطينية ، التى عرفها التاريخ احيانا باسم روما الثانية . فاعتبرت روسيا نفسها وريثة مجد القسطنطينية ، واطلقت على عاصمتها موسكو اسم روما الثالثة . ثم عمدت الى تقليد اظافر العثمانيين فى ولاياتهم البلقانية ، واثارة القلاقل والفتن فى مختلف ممتلكاتها الاخرى .

ثم تطلعت بعض الدول الاوروبية التى اصابها حفا وافرا من التقدم العلمى والاقتصادى الى حماية مصالحها فى بلاد الدولة

العثمانية . فأخذت تتنافس في الحصول على امتيازات اقتصادية وسياسية في هذه البلاد ، كما أخذت تفكر في تكوين امبراطوريات لها على حساب العثمانيين ، وغيرهم من امم الشرق الاوسط والاقصى . وعمدت هذه الدول ، وهي البرتغال وهولندا وانجلترا وفرنسا ، الى اثارة الفتن بين اهالى الولايات ، وبث السخط على الحكومة العثمانية المركزية بينهم ، لنيل مطالبهم في سهولة ويسر دون قيد من السلطان وحكومته في العاصمة . واجتمعت هذه العوامل مع ازدياد شعور اهالى الولايات بسوء الادارة العثمانية ، فقامت حركات قومية عديدة ، اهمها حركة على بك الكبير في مصر ، والشيخ زاهر العمر في الشام ، والثورة الوهابية في بلاد العرب ، وعلى باشا في البانيا ، وحركة اليونانيين في البلقان .

### استقلال على بك الكبير بمصر :

وضع اضطراب الادارة العثمانية في مصر في القرن الثامن عشر الميلادى باختلال التوازن بين مصادر السلطة والحكم والادارة والنفوذ في الولاية . ذلك ان الدولة العثمانية قسفت السلطة في مصر بين والى العثماني ، والحامية العثمانية ، والماليك اصحاب البلاد قبل الفتح العثماني لمصر ، اذ رأت السلطات العثمانية المركزية عدم القضاء نهائيا على قوة الماليك الحربية ، واستخدمت الماليك في حكم مصر والدفاع عنها ، وجعلتهم عنصر موازنة بين والى ورجال الحامية العثمانية . فتولى امراء الماليك ادارة مقاطعات مصر المعروفة باسم الصناجق ، واشتهر زعيم اولئك الماليك باسم

شيخ البلد ، ومقره القاهرة ، وبعد ثانی شخصية في مصر بعد  
الوالی او الباشا العثماني . وقام شيخ البلد بمهام الباشا عند  
خلعه وتصريف شئون البلاد حتى يأتي الباشا الجديد .

واستطاع احد اولئك الزعماء المماليك ، وهو على بك الكبير ،  
ان يقوم بالحركة الاولى الانفصالية في الدولة العثمانية . وهو  
مسيحي الاصل من جورجيا القريبة من روسيا ، اذ خطف من  
اهله ، وبيع في سوق الرقيق بالقسطنطينية . ثم جاء الى مصر  
حيث اشتراه ابراهيم كتحذا احد امراء المماليك في مصر ( ١٧٤٤ -  
١٧٥٤ م ) . وامتاز على بك بقوة الشخصية ، واشتهر بالطموح  
الواسع . فتطلع الى اعادة مجد سلاطين المماليك ، والاستقلال  
بمصر ، واستطاع ان يتغلب على منافسيه من امراء المماليك ،  
وان يتولى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ م .

وبدأت الفرصة سانحة امام على بك للاستقلال بمصر عندما  
اشتبكت الدولة العثمانية في حرب مع روسيا سنة ١٧٦٩ م ،  
اذ ارسل السلطان العثماني الى على بك يطلب منه اعداد بعض  
الفرق الحربية للاشتراك في الحرب . غير ان اعداء على بك اتهموه  
لدى السلطان بعدم الاخلاص ، وانه يعد القوة الحربية للخروج عن  
طاعة الدولة ، فاصدر السلطان فرمانا بعزله عن مشيخة البلد ،  
وهي وظيفته الرسمية . ولم يقبل على بك الخضوع لقرار  
السلطان ، واعلن استقلاله بمصر .

وتوجهت هممة على بك بعد ذلك نحو الفتوحات في

الخارج لينشئ الدولة المستقلة التي تطلع الى تحقيقها ، ويعيد مجد السلطنة المملوكية بالقاهرة . وسنحت له الفرصة سنة ١٧٦٩ ، للاتجاه الى الحجاز عند ما وفد اليه الشريف عبد الله أمير مكة يطلب منه النجدة ضد بعض منافسيه من رؤساء العرب المحليين . وفي سنة ١٧٧٠ م اعد على بك حملة كبيرة ، عهد بقيادتها الى محمد بك ابى الذهب . وأبحرت الحملة من القلزم (السويس) ، ونزلت في ينبع بالحجاز . وانتصرت قوات محمد ابو الذهب ، واستولت على مكة ، وغدا الحجاز تابعا لمصر .

وتطلع على بك بعد ذلك الى الشام ، ودخل في مفاوضات مع الشيخ « ضاهر العمر » حاكم عكا ، وارسل الى روسيا المشتبكة اذ ذاك في حرب مع الدولة العثمانية - للحصول على مساعدتها في هجومه على الشام . وتذرع على بك في تدبير هجومه على الشام بأن عثمان باشا والى دمشق ادى بعض المصريين الفارين عنده ، وامتنع عن تسليمهم له . وفي سنة ١٧٧١ م ارسل على بك قائده محمد ابو الذهب على رأس جيش الى الشام ، واستطاع ابو الذهب ان يستولى على دمشق اواسط هذه السنة ، وتحقق حلم على بك الكبير .

على ان السلطان العثماني عمدا الى الدس والخديعة ، فاستمال اليه ابا الذهب واغراه بمحاربة على بك الكبير . فعاد ابو الذهب الى مصر ومعه معظم الجيش ، وهزم قوات على بك واستولى على مصر . وفر على بك الى الشام والتجأ

الى صديقه ضاهر العمر في ابريل سنة ١٧٧٢ م . ثم اعد  
على بك حملة عاد بها الى مصر لمحاربة ابي الذهب . لكنه هزم  
عند الصالحية واخذ اسيرا الى القاهرة ، حيث مات متأثرا  
بجراحه في مايو سنة ١٧٧٣ م . وبذلك عادت مصر الى سيادة  
العثمانيين ، حتى انتزعتها الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت  
سنة ١٧٩٨ م من مراد بك وابراهيم بك زعيمى المماليك  
في مصر وقتذاك .

#### استقلال الشيخ ضاهر العمر بالشام :

عاصر حركة على بك الكبير واستقلاله بمصر خروج ضاهر  
العمر شيخ قبائل صفد بالشام على الدولة العثمانية . اذ ساءت  
مفاسد العثمانيين وولاتهم في الشام ، فاستولى على عكا وجعلها  
قاعدة لمشروع الاستقلال لتلك البلاد . وبدا ضاهر العمر  
بتحصين عكا ، ثم اصلح قلعتى طبرية وصفد ، واستمال اليه  
شيوخ قبائل العرب الشاميين في المناطق المجاورة له بفضل  
سيرته الحسنة .

وانتهز ضاهر العمر كذلك نشوب الحرب بين العثمانيين  
وروسيا ، وساعد على بك الكبير في التخلص من حاكم دمشق  
العثمانى . وعند ما انقلب ابو الذهب الى خدمة السلطنة  
العثمانية وتوجه الى مصر لحرب على بك ، اصبح الشيخ  
ضاهر وحده في اقليم الشام . فحاول السلطان اثاره حكام  
صيدا وبيروت على الشيخ ضاهر ، لكنه استنجد بروسيا

التي بعثت بعض سفنها الحربية فضربت صيدا وبيروت  
بقنابل مدافعها البحرية . وبذلك توطد مركز الشيخ ظاهر ،  
وامتد سلطانه حتى اشتمل على اكثر اقاليم فلسطين وجزء  
من لبنان ، ودخلت في حوزته صيدا وعكا وحيفا ونابلس وصفد  
ويافا والرملة ، كما استولى على كثير من القلاع والاماكن  
الخصيبة في شمال الشام .

لكن الدولة العثمانية لم تلبث ان استعانت بمحمد ابي الذهب  
للقضاء على الشيخ ظاهر ، واغرته بتنصيبه كذلك واليا على  
الشام ، بعد ان صار واليا على مصر بعد على بك الكبير . وفي  
سنة ١٧٧٥ م سار ابو الذهب على رأس حملة كبيرة الى الشام ،  
فاستولى على يافا ، وانزل باهلها مذبحه ، زحف على عكا ،  
ودخلها بعد ان ارتكب بها كثيرا من الفظائع . ثم توفي ابو الذهب ،  
وتولت الدولة العثمانية القضاء على البقية الباقية  
من قوة هذا الرجل العنيد ، الذي احتل عكا مرة ثانية .  
فارسلت القبطان حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٧٥ م لحصار  
عكا ، وظلت مراكب الاسطول العثماني تضرب المدينة اربعة  
ايام ، حتى هرب منها الشيخ ظاهر ، واغتاله احد جنده وهو  
في طريق الهرب . وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الذي ظل  
يتحدى الدولة العثمانية سبع سنوات متتالية .

### الحركة الوهابية في بلاد العرب :

وظهرت اثناء هذه الحركات القومية في مصر والشام دعوة

دينية في شبه جزيرة العرب ، تهدف الى الاستقلال بالبلاد  
واصلاح شئونها ، وعرفت هذه الدعوة باسم الحركة الوهابية ،  
نسبة الى زعيمها المصلح محمد بن عبد الوهاب ( ١٧٠٣ -  
١٧٩١ م ) . ونشأ هذا المصلح في بلدة العيينة في نجد ، ودرس  
الفقه على مذهب الحنابلة ، ثم سافر الى المدينة بالحجاز  
ليواصل دراسته ، وطوف في كثير من بلاد العالم الاسلامي ،  
فاقام نحو اربع سنوات في البصرة ، وخمس سنين في بغداد ،  
وسنة في كردستان ، وسنتين في همذان . ثم رحل محمد  
ابن عبد الوهاب الى اصفهان ، ودرس هناك فلسفة الاشراق  
والتصوف ، وعاد الى بلده اخيرا ، حيث اعتكف عن الناس نحو  
ثمانية أشهر ، وخرج عليهم بدعوته الاصلاحية .

وجاءت دعوته الاصلاحية الجديدة نتيجة لاحساسه بخطر  
المفاسد والبدع التي تفتت بين المسلمين في مختلف البلاد التي  
زارها ، فدعا الى ازالة البدع والتوجه بالعبادة والدعاء الى الله  
وحده ، لا الى المشايخ والاولياء والاضرحة . وتأثر محمد بن عبد  
الوهاب في آرائه بمذهب الفقيه ابن تيمية ، اذ درس مؤلفاته ،  
واعجب بما فيها من حرية الفكر في حدود الكتاب والسنة ، وما  
تنطوى عليه من دعوة الى مهاجمة المتصوفة وعدم زيارة القبور  
والاضرحة وهدمها .

وحول محمد بن عبد الوهاب مبادئ ابن تيمية الى برنامج  
سياسي ، لانه ادرك ان لا نجاح لآرائه مادام سكان بلاد العرب



خاضعين للدولة العثمانية ، التي امتت تعد كل اصلاح خطرا على كيانها . وعرف محمد بن عبد الوهاب كذلك انه لا بد من سند سياسى يعزز دعوته الاصلاحية الدينية ، لان النظريات لا تنتصر بقوتها الروحية فحسب ، بل بما يؤيدها من قوة عسكرية سياسية كذلك .

وبدت بلاد العرب ، عندما نادى محمد بن عبد الوهاب بدعوته ، اشبه شىء بحالتها زمن الجاهلية ، تتنازع القبائل فيما بينها وتسود البغضاء بين شيوخها وامرائها . واضطهد امير العيينة محمد بن عبد الوهاب ، فانتقل الى الدرعية حيث عرض مذهبه على اميرها محمد بن سعود ، فقبل هذا الامير الدعوة الوهابية وتعاهد مع زعيمها على العمل لنصرة الدين الحق . واوفى ابن سعود بعهده ، حتى اذا توفى سنة ١٧٦٦ م تولى ابنه عبد العزيز متابعة العمل فى سبيل الدعوة الوهابية ، فضم عبد العزيز الى نفوذه اولا اقليم نجد . وهو الموطن الاصلى للدعوة الوهابية ، واصبحت الدولة السعودية الوهابية سنة ١٧٩٠ م اقوى دولة فى قلب بلاد العرب . وفى سنة ١٧٩٣ م تطلع عبد العزيز الى التوسع ، فاستولى على الاحساء واخذ يغير على اطراف العراق والشام .

وخاف امير مكة التابع للدولة العثمانية من قوة الوهابيين الجديدة فى بلاد العرب ، ولا سيما ان الدولة العثمانية عجزت عن مواجهتها ، اذ انصرف العثمانيون وقتذاكالى حروبهم ضد روسيا التى انزلت بجيوشهم هزائم متتالية . فاشتد ايمان الوهابيين

بأنفسهم حين ترامت اليهم انباء هزيمة الدولة العثمانية امام القوى الروسية المسيحية ، ورضاء الباب العالي بالخضوع لمطالب هذه الدولة . ونسب الوهابيون هزائم العثمانيين الى تهاونهم في شئون الدين ، وانصرافهم الى ملذاتهم وشهواتهم الخاصة .

وجهدت الدولة العثمانية عبثا في القرن الثامن عشر الميلادي في القضاء على الوهابيين ، بتأليب الشريف العربي والى مكة والباشا العثماني حاكم بغداد على عبد العزيز آل سعود . فسار غالب شريف مكة سنة ١٧٩٧م على رأس حملة لحرب الوهابيين ، فانهمزم هزيمة فادحة ، اضطر بعدها الى التقهقر ، وسمح والى مكة للوهابيين بالحج الى الكعبة .

وفي العام التالي ، اي سنة ١٧٩٨م ، أعد سليمان باشا والى بغداد حملة كبيرة ارسلها بقيادة وكيله ، الكخيا على باشا ، لحرب عبد العزيز آل سعود ، فلقيت الحملة احوالا جسيمة في الصحراء ، من العواصف والظما والجوع وغارات البدو المفاجئة ، واضطر جيش العراق الى العودة الى بغداد سنة ١٧٩٩م .

وبلغت قوة الوهابيين اقصاها ، وتلاشت سلطة العثمانيين في شبه جزيرة العرب . وبدأ الوهابيون في مطالع القرن التاسع عشر ينشرون دعوتهم خارج بلاد العرب نفسها . لكن الدولة العثمانية عمدت الى استرداد نفوذها في الحجاز ، لان بقاء هذه البلاد في يد السلطان ضروري لتدعيم اللقب الذي يحمله وهو

« حامى الحرمين » واتخاذه لنفسه لقب خليفة المسلمين .  
ووجد السلطان العثماني في محمد علي والى مصر عضدا في  
استرداد الحجاز ، فاصطدمت مبادئ الدعوة الوهابية بالاطماع  
السياسية التي نشأت في نفس محمد علي ، ورغبته في تأسيس  
دولة اسلامية خاضعة له .

وبعث محمد علي حملة بقيادة ابنه طوسون نزلت في ينبع  
سنة ١٨١٢ م ، وانتصرت على الوهابيين . ثم بعث محمد علي  
امدادا الى ابنه طوسون ، استطاع ان يستولى بها على جدة ومكة  
والطائف . واخيرا ارسل محمد علي ابنه ابراهيم كذلك الى  
الحجاز ، واستطاع ابراهيم ان يستولى على الدرعية في ابريل  
سنة ١٨١٨ م ، ويأسر عبد الله قائد الوهابيين . ثم بعث به الى  
القاهرة حيث نقل منها الى القسطنطينية . وهناك اعدم  
العثمانيون عبد الله ، وبسطوا سلطانهم مرة اخرى على بلاد  
العرب . غير ان الدولة السعودية الوهابية نهضت مرة اخرى  
في القرن العشرين ، بفضل جهود الملك عبد العزيز بن سعود  
الذي اشتهر باسم طويل العمر ، وهو ابو سعود ملك الوهابيين  
في الوقت الحاضر .

### الحركات القومية في البلقان :

اتفقت بلاد البلقان مع البلاد العربية في سخطها على الحكم  
العثماني ، وانتعشت الحركات القومية بين شعوب البلقان منذ

اواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، بسبب نهضة الآداب اليونانية ،  
وقيام الثورة الفرنسية التي ترددت اصداؤها لا في اليونان  
فحسب ، بل في سائر بلاد البلقان . على ان اول قادة الحركات  
في البلقان هو الكاتب اليوناني ريجاس ( ١٧٥٣ - ١٧٩٨ م ) ،  
وهو من اهل الافلاق ( رومانيا الحالية ) ، تعلم في باريس ، ووضع  
اغاني شعبية حملت طلائع الثورة القومية في اليونان . ثم اسس  
ريجاس جمعية سرية ساعدت على تنمية الشعور القومي ضد  
العثمانيين في كثير من البلاد البلقانية . وفي اثناء اقامته ببلاد  
المجر وقع ريجاس في يد البوليس بسبب وشاية بعض اعدائه ،  
وسلمته الحكومة المجرية الى السلطات العثمانية ، واعدم في  
بلغراد سنة ١٧٩٨ م .

وفي ايام الثورة الفرنسية تكونت جمعيات سرية اشهرها  
« جماعة الاصدقاء » اليونانيين ، التي اسسها اربعة من التجار  
في باريس . واتسع نشاط هذه الجمعية حتى اصبحت تضم  
عددا كبيرا من الاعضاء وجعلت هدفها الاول طرد الاتراك من  
اوروبا واعادة مجد الامة اليونانية القديمة .

وجاءت الفرصة المواتية لنشوب حركة الاستقلال اليوناني  
عندما نجح على باشا ، والي يانينة في الانفصال عن الدولة  
العثمانية ، اذ انتهز هذا الوالي احوال الفوضى التي سادت  
ممتلكات العثمانيين في اوروبا ، من جراء حروب نابليون ، وعدم  
استقرار الامور على شواطئ البحر الادرياتي ، واقتطع لنفسه

امارة واسعة على شواطئ البانيا ، واستقل بها عن الحكومة  
العثمانية في استانبول . وخضعت لهذا الوالى قبائل البانيا  
وشمال اليونان ، واصبح قوة خطيرة في مطلع القرن التاسع عشر  
الميلادى . على ان الدولة العثمانية استطاعت ان تقضى على هذه  
الحركة القومية الباكرة سنة ١٨٢٢ م . اذ بعث السلطان محمود  
حملة قضت على مقاومة على باشا وقبضت عليه في يانينا ، ثم  
اعدمته في نفس السنة .

وعاصرت ثورة على باشا حركة قومية في بلاد الصرب ، وهى  
كذلك وليدة فساد الحكم العثمانى ، اذ خضعت ادارة بلاد  
الصرب لجند البنى شرية المقيمين في بلغراد . ولم يكن لأولئك  
الجند من عمل سوى ابتزاز الاموال وجمع الضرائب . فاشتد  
حنق الاهالى في الصرب ، ولا سيما الفلاحين ، وانتشرت بينهم  
الاغاني الشعبية التى تذكرهم بمجدهم القديم . ووطد اولئك  
الفلاحون فرصة للتدريب الحربى اثناء الحروب التى نشبت  
احيانا في بلادهم بين العثمانيين والنمسا وروسيا .

ثم جاءت اخبار الثورة الفرنسية ومبادئها حافزة لاهل  
الصرب على القيام بثورة ضد البنى شرية والادارة العثمانية ،  
والعمل على استرداد حريتهم . ووجدت حركة الصرب القومية  
زعيمًا لها في شخصية جورج بتروفتش ، وهو المعروف باسم  
قره جورج ، اى جورج الاسود . وهو ممن اشترك في حروب  
النمسا ضد العثمانيين سنة ١٧٨٨ - ١٧٩١ م ، وادرك حقيقة

مطالب أهل الصرب ، وميولهم القومية .

وبلغت ثورة الصرب أشدها في مطلع القرن التاسع عشر ،  
اذ استطاع جيش الصرب بقيادة قره جورج ان يهزم البنى  
شرية ، ويفصل الصرب من التبعية للدولة العثمانية . غير ان  
العثمانيين استطاعوا سنة ١٨١٣ م استعادة هذه البلاد . لكن  
الحركات القومية اندلعت مرة أخرى في بلاد البلقان في القرن  
التاسع عشر الميلادي ، ونالت هذه البلاد استقلالها التام  
الواحدة بعد الاخرى بفضل المساعدات التي لقيتها من معظم  
الدول الاوروبية .

## الفصل الثامن

### انتشار الإسلام في السودان والشرق لاقصى

أثر التبادل التجارى والطرق الصوفية

في دخول الإسلام الى السودان

التجارة بين الدول الإسلامية والسودان :

المقصود ببلاد السودان هنا جميع الأقاليم النهرية والصحراوية الواقعة جنوبى مصر والصحراء الكبرى . واهتم عمرو بن العاص بعد سنة واحدة من فتح مصر بالعلاقات الكائنة بين البلاد المصرية والسودانية منذ العصور القديمة ، ثم عقد خلفه عبد الله بن أبى سرح مع أهل البلاد الواقعة جنوبى الأطراف المصرية معاهدة اسمها البقط ، وهى كلمة لاتينية مأخوذة من أصل مصرى قديم ، ومعناها الاتفاقية . وحافظت الدول الإسلامية التى تأسست فى مصر - مثل الطولونيين والاختشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك - على مختلف العلاقات القديمة بين مصر والسودان . كما نشأت علاقات تجارية أخرى بين السودان وشمال أفريقيا منذ أصبحت تونس وغيرها من البلاد الأفريقية جزءا من الدولة الإسلامية . ودأب التجار المسلمون من مختلف الأقاليم على ارتياد بلاد السودان الغربى والأوسط والشرقى بمنتجات مصر وشمال أفريقيا من المنسوجات والمصنوعات

الجلدية وأدوات الزينة ، والعودة من السودان بمنتجاته من الذهب والملح والعاج وريش النعام والصمغ .

وعرف التجار المسلمون أيسر السبل والمسالك الى بلاد السودان ، ووسائل اجتيازها . واشتهرت ثلاثة طرق رئيسية سارت فيها القوافل التجارية من شمال افريقيا ومصر الى السودان ، منذ العصور الوسطى حتى بداية العصور الحديثة ، فالطريق الاول ممتد من تلمسان بمراكش الى تمبكتو على نهر النيجر في السودان الغربى ، حيث قامت دولة الكانم ودولة البورنو وغيرهما من الدول الافريقية . والطريق الثانى يبدأ من تونس ويتجه الى كانو بالسودان الاوسط مارا بواحة غدامس .

واستغرقت الرحلة عبر هذين الطريقين نحو ثمانية أسابيع ، وسارت القوافل خلال معظم هذه الاسباع فى الصحراء الكبرى . ومن ثم حمل التجار كميات وافرة من الماء تساعدهم على اجتياز المساحات الشاسعة الخالية من الآبار ، واجتناب الهلاك عطشا فى الطريق . اما الطريق الثالث فامتد من مصر الى السودان الشرقى ، ولم يكن نهر النيل صالحا للملاحة فى جميع شهور السنة ، او فى كل اجزائه . بسبب الجنادل التى تعترض مجراه . ولذا قام منذالقديم البعيد طريق هام للقوافل يبدأ من اسيوط وينتهى عند الفاشر وهو المعروف باسم درب الاربعين اشارة الى المدة التى تستغرقها القافلة فى السفر على



هذا الطريق . والواضح من تاريخ الفتح الاسلامى ان الاسلام وصل الى الاطراف الشمالية السودانية ، اى النوبة ، من هذا الطريق الثالث ، وهو الطريق المصرى ، بدليل استمرار العلاقات التجارية والحربية بين هذه الاطراف الشمالية والدول التى تعاقبت فى مصر منذ ايام عمرو بن العاص الى ايام السلطان قانصوه الغورى .

### انتشار الاسلام فى الصحراء الكبرى :

ونفذ الاسلام الى بلاد السودان عبر الطرق التجارية الاخرى بعد استقرار المسلمين بشمال افريقيا ، اذ وجد من سكان الصحراء الكبرى قوة ساعدته على الانتشار . ومن الامثلة على ذلك قبائل الطوارق الذين اعتنقوا الدين الاسلامى وتعمقوا فى فهم شرائعه ، واستولت عليهم دوافع الحماسة لنشر هذا الدين بين جيرانهم من القبائل ، ومن الامثلة كذلك ما قام به احد شيوخ قبيلة لمتونة فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، اذ حج الى مكة ، وبحث فى المراكز الدينية بشمال افريقيا عن عالم يستطيع ان يقوم معه على نشر الاسلام بين بعض القبائل الصحراوية الباقية على الوثنية ، ووجد ضالته فى فقيه اسمه عبد الله بن ياسين .

ولقى هذا الفقيه متاعب فى تعليم اهل تلك القبائل مبادئ الدين ، وحثهم على التخلص من عباداتهم الوثنية القديمة ، واستخدام العنف والشدة دون جدوى ، ولم يتبعه سوى افراد قلائل . ومن ثم تحول عبد الله بن ياسين الى بلاد السودان

الغربي ، وكرس جهوده ونشاطه لنشر الاسلام بين السودايتين  
الغربيين ، فرحل مع جماعة من اتباعه الى جزيرة في نهر السنغال  
وبنى فيها رباطا انقطع فيه للعبادة ، حيث جاءت جماعات من اهل  
البلاد المجاورة واعتنقوا الاسلام على يده .

وازداد اتباع عبد الله بن ياسين يوما بعد يوم في السنغال ،  
حتى بلغوا نحو الف رجل . وفي سنة ١٠٤٢ م وجد عبد الله ان  
الوقت حان للخروج على راس اولئك الاتباع لنشر الاسلام بين  
قبائل الصحراء الكبرى مرة اخرى ، فرحل الى مساكن هذه  
القبائل برجاله الذين اشتهروا باسم المرابطين ، نسبة الى الرباط  
الذي اتخذه هذا الزعيم في الجزيرة الواقعة في نهر السنغال .  
ونجحت جهود اولئك المرابطين في تحويل كثير من قبائل الصحراء  
الكبرى الى الاسلام . وتوفي عبد الله بن ياسين سنة ١٠٥٤ م ،  
بعد ان بلغت دعوته الى كثير من البلاد ، واسس اتباعه فيما بعد  
دولة المرابطين في مراكش .

ومن مراكش امتد الاسلام امتدادا جديدا الى السودان الغربي  
على عهد يوسف بن تاشفين ( ١٠٦٢ م ) ، وهو ثاني امراء دولة  
المرابطين بمراكش . ويرجع الفضل في ذلك الى مساعدة بعض  
القبائل ومنها لمتونة بالصحراء الكبرى ، اذ امتد نفوذ هذه القبيلة  
بالذات الى اطراف السودان ، واشتهر زعمائها بالحماسة الدينية  
والتفاني في نشر الاسلام . ففي سنة ١٠٠٩ م ( ٤٠٠ هـ ) اسلم  
ساقس ملك سونرهاي في الجنوب الشرقي من تمبكتو ،

وأصبحت الممالك القائمة على النيجر الأعلى مركزا اسلاميا  
واسعا .

واتسعت مدينة تمبكتو الواقعة على طريق التجارة بين شمال  
افريقيا والسودان ، بعد ان أصبحت مركزا للدراسات الاسلامية  
سنة ١٠٧٧ م ، اذ وفد اليها الطلاب في اعداد كبيرة ، واجتذبتهم  
شهرة المدينة بحسن استقبال الوافدين اليها في طلب التفقه في  
الدين . وزار ابن بطوطة ، هذه المدينة في منتصف القرن الرابع  
عشر الميلادي ، ووصف حماسة اهلها لتعلم القرآن ، ومواظبتهم  
على حضور صلاة الجمعة ، حتى ان المرء لا يجد له مكانا في  
المسجد اذا لم يبكر في الحضور .

وتكونت في السودان الغربي كذلك مملكة مالي ، وهي المملكة  
التي أسستها قبائل المندنجو التي اشتهرت بحماسة نشر  
الاسلام بين جيرانها من قبائل التكرور . وبلغت مملكة مالي  
ذروتها التجارية في ذلك الوقت ، وجاءها التجار في اعداد  
كبيرة من المغرب الاقصى وتونس ومصر . وزار احد ملوكها وهو  
منسى موسى ( ١٣٠٧ - ١٣٣٢ م ) كثيرا من البلاد الاسلامية في  
طريقه الى الحج في مكة ، واجزل العطاء والبدل في الطريق حتى  
صارت هداياه مضرب الامثال .

وانتشر الاسلام في السودان الاوسط منذ نشأت دولة  
المرابطين في مراكش ، اذ اسلم سلطان بلاد البورنو الواقعة على  
الشاطئ الغربي لبحيرة شاد ، وكذلك سلطان بلاد الكانم ،

المتدة على طول الشاطئ الشمالى لهذه البحيرة . واشتهرت بلاد الكانم بنشاطها التجارى فى السودان كله ، فازدادت شهرتها بعد اعتناقها الاسلام ، وانتشر نفوذها بين كثير من القبائل فى السودان الشرقى حتى اطراف مصر والنوبة .

وهكذا التقت اهم تيارات التوسع الدينى الاسلامى فى السودان ، واستقر الاسلام فى قلب افريقيا ، واصبح فى مفرق يساعده على الانتشار فى اتجاهات عديدة . ذلك ان التيار الاسلامى ، الواصل الى الاطراف الشمالية السودانية من مصر عن طريق درب الأربعين ، امتد الى جوف السودان منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، بسبب هجرة بعض القبائل العربية من مصر الى السودان ، بعد زوال الدولة الفاطمية ، فضلا عن الحملات المتكررة التى انفذها سلاطين الايوبيين والمماليك لتسوية علاقاتهم بمملكة دنقلة المسيحية . وتجار كردفان فى السودان الشرقى فى العصر الحاضر يفتخرون بانتسابهم الى سلالات هذه القبائل العربية ، وفى بلاد كردفان وما جاورها التقى هذا التيار المصرى الاصل بالتيار المراكشى الواصل الى السودان الغربى عبر الصحراء الكبرى . وفى القرن الرابع عشر الميلادى جاءت قبائل عربية اخرى من تونس الى دارفور عن طريق بلاد الوادى والبورنو ، واعتنق ملك دارفور الدين الاسلامى على يد احد مشايخ هذه القبائل العربية ، واسمه احمد .

اسس احمد أسرة اسلامية فى دارفور ، اذ تزوج بابنة ملك

هذه البلاد ، ثم خلفه في الحكم ، وحكمها بعده سلالته . على أن سكان دارفور لم يتحولوا الى الاسلام الا سنة ١٥٤٦ م على عهد احد ملوكها المتأخرين واسمه سليمان . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر من الميلاد ، انتشر الاسلام في البلاد الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد ، مثل وادي وباجرمي ، وغدت مملكة وادي اكبر الممالك الاسلامية في هذه الجهات من بلاد السودان ، منذ أسسها عبد الكريم سنة ١٦١٢ . ثم امتد الاسلام الى قبائل الحوصة ، وغدا لذلك منتشرا في جهات واسعة من اراضي السودان .

### الطرق الصوفية وأثرها في انتشار الاسلام في السودان : القادرية :

وساعد طوائف الطرق الصوفية في نشر الاسلام في السودان .  
وأولها طائفة الطريقة القادرية التي تنتسب الى مؤسسها  
وشيخها عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى ببغداد سنة  
١١٦٦ م . وانتشرت هذه الطريقة في العراق والشام ومصر  
واليمن وتركيا والهند ومراكش والجزائر ، ووصلت الى  
السودان في القرن الخامس عشر الميلادي عن طريق الصحراء  
الكبرى على يد بعض المهاجرين من واحة توات ، وهي إحدى  
الواحات في القسم الغربي من الصحراء الكبرى . واتخذ أولئك  
المهاجرون وأتباعهم من بلدة والانا مركزا لدعوتهم ، ثم انتقلوا الى  
مدينة تمبكتو . وفي أوائل القرن التاسع عشر نشطت جماعة

القادرية في كل من الصحراء الكبرى والسودان ، وانتشر اتباعها ،  
يدعون الى الاسلام بين القبائل الوثنية ، ونجحوا في اجتذاب  
اعداد كبيرة الى الاسلام . وداب القادرية على ارسال النابهين  
من الداخلين في الاسلام من ابناء هذه القبائل الى مراكز طريقهم ،  
بالقاهرة والقيروان وفاس ، ليتفقهوا في الدين ، ويدرسوا الطريقة  
القادرية على شيوخها في هذه المراكز ، وليصبحوا انفسهم  
شيوخا للقادرية بين قبائلهم ، ودعاة الاسلام بين القبائل المجاورة .  
واتبع اهل الطريقة القادرية وسائل سلمية في نشر الاسلام ،  
وظلوا اوفياء لمبادئ المؤسس الاول للطريقة ، وهو عبد القادر  
الجيلاني ، اذ اشتهر هذا الرجل بحب الجار والتسامح الديني  
والابتعاد عن الاضطهاد في معاملة غير المسلمين ، على عكس  
صاحب الطريقة التيجانية .

### التيجانية :

ظهرت هذه الطريقة الصوفية الى جانب القادرية في مراکش ،  
وتنسب الى مؤسسها احمد بن محمد المختار التيجاني ( ولد  
سنة ١٧٢٧ م ) . واستقر التيجاني في فاس ، وعاش بها حتى  
وفاته سنة ١٨١٥ م . ورأى اتباع هذه الطائفة ان الجهاد واجب  
لنشر الاسلام ، وان تسامح القادرية لم يثمر في بعض الجهات  
الصحراوية والسودانية التي دعوا فيها الى الاسلام . ورسم  
الحاج عمر ، رئيس التيجانية في السودان الغربي ، الخطوط  
الرئيسية لاتباعه ، فعمل اولا على تعليمهم بعض فنون الحرب ،

وامدهم بالاسلحة ، ثم بدا سنة ١٨٢٣ م سلسلة من الحملات لنشر الاسلام بين القبائل التي ظلت على الوثنية حول النيجر الاعلى والسنغال ، ولم يلبث أن صار قوة سياسية دينية ذات سلطان كبير .

وامتد نشاط الحاج عمر الى السودان الاوسط ، فأخضع لسلطانه عددا من القبائل ، وتوفي سنة ١٨٦٥ م في احدى غزواته . وتولى ابنه احمد شيخو شئون البلاد التي استولى عليها ابوه ، وظلت طائفة التيجانية صاحبة النفوذ الاعلى في السودان الغربى حتى استولت فرنسا على هذه البلاد فاقتصر نشاطها على السودان الاوسط .

### المرغنية :

أما طائفة المرغانية فانتشرت في السودان الشرقى ، ولقيت نجاحا كبيرا في نشر الاسلام بين كثير من القبائل الوثنية هناك . وترجع تعاليم هذه الطريقة الى السيد احمد بن ادريس ، وهو احد فقهاء مكة . وعاش السيد احمد بن ادريس معظم حياته في المدينة ، وتولى التدريس بها حتى سنة ١٨٢٨ م ، فضلا عن تأسيسه الطريقة الصوفية المعروفة باسم القدريّة . وأرسل السيد احمد بن ادريس سنة ١٨٣٥ م احد اتباعه المشهورين بالتقوى ، وهو محمد عثمان المرغانى من أهل الطائف للدعوة الى الاسلام في افريقية ، فعبر البحر الاحمر الى القصير واتخذ طريقه الى اسوان ومنها الى دنقلة ، ولقيت

جهوده نجاحا باهرا بين الدناقلة ، اذ اجتذبتهم امانته في تسوية الخلافات بين الناس . ومن دنقلة انتقل محمد عثمان الميرغاني الى كردفان ، حيث بدا دعوته الى الاسلام بين الوثنيين ، واستجاب له الكثيرون منهم ، ولذا امتد مقامه هناك ببلدة بارا ، وتزوج وانجب ابنه عثمان وغيره من الانباء ، وصار زعيما دينيا شهيرا . ثم انتقل هذا الزعيم الى اقليم كسلا ، حيث اسس بلدة الختمية ، كما اسس الطريقة الميرغانية . وعاد اخيرا الى الحجاز وتوفي بمكة . وخلفه في مشيخة الطريقة الميرغانية ابنه السيد محمد سر الخاتم ، وقام ابناؤه الآخرون بالدعوة الى هذه الطريقة بأنحاء السودان ، وتغلب اتباعها في الاقاليم الشمالية والشرقية من السودان في العصر الحاضر .

#### السنوسية :

اسس هذه الطريقة فقيه جزائري سنة ١٨٣٧ م ، وهو سيدي محمد بن علي السنوسي ، الذي نادى باصلاح شأن الاسلام ، ونشر العقيدة الاسلامية الصحيحة . واستنطاع السنوسي ان يؤسس له دولة دينية ، يعتمد أفرادها على القرآن والسنة ، وتجنب التضرع للاولياء وزيارة القبور مع الامتناع عن شرب القهوة والتدخين ، وجعل مقر هذه الدولة واحة جفبوب في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس . وفي هذه الواحة تلقى دعاة السنوسية تعاليم مؤسسها ، ثم انتشروا بين قبائل الصحراء الكبرى ، ولا سيما جنوبي فزان وتيبستي ، ولم يلبثوا



ان وصلوا الى مدن السودان . واشتهر السنوسيون في وادى  
بشراء العبيد ، وارسالهم الى جفوب لتعليمهم الدين الاسلامى  
واهداف السنوسية ، ثم ارسالهم الى اوطانهم مرة اخرى لنشر  
الاسلام بين اقوامهم . وتجلى نشاط السنوسيين كذلك في  
تحويل جماعات وثنية من قبيلة بيلى الى الاسلام ، ومن السودان  
امتد نشاط السنوسية حتى بلغ الحبشة .

### انتشار الاسلام في الحبشة

على ان امتداد الاسلام الى الحبشة يرجع الى عهد الرسول  
الكريم ، اذ المعروف ان المسلمين الاولين انتقلوا الى هذه البلاد  
عملا بنصيحته عندما اشتد اضطهاد قريش لاتباعه . ثم امتدت  
الدولة الاسلامية امتدادها المعروف في مصر ، وقامت بين مصر  
والنوبة منذ ايام الفتح الاسلامى لمصر المعاهدة المعروفة باسم  
البقط . وربما امتد الاسلام الى الحبشة عن طريق النوبة  
على ان الأرجح هو ان الاسلام وصل الى الحبشة عن  
طريق الجاليات العربية التى عرفت البحر الاحمر ومعابره ،  
واستقرت على ساحل الحبشة المقابل لساحل شبه جزيرة العرب .  
وفي نهاية القرن الثانى عشر الميلادى كثر عدد الجاليات العربية في  
المدن الساحلية للحبشة ، واستطاعت هذه الجاليات ان تصبح  
جماعة تجارية ، واسست دولة اسلامية منفصلة عن المملكة  
الحبشية المسيحية في داخل البلاد . وادى ذلك الى تشجيع  
الدعاة المسلمين على التوغل داخل الحبشة نفسها لنشر الاسلام ،

فقام احدهم ، واسمه ابو عبدالله محمد في منطقة امجرة ، واجتمع حوله اتباع عديدون سنة ١٢٠٠ م .

وعلا شأن المسلمين في بلاد الحبشة وكثر عددهم حتى اضطر بعض الحكام الاحباش الى معاملتهم بالحسنى ، وسمحوا لهم بالخدمة في اقاليمهم . على ان معظم المسلمين بالحبشة استقروا في المنطقة الممتدة من الاطراف الشمالية حتى سنار . ثم اعتنق بعض الحكام الاحباش الدين الاسلامي ، مثل جراني امير عدل ، واتخذ هذا الامير لنفسه اسم احمد ، وعمل على نشر الاسلام في امارته ، بل بلغت به الحماسة الى السير بجيش للهجوم على اماراة من الامارات الحبشية التي لم يصلها الاسلام ، واستطاع تحويل كثير من زعماء هذه الامارات مع اتباعهم الى الاسلام .

على ان حركة انتشار الاسلام في الحبشة اصطدمت باطماع الاوروبيين التي اخذت طلائعها تصل الى البحر الاحمر ، بعد كشف طريق راس الرجاء الصالح . اذ تدخل البرتغاليون في شئون الحبشة ، وساعدوا الاحباش على التخلص من سيادة المسلمين . واغار البرتغاليون على اماراة احمد جراني سنة ١٥٤٣ م ، وانزلوا به هزيمة لقي فيها مصرعه . غير ان اهل الحبشة لم يلبثوا ان انقلبوا على البرتغاليين ، حتى اخرجوهم من البلاد سنة ١٦٢٢ م . واسترد المسلمون مكانتهم في بلاد الحبشة بعد ذهاب البرتغاليين ، وغدت الوظائف الحكومية التي تطلب امانة وحقا تعهد الى افراد

من المسلمين . ولم يلبث المسلمون ان ملكوا قاحية التجارة في القرن التاسع عشر الميلادى ، ونعموا بأملك واسعة ، واشراف كامل على المدن الكبيرة واسواقها ، وظفروا بنفوذ واسع في سائر البلاد ، واستطاع المسلمون من اهل الحبشة ان ينالوا ثقة اخوانهم من المسيحيين ، وظلوا يعيشون في سلام وهدوء رغم الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد الحبشة في العصر الحاضر .

### انتشار الاسلام في الشرق الاقصى

#### تجارة المسلمين في الشرق الاقصى :

مهدت التجارة كذلك الى انتشار الاسلام في الشرق الاقصى . اذ امتدت تجارة المسلمين الى شواطئ الهند والهند الصينية والصين منذ توغلت الدولة الاسلامية في جوف آسيا ، واشتملت على اجزاء من بلاد الهند والمناطق الاسيوية المتاخمة لاطراف الصين ، وهيمنت على الطرق التجارية الرئيسية في آسيا . ووصل التجار المسلمون منذ القرن الثامن الميلادى ( الثانى الهجرى ) الى الصين ، وجزر الهند الشرقية ، وغيرهما من بلاد الشرق الاقصى ، للحصول على مواردها الطبيعية من الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الطيب وجوز الهند والورق ، وحمل التجار معهم الى هذه البلاد مقابل هذه السلع بعض منتجات الدولة الاسلامية مثل السكر والزمرد والقطن والاقمشة والعاج وغيرها من صناعات مصر والعراق والشام .

وجاء ذكر متاجر الشرق الاقصى منذ القرن التاسع الميلادى

( الثالث الهجرى ) فى رحلة سليمان التاجر . ويتضح مما رواه سليمان ان المسلمين اهتموا بالحصول على حرير الصين، وسلكوا من اجل ذلك الطريق البرى المعروف باسم طريق الحرير، المار وقتذاك عبر سمرقند وتركستان الصينية ، كما ركبوا من راس الخليج الفارسى بالعراق الى الصين كذلك من اجل الحرير . وزاد نشاط المسلمين عبر الطريق البحرى حتى ان الرحالة ابن خرداذبة كتب سنة ٨٤٦ م دليلا للتجار المسلمين لارشاد المسافرين على هذا الطريق البحرى ، الذى بدأ من الأبله عند مصب نهر دجلة الى الهند والصين ، ووصف فيه اهم المحطات التجارية الواقعة على هذا الطريق .

وسارت السفن الاسلاميه وقتذاك فى محاذاة الشاطىء الفارسى وساحل الهند حتى ملبار فى الهند، ثم طافت حول ساحل كروماندل الى الصين، واستغرقت هذه الرحلة ثلاثة أشهر وأحيانا شهرين . ولقى التجار المسلمون عبر الطريق البحرى السالف كل مساعدة من الجاليات الاسلاميه فى موانى الهند ، وحصلوا على امتيازات عديدة من السلطات المحلية للمتاجرة فى طمانينة وسلام ، وتادية شعائر الاسلام فى غير مضايقة . ولم يلبث نشاط التجار المسلمين فى الصين ان ادى كذلك الى قيام جاليات اسلامية فى الموانى الصينية ، فاستقرت جماعات من التجار المسلمين فى ميناء خانفو ، جنوبى شنغهاى الحالية ، ومدينة كانتون كذلك منذ القرن التاسع الميلادى .

وادی نمو الجالیات الاسلامیة الی امتداد التجارة الی جزر الهند الشرقیة . وغدت الرحلة من مدینة سیراف علی الخلیج الفارسی الی شبه جزیرة ملقا ( الملايو ) وجزیرة جاوة سهلة میسورة . واشتهرت مدینة سیراف منذ القرن العاشر المیلادی بانها المركز الالذی تلتقی فیہ جماعات تجار الشرق الاقصى بتجار فارس والعراق وبلاد العرب والحبشة ومصر ، وبلغ من حب اهالی سیراف للتجارة والسفر فی بحار الشرق الاقصى ان ظل عدد کبیر منهم یحیا حیاته علی ظهر السفن ، وروی تاجر من اهل سیراف انه قضی اربعین عاما من عمره علی ظهر سفینته لایفادرها .

#### انتشار الاسلام فی جزر الهند الشرقیة :

وادی نشاط التجارة واستقرارهم فی موانئ الشرق الاقصى الی انتشار الاسلام فی جهات جدیدة ، ومنها جزر الهند الشرقیة الالذی وفد الیها الدعاة المسلمون فی سفن التجار الالذین أخذوا یتغلغلون بین مجموعة هذه الجزر . وتنقسم هذه المجموعة من الجزر جغرافیا الی جزائر سنده الکبری الالذی تضم بورنیو وسومطرة وسلیبیس و جاوة ، ثم سنده الصغری الالذی تشمل بالی ولبک وسمباوة وملقا .

وداب التجار المسلمون الالذین جاءوا الی جزر الهند الشرقیة علی الاندماج مع اهلهما والتزوج منهم ، وتبع ذلك غالبا اعتناق الزوجات للاسلام . وكذلك سائر افراد البیت من خدمه

وما استجد عليه من الابناء . واستقر الاسلام بذلك في الاطراف  
الساحلية لجزر الهند الشرقية ، واكتسب قواعد مكنت الدعوة  
والحكام المسلمين فيما بعد من نشر الاسلام في الجهات الداخلية .  
وتجلى المراحل التي تم الاسلام فيها الانتشار في جزر الهند  
الشرقية في جزيرتي سومطرة وجاوة اللتين أصبحتا نموذجا  
الدعوة الى الاسلام في سائر الجزر الاخرى .

### تنتشار الاسلام في جزيرة سومطرة :

وبلغ انتشار الاسلام اقصاه في الركن الشمالي من جزيرة  
سومطرة في القرن الثالث عشر الميلادي ، وغدت مدينة اتجيه  
في الركن الشمالي الغربي منها مركزا للدعوة الى الاسلام ، واسلم  
ملكها ، على ايدى جماعة من التجار والدعاة المسلمين ، وتبعه كثير  
من السومطريين . وفي اوائل القرن الرابع عشر الميلادي ارسل  
شريف مكة دعاة الى جزيرة سومطرة ، ودل الشيخ احمد ، رئيس  
اولئك الدعاة ، على جدارة شخصية واحسان بمسئوليته .  
اذ اتجه الى مدينة سمدره على الساحل الغربي من الجزيرة ،  
حيث حاضرة المملكة التي تولاهها من السومطري ، وظل مقيما  
بها حتى اقنع الملك مراسيلو باعتناق الاسلام ، واطلق عليه لقب  
الملك الصالح .

واشتهر ابناء الملك مراسيلو بالتقوى والعمل على  
نشر الاسلام ، واشاد ابن بطوطة الذي زار سمدره سنة ١٣٤٥ م  
بالمملك الظاهر بن الملك الصالح ، فروى عنه انه مسلم سني ،

غيور على دينه ، مولع بمناظرة الفقهاء ورجال الدين ، وبلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم . وبلغت شهرة هذه المملكة شأواً عالياً ، حتى وفد إليها قضاة من فارس والهند .

ومن هذه المملكة الساحلية انتشر الإسلام في سائر سومطرة ، فاعتنقه أهل بلدة لامبرى الذين اشتهروا بالاخلاق الحميدة والتمسك بأداب الدين الإسلامى ، ثم إلى الجهات الداخلية من جزيرة سومطرة حيث مملكة منانجكباو الواقعة أطرافها حول خط الاستواء . واشتهرت هذه المملكة بانها معقل من معاقل الهندوكية ، غير أن الإسلام نفذ إلى قلوب أهل هذه المملكة ، وأصبحوا أشد الناس إيماناً به .

ثم تحمس السومطريون المسلمون إلى نشر الإسلام بين جيرانهم فظلوا يعملون لذلك من تلقاء أنفسهم ، حتى هاجم الهولنديون جزيرتهم ، وكثرت الرسائل المسيحية للتبشير بالديانة المسيحية . على أن انتشار الإسلام وازدياد أعداد المسلمين في سومطرة لم يتأثر بهذه الحركة التبشيرية والاستعمار الأجنبي الذي عملت تحت حمايته ، بل قامت في سومطرة أخيراً نهضة دينية سياسية ، هي نواة الولايات الأندونيسية في العصر الحاضر .

### انتشار الإسلام في جزيرة جاوة :

أشبهت جزيرة جاوة اختها سومطرة في اعتناق الإسلام ، إذ

قامت بها منذ القرن الثالث عشر الميلادي مراكز تجارية هامة استقرت بها جاليات من المسلمين على الشاطئ الشمالي مثل جيرة وثوبان وجرسك . وخضعت معظم اجزاء الجزيرة وفتدك لمملكة ماجاباهيت الهندوكية ، على حين قامت في الاجزاء الغربية من الجزيرة امارات صغيرة مستقلة خاضعة لمملكة باجاجاران . واشتهرت هذه الامارات بالثراء والقوة ، غير ان التنزع لم يلبث ان دب بين ابناء الاسر الحاكمة فيها ، فمهد لرعاء الجاليات الاسلامية على الساحل ان ينشروا الدين الاسلامي بين ارجاء الجزيرة .

وفي سنة ١٤٧٨ م استطاع المسلمون الجاويون ان يقضوا على مملكة ماجاباهيت ، فهرب حكامها الهندكيون الذين آثروا البقاء على دينهم القديم . واخذ الاسلام يشق طريقه بعد ذلك الى شرق الجزيرة وغربها ، وانتشر الدعاة المسلمون بين الاهالي ، ولقنوهم التعاليم الاسلامية . وداب بعض اهالي جاوة من الفقهاء على الذهاب الى مكة لدراسة اصول الدين ، ومن اولئك سنن كنج جاتي ، المولود بمدينة باسي بجزيرة جاوة ، اذ رحل هذا الرجل سنة ١٥٢١ الى مكة ، حيث درس فيها علوم الدين ثلاث سنوات . ثم عاد سنن بعد ذلك الى مدينة جاوة الوسطى ، ونال توفيقا باهرا في الدعوة الى الاسلام . وتزوج هذا العالم من أخت الملك دمك بالجزء الغربي من جاوة ، وادخل هذه المملكة في الاسلام بمساعدة نسيبه ، وغدت جاوة



كلها بذلك ، فضلا عن سومطرة مركزا اسلاميا لنشر الاسلام في  
جزر الهند الشرقية وشبه جزيرة الملايو .

### انتشار الاسلام في الملايو :

ومن هاتين الجزيرتين جاوة وسومطرة ، انتقلت جاليات  
اسلامية الى شبه جزيرة الملايو منذ القرن الثالث عشر الميلادي ،  
واستقرت اعداد كبيرة من هذه الجاليات في الاطراف الجنوبية  
من شبه الجزيرة . واسس احفاد اولئك المسلمين في القرن  
الثالث عشر مدينة ملقا ، حيث تقوم ميناء سنغافورة في العصر  
الحاضر . وغدت هذه المدينة سوقا تجاريا زاهرا لوقوعه على  
الطريق التجارى الهام بين الشرق الاقصى ( الصين ) والهند  
وبلاد العرب . وجاء الى مملكة ملقا الدعاة من بلاد العرب ، وكثير  
من القضاة كذلك .

ثم امتد نشاط الدعاة المسلمين الى داخل شبه جزيرة الملايو .  
واستطاع الشيخ عبد الله المكي أن يدخل مملكة قويدة سنة  
١٥٠١ م ، وهي احدى الولايات الشمالية بشبه جزيرة الملايو ،  
حيث نجح في اقناع ملكها بترك الديانة الوثنية واعتماد الاسلام .  
وظهرت المساجد بعد ذلك في الجهات الاهلة بالسكان من مملكة  
قويدة ، حيث جرت العادة بدق الطبول ايدانا بدعوة الناس  
للاصلاة ، وظل الشيخ عبد الله يفقه الناس في امور الدين ،  
ويجذبهم اليه بحسن معاشرته .

ووصلت اخبار اسلام مملكة قويدة الى

مدينة اتجبة بسومطرة ، فتحمس سلطاتها ، واستدعى شيخا من مكة اسمه نور الدين ليعمل مع الشيخ عبد الله على نشر الاسلام . واشتهرت مملكة قويدة بتمسك أهلها بتعاليم الدين الاسلامي ، ورعاية الشعائر الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج واشتغال بعلوم الدين . وادى انتشار الدين الاسلامي الى بناء الزوايا في قرى مملكة قويدة ، فضلا عن المساجد في المدن الكبرى ، والتحق بهذه الزوايا اعداد من الطلاب لدراسة العلوم الدينية على مشايخها .

اما سائر جهات الملايو ، فنالت بدورها حظا من التعاليم الاسلامية بفضل الدعاة الذين انتشروا في ارجائها ، وتوجد اضرحة كثيرة مبعثرة على مسافات واسعة من ارض الملايو ، مما يدل على نشاط اولئك الدعاة . واشتهر مسلمو الملايو بالتسامح الديني مع المحافظة الشديدة على تعاليم الدين . ذلك ان اختلاطهم بالهندوس والبوذيين وغيرهم من اهل الديانات الاخرى جعلهم اكثر تسامحا من مسلمي جزر الهند الشرقية . وهيات لهم هذه الميزة الهامة فرصة لنشر دينهم بالطرق السلمية بين اولئك الجيران .

ومن الملايو وجد الاسلام طريقه الى بلاد سيام والهند الصينية . وقام الاسلام بدور كبير في نشر الحضارة والثقافة في تلك الجهات من قارة آسيا ، ويحصد أهلها ثمار هذه الحضارة في يقظتهم التي تدوى اصداؤها في العالم في العصر الحاضر .

## انتشار الاسلام في الصين

### العلاقات الاولى بين المسلمين واهل الصين :

ودخل الاسلام بلاد الصين كذلك مع التجار المسلمين الذين  
سلكوا الطريق البحرى المعروف بين بلاد العرب والشرق الاقصى ،  
واستطاع اولئك التجار ان يحصلوا على تسهيلات كثيرة من اباطرة  
الصين منذ استقرارهم في الموانى والمدن الهامة في القرن الثامن  
الميلادى ، اذ منحتهم امبراطورية تانج حرية العبادة واداء شعائر  
الدين ، وبنوا لأنفسهم مسجدا في كانتون .

على ان علاقات سياسية سابقة نشأت بين الدولة  
الاسلامية وامبراطورية الصين في القرن السابع الميلادى ، اذ  
فر يزدجرد ، آخر ملوك الساسانيين في فارس ، من الجيوش الاسلامية  
الفاتحة ، وعمد الى الاستنجاد بامبراطورية الصين . غير ان  
الامبراطور آثر الحياد وعدم التدخل في هذا الصراع الذى علت  
فيه كفة المسلمين ، واكتفى بان بعث سفيرا الى عثمان بن عفان  
ليدفع الاذى عن يزدجرد . واستقبل الخليفة عثمان سفيرا للصين  
سنة ٦٥١ م ، وبعث معه عند عودته احد قادة العرب ليرافقه في  
الطريق .

ثم ادت الفتوحات الاموية في اواسط آسيا الى اتصال  
بلاد الدولة الاسلامية ببلاد الصين ، فتبادل الطرفان  
السفارات ، ونشأت جاليات اسلامية بالبلاد الداخلية ،

وأرسلت الدولة العباسية نجدة حربية سنة ٧٥٦ م لمساعدة  
امبراطور من الإباطرة الصين في تدعيم مركزه ضد منافسيه على  
العرش .

### أثر الفتوح المغولية في انتشار الإسلام :

تمخضت حركات المغول في أواسط آسيا في القرن الثالث عشر  
الميلادي عن حركة هجرة هائلة اندفع فيها المسلمون من أواسط  
آسيا على اختلاف قومياتهم من عرب و فرس و أتراك إلى  
الإمبراطورية الصينية . واشتغل كثير من اللاجئين المسلمين  
بالتجارة ، على حين احترف بعضهم الجندية ، واشتغل بعض  
آخر في وظائف الإمبراطورية . ثم لم يلبث أن علا شأن أولئك  
المسلمين ، ولا سيما بعد أن لمس خانات المغول الذين سيطروا  
على الصين مهارتهم في إدارة البلاد ، ومعرفتهم بشئون  
التجارة . فتقلد بعض المسلمين المناصب العالية مثل الشيخ  
عبد الرحمن ، الذي تولى سنة ١٢٤٤ م إدارة بيت المال ، وأصبح  
له حق تقرير الضرائب وتنظيمها في البلاد . وأسند الإمبراطور  
قوبيلاي خان سنة ١٢٥٩ م هذه الوظيفة إلى الشيخ شمس الدين  
عمر ، المشهور بالسيد الأجل ، وأصله من بخارى . ومات  
السيد الأجل سنة ١٢٧٠ م وخلف شهرة عالية للمسلمين بين  
الصينيين ، بفضل ما أظهره من المهارة والكياسة في الشئون  
المالية ، واحترام الديانات الصينية .

ويرجع الفضل إلى أسرة السيد الأجل في نشر الدين الإسلامي

ببلاد الصين ، اذ نال حفيد السيد الاجل سنة ١٢٣٥م من امبراطور المغول امتيازات اتاحت للمسلمين ان ينشروا كلمة الدين . واشاد الرحالة الايطالى ماركو بولو ، الذى زار الصين على عهد قوبيلاي خان ، بكثرة الجاليات الاسلامية فى مدن الصين وانتشارها فى اقصى بلاد الصين ومدنها الشمالية . وذكر ابن بطوطة عن الجاليات الاسلامية فى مدن الصين ، انه يوجد فى كل مدينة من المدن التى زارها حتى خاص للمسلمين ينفردون بسكناه ولهم فيه مساجدهم الخاصة .

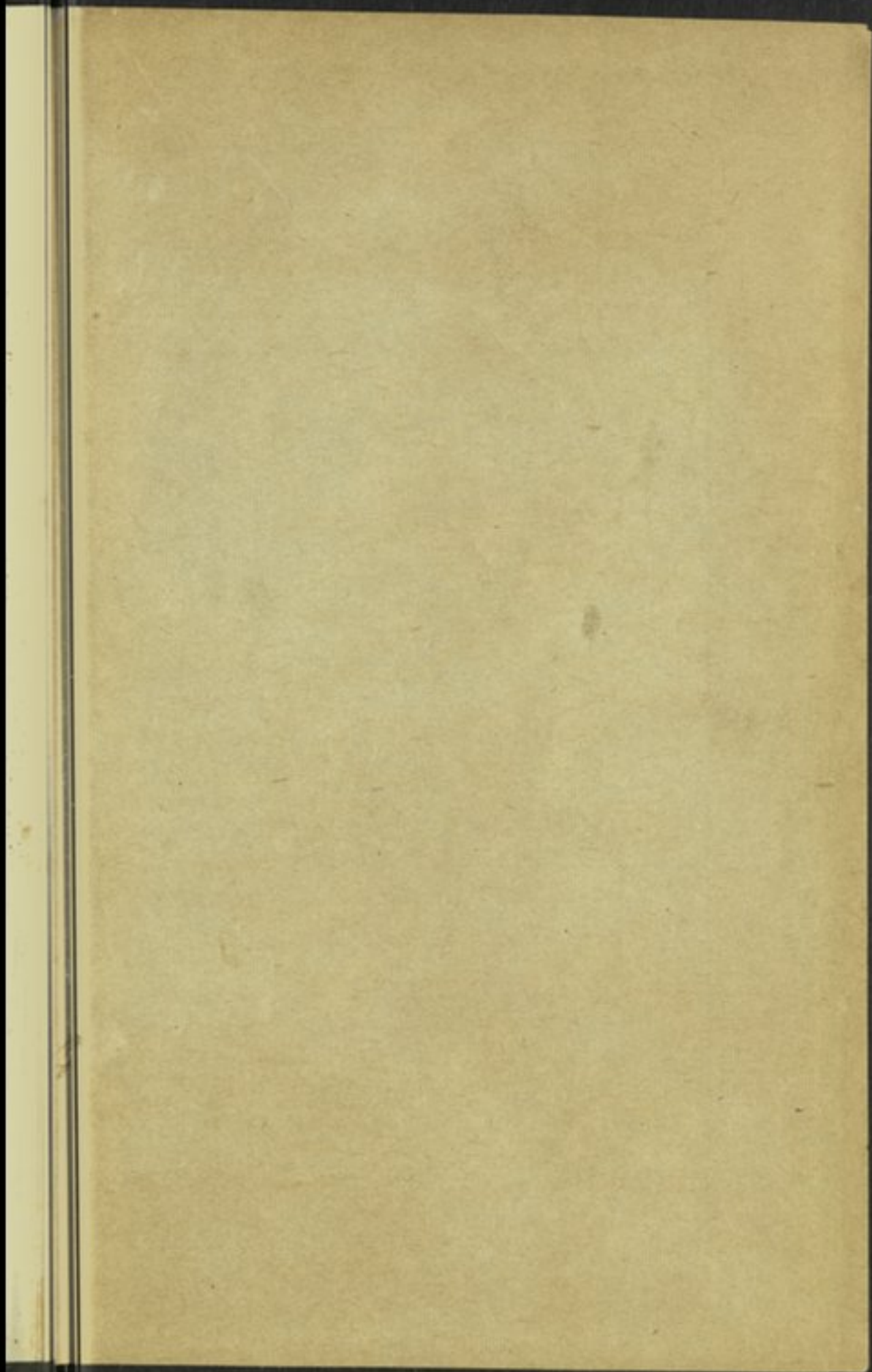
وظل المسلمون يلقون كل عناية وتكريم من اباطرة الصين على اختلاف نزعاتهم ، وبرغم بقائهم على دياناتهم القديمة . فتمتع المسلمون بامتيازاتهم القديمة ، وغدوا اصحاب اراض واقطاعات واسعة . ولم يقم المسلمون بثورة او عصيان ضد ظلم او اضطهاد حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، اى حتى قيام اسرة مانشو التتيرية فى حكم الصين . ذلك ان قيام هذه الاسرة التتيرية ادى الى اضطرابات فى بعض ولايات الصين ، ونزل بالمسلمين اثناء هذه الاضطرابات كثير من الاذى مدة قرن من الزمان . ثم اصدر الامبراطور ينج تشن سنة ١٧٢١م اعلانا بان المسلمين من رعاياه يتمتعون بكافة الحقوق التى يتمتع بها سائر افراد الشعب ، وانهم مثل ابنائه تماما ، وان عباداتهم ومساجدهم موضع الاحترام . واظهر المسلمون تقديرهم للسلطات الحاكمة ازاء هذا الاعلان ، ودابوا على القيام باعمال

خيرية كثيرة ، ولا سيما ايام المجامعات التي نزلت بالصين في القرن الثامن عشر الميلادي . وتزوج المسلمون من الصينيات وتجنّبوا تحدى جيرانهم من اهل الديانات الاخرى ، وحرصوا على ارتداء الزي الوطني الصيني ، فلم يلبسوا العمامة الا في المسجد فقط على حين اتخذوا سائر المظاهر الصينية الاخرى مثل وضع الصفائر في رؤوسهم وارتداء الازياء الوطنية .

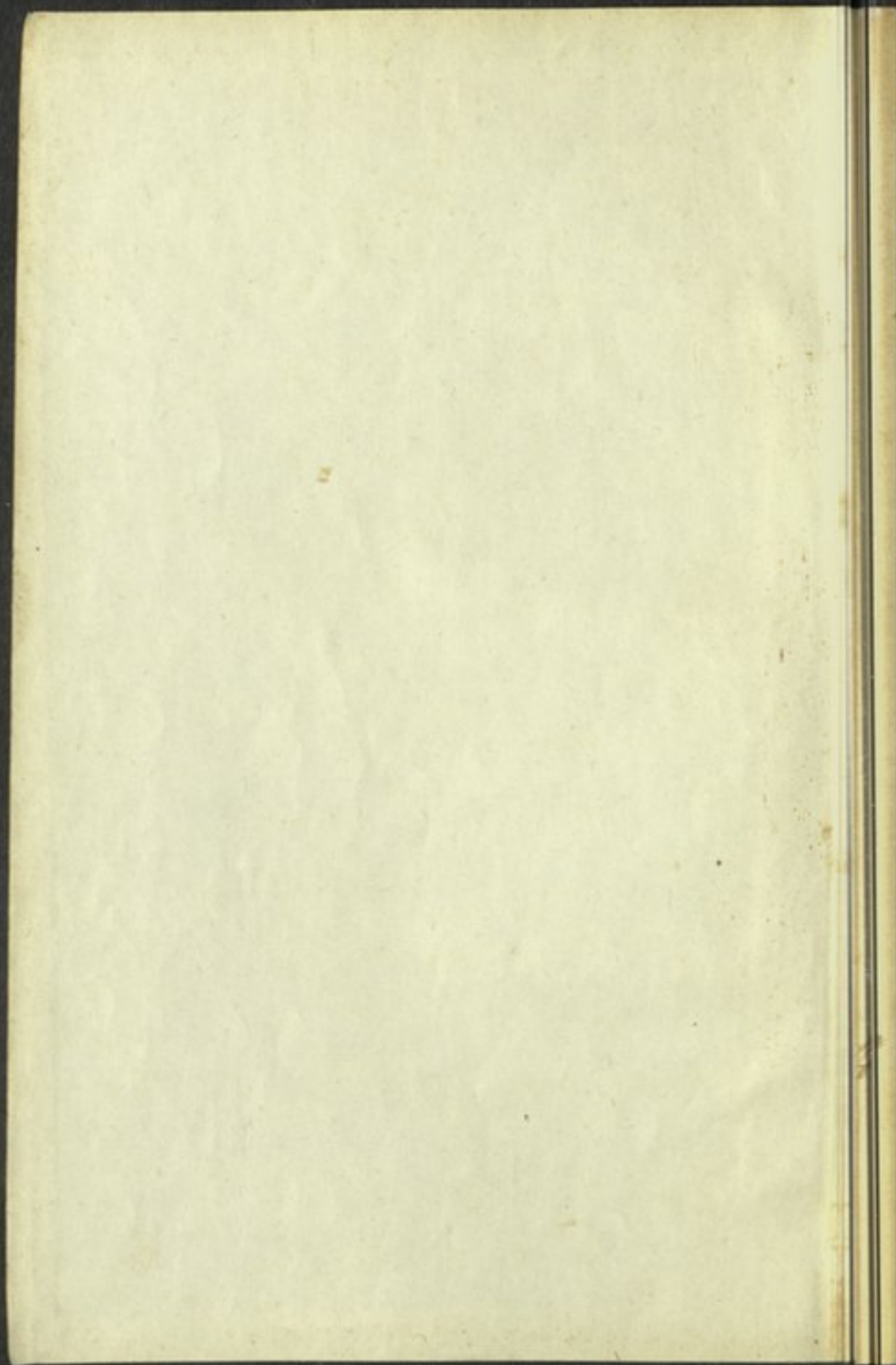
واستطاع المسلمون بذلك كسب احترام جيرانهم من اهل الصين ، كما كسبوا عطف الحكام ، ولذا صارت وظائف الدولة مفتوحة امامهم ، فبلغوا كراسى القضاء وقيادة الجيش وادارة الولايات بعض الاحيان . وبلغ المسلمون شأوا عاليا في الصين في القرن التاسع عشر الميلادي حتى ان كاتباً روسياً زار الصين سنة ١٨٦٧ م قال في مذكرات زيارته ان الاسلام يكاد يصبح الدين القومي للامبراطورية الصينية .

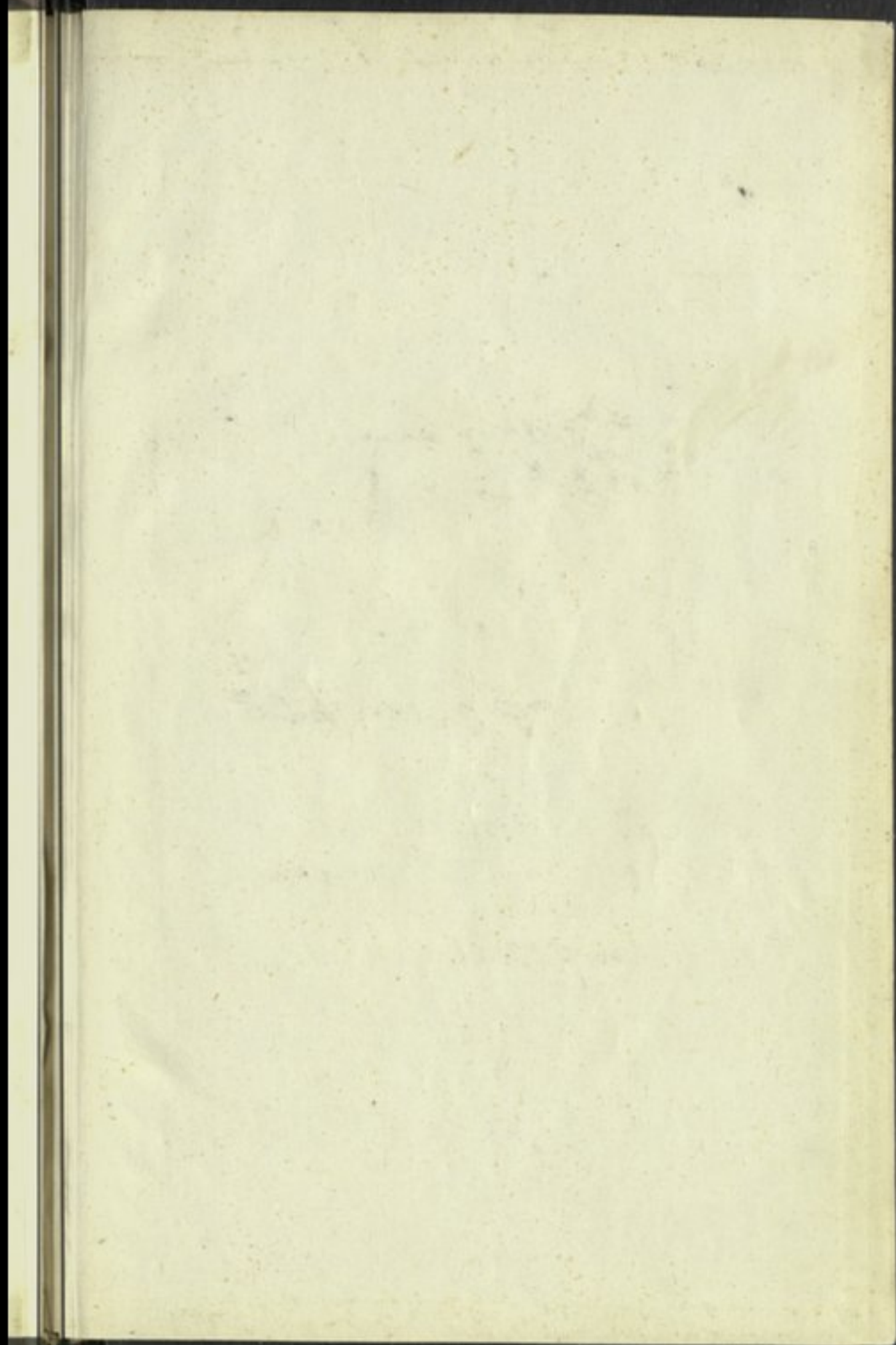
---











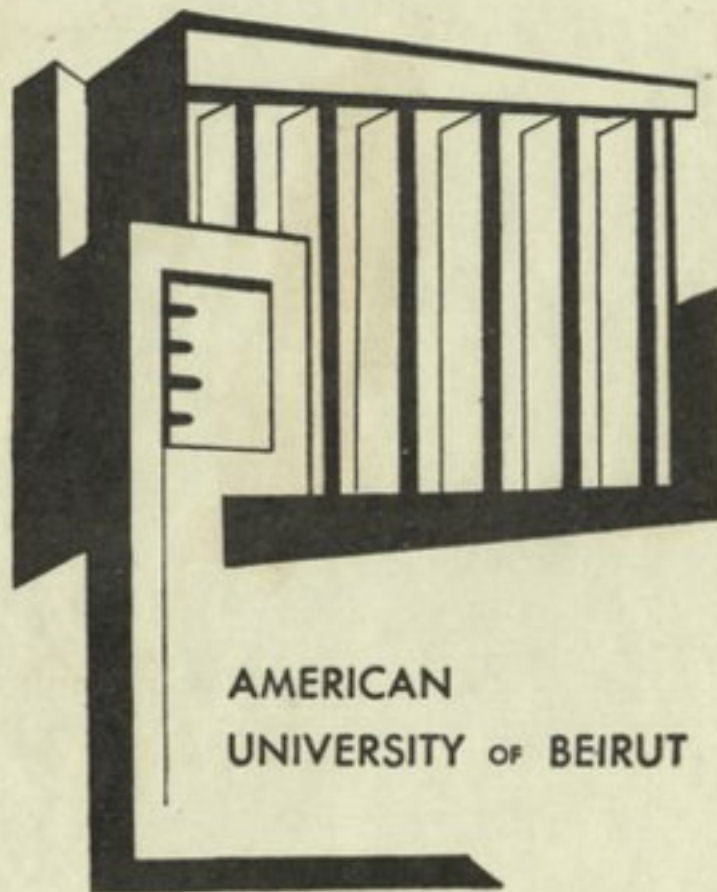
297.09:A12dA:c.1

العبادي، عبد الحميد  
الدولة الإسلامية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003557



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT

